الأوديسة السورية:
أنثولوجيا الأدب السوري في بيت النار
الكتاب الأول

أحمد جرادات

لوحة الغلاف: الفنان الأردني سعيد حدادين
(بنيلوب السورية بانتظار حبيبها)

رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons License BY

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٦٦٨ / ٧ / ٢٠٢١)

٨١٠,٩٩٠٥٦١
جرادات، احمد حسن علي
الاوديسة السورية/احمد حسن علي جرادات.- عمان:المؤلف، ٢٠٢١
( ) ص .
ر.إ. : ٣٦٦٨ / ٧ / ٢٠٢١
الواصفات : /علم الاجتماع الادبي//الدراسات الادبية//الادب العربي// سوريا//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه و لا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-67-997-2 (ردمك)

الطباعه: al-safir PRINTING PRESS مطبعة السفير

الأوديسة السورية:

أنثولوجيا الأدب السوري في بيت النار

الكتاب الأول

إهداء

إلى عائلتي الحبيبة التي انتشلت خيوط روحي من محنة المرض، فأعانتني على إنجاز هذا الكتاب الأول حول محنة سوريا الشقيقة في العشرية الحالكة.

فهرس المحتويات

إهداء 5

كلمة 9

تقديم 13

ملامسة 17

فاتحة 21

مدخل 25

الأوديسة السورية 1 - أوراق من سنوات الحرب على سورية 35

الأوديسة السورية 2 - ضمير الثقافة أم ثقافة الضمير 49

الأوديسة السورية 3 - مالك صقوُّر سلطان الكلمة 73

الأوديسة السورية 4 - من حضرة الرسولة الى سيدة الضوء 93

الأوديسة السورية 5 - لو تُرك القطا لغفا و نام 113

الأوديسة السورية 6 - عدرا: برزخ الحصار و سفر الخروج 139

الأوديسة السورية 7 - الجزء الأول، ديوان الجرح السوري و الشعراء المجروحين 161

الأوديسة السورية 8 - الجزء الثاني، ديوان الجرح السوري و الشعراء المجروحين 193

الأوديسة السورية 9 - نصوص في حب الشام 227

الأوديسة السورية 10 - حيث يسكن الياسمين - زفاف الياسمين 239

الأوديسة السورية 11 - إلى لقاءات فلك حصرية 249

كوكبة الكتاب و الشعراء 264

لمحة: من أنا 266

كلمة

دور الأدب في توثيق الحرب على سورية

لا شك أن الأدب يحمل طابع المرحلة التي يعبر عنها، وبالتالي فهو من حوامل التاريخ وشواهده، حتى وإن لم يكن من أسسه العلمية البحتة، ومع أننا، في الشرق، مازلنا لا نتعامل مع التاريخ برؤية نقدية علمية، إلا أنه يفرض حضوره في الكثير من الأجناس الأدبية والمعرفية، ومن المعروف أن للأدب ميزة تنبع من أعماق الذات الإنسانية وانفعالاتها تجاه الأحداث المؤثرة، وبالتالي فهي تسهم بشكل أو بآخر في بناء التاريخ ورسم معالمه، وإذا كانت الحرب من الأحداث الخطيرة التي يقف فيها الإنسان بين نار الحفاظ على إنسانيته ونار بقائه على قيد الحياة، فإن هذا يستوجب بالضرورة الدفاع بالطرق الممكنة كلها عن النفس، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا برد العدوان، وهو عدوان على الإنسانية جمعاء، لأنه في جزء أساسي منه هو عدوان على الثقافة والفكر والمعارف الإنسانية.

إن ما جرى في سورية لم يكن حرباً عادية، بالنظر إلى مقدار الوحشية والهمجية اللتين جاء بهما المجرمون من كل أنحاء العالم، بأساليب غريبة، تظهر جليةً من خلال التفنن بالقتل والذبح والاغتصاب والتدمير، وهو قتلٌ في غالب الأحيان من أجل التسلية وإشباع الغرائز الحيوانية، ومع هذا فإن أبناء سورية بوحدتهم الوطنية وجيشهم العقائدي وقيادتهم الحكيمة انتصروا على هؤلاء المرتزقة، وقاموا من دماء شهدائهم وجرحاهم ونهضت بهم سورية الحبيبة.

في ظل أجواء من الحرب الإرهابية كهذه ثمة سؤال مشروع يتمثل بـ: «ما هو دور الأدب في توثيق ما حدث»؟ وهو سؤال يطرح نفسه، باعتبار أن الأدب فعل إنساني متأثر بالأحداث، ومؤثر فيها. يتجلى هذا الدور، بشكل أساسي، في ما ترجمه الأدباء في فنونهم من شعر وقصة وروايات، وما في ذلك من أثر بالغ في ذات كل أديب اشتغل على انعكاس الحدث واستيعاب مجرياته، واستقصاء تفاصيل المشاعر التي تنتاب النفس البشرية، وما التسمية المتعارف عليها بأدب

الحرب إلا صورة عامة تشمل كل ذلك، بما فيه النتاجان الوطني واللاوطني، فالأدب الوطني هو المقاوم الشرس لأشكال «البروباغندا» التي استهدفت بلدنا، أما اللاوطني فيدخل في إطار تلك «البروباغندا»، وهو الذي حرص الأعداء على تطويعه لتشويه الصورة الحقيقية، وقلب الحق باطلاً، ومن ثم فأدبه مأجور وأصحابه مرتزقة ثقافة وأدب، لا يهتمون للوطن ولا يعنيهم ضياعه، وهذه حقيقة لا تخفى على أحد، لا بل إن الجميع أصبح على يقين، ومن خلال الوثائق، أن هؤلاء تمّ دعمهم، مادياً ومعنوياً من خلال بعض الدول التي أسهمت في هذه الحرب الإرهابية على سورية ومن ضمنها الكيان الصهيوني.

وقد لمسَ كثير من المتابعين تحسناً مادياً ملحوظاً عند هؤلاء المرتزقة، سواء داخل البلد أو خارجها، فضلاً عن تأمين إقامات لبعضم. وهنا سيقول آخرون: إن قسماً من هؤلاء كتب من دون مقابل، وليس بالضرورة أن يكون منخرطاً في مشروع عدواني ضد بلده. ولكن السؤال المنطقي: «ألا يندرج ما كتبه هؤلاء ضمن المشروع السياسي الإمبريالي في تقسيم المنطقة»؟ وهو ما يعني أن هذا الأدب أدب مأجور، وأن أصحابه ليسوا أكثر من مرتزقة.

إن المقصود بالأدب الوطني هو الأدب الناجم عن المشروع الوطني والواقف على خدمته، المندرج ضمن المبادئ والثوابت الوطنية، ولا يمكن له أن يكون مأجوراً طالما أنه يعبر عن مشروع وطني، ويمكن أن نستنتج ذلك من الحال التي يعيشها الأدباء الوطنيون، مقارنةً بغيرهم من أصحاب المواقف الوطنية فهذه الحال لم تتحسن، ولم يقفز أصحابها قفزات نوعية، بل إن كثيراً منهم وصل إلى حافة الفقر بسبب مواقفه الوطنية الثابتة ومحاربة الآخر له. وثمة دليل آخر، مهم وخطر، هو اتساع حركة الأدب اللاوطني في الخارج نتيجة الضخ المادي الهائل، وتبني بعض المؤسسات ومراكز الأبحاث والدراسات ودور النشر المشبوهة له، الأمر الذي أدى إلى انتشاره على مستوى العالم بالرغم من ضعف المادة الأدبية فيه أحيانا، بمقابل تباطؤ الأدب الوطني في الداخل، نتيجة ضعف الإمكانات بسبب الحرب والحصار المستمر، فضلاً عن التقصير غير المبرر من الجهات المعنية وبعض المؤسسات الثقافية، والذي تجلى في عدم دعم أصحاب الأقلام الوطنية، ومع هذا كان النتاج مقبولاً بالرغم من صعوبة الظروف وكِبَر التحديات.

إن الحرب التي عمت المنطقة تحت مسمى «الربيع العربي» لم تستهدف أنظمة سياسية قائمة، بمقدار ما استهدفت البنية الاجتماعية والثقافية والمعرفية، بدليل لعبها على الأوتار الطائفية ومحاولتها تشويه الثقافة والقيم والأدب النبيل الذي تربينا عليه، فضلاً عن إثارة النعرات الإقليمية والعشائرية والعنصرية مستخدمة في ذلك الترغيب والترهيب وسلاح التطرف. والحقيقة أن هذه العوامل والجهود أدت إلى ضعضعة أركان العيش المشترك، بشكل أو بآخر، إلاّ أنها لم تسهم في تقويضه ونسفه، وهذا يعود بشكل أساسي إلى قوة البناء التي ينبغي علينا أن نزيد من لحمتها وتماسكها بعد هذه الحرب، وأن نسهم في كشف وتعرية مرتزقة الثقافة ومصادري الوعي من كل الأطراف؛ لأن جزءاً أساسياً من الاستهداف خلال الحرب كان موجهاً للأدبيات الاجتماعية والثقافية والمعرفية، بل وحتى الشعبية، في الوطن العربي، والتي هي بالنتيجة مصدر الأدب الموثق، إذ يلاحظ المرء أن كلمة النظام على سبيل المثال فقدت مكانتها، بل أصبحت من المصطلحات المرفوضة من بعض الشعوب، لا سيما وأن هذه الكلمة قد صودرت وأصبح أصحاب الأقلام الوطنية يتحاشون إدراجها في كتاباتهم حتى لا يحسبوا على أصحاب الأدب اللاوطني، وهذا مثلٌ مهم وخطر عن قلب المفاهيم... وهكذا كان استهداف البنية الاجتماعية العربية، بأدبياتها المختلفة كبيراً، لا سيما وأنه كان يهدف إلى تقويض كل ما تمّ تدريسه للأجيال وتنشئتهم عليه، وهو استهداف إمبريالي عالمي لتفكيك العرى والروابط وتحويل العيش المشترك إلى حروب ونعرات وثارات، فضلاً عن محاولات تقسيم المقسم وتجزيء المجزأ، هذا بالطبع كان مدروساً ومخططا له في ظل تراخي المؤسسات الثقافية وترهلها، ونخبويتها، واتساع الشرخ القائم بينها وبين الناس الذين تشغلهم لقمة العيش عن كل شيء فما بالك بالشأن الثقافي، الذي يجب أن يكون ميدانياً ويذهب إلى الناس في بيوتهم في حال عدم تمكنهم من قصده.

وعندما يتحدث المرء عن دور الأدب في توثيق الأحداث التي عصفت في سورية، فإنما يتحدث عن الأدب الوطني الصادق، أما الأدب اللاوطني فلا يملك المصداقية على الإطلاق، ولا يمكن الحديث عنه إلاّ لتعريته والتحذير منه، لأنه أدب لا يمكن الوثوق به حتى من أولئك الذين كتبوه أو دافعو عنه، لأنهم إنما فعلوا ذلك بقصد الفائدة المادية بعيداً عن القناعة والمبادئ. وتأسيساً عليه

فالمصدر الثابت للتوثيق هو الأدب الوطني وحده، لأنه يؤكد التلاحم بين الكلمة والبندقية، فالأديب الوطني يقاتل بكلمته لإيمانه المطلق بأنها بندقيته في الوقت نفسه، وهذا ما يرينا الأدب الوطني بأبهى صوره، وهنا لا بد من التأكيد أن العالم وقف أمام جيش سوري لا تنقصه الثقافة كما لا تنقصه الشجاعة، وشعبٍ قدم الكثير من التضحيات وبقي ثابتا على موقفه ووفيّا لبلدهِ، وهو ما سيشكل مادةً غنيةً للأدباء وكذلك الباحثين في الأجناس الأدبية جميعها في المرحلة المقبلة.

إن ما قدمه الباحث الأستاذ أحمد جرادات في عمله الموسوعي والملحمي الموسوم ب» الأوديسة السورية« ، ما هو إلا تأكيد على وحدة القضية وصدق الانتماء، فالعروبي الأصيل لا يمكن للحدود المصطنعة إلا أن تزيده تمسكاً بالمواقف والمبادئ الأصيلة. تحية المحبة والامتنان للباحث الألمعي على هذا الجهد الجبار.

الدكتور محمد الحوراني
رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية

تقديم

طلب مني الصديق العزيز، المناضل والأديب التقدمي أحمد جرادات، أن أكتب تقديما لهذا العمل الأدبي النضالي التفصيلي، الذي يقدم صورة حية للوجدان الأدبي السوري في عشرية الحرب الكونية على سوريا شعبا وجيشا وقيادة ودولة. وسوريا، بالنسبة إلينا، نحن الأردنيين، ليست مجرد جار عربي عزيز، وإنما هي بمثابة القلب الذي يمدنا بالدماء وعصارة الحياة.

ويندرج هذا الكتاب، النابض بأسلوبه المشرق الحميم وتحليلاته الثقافية العميقة وصدقه الطافح، ضمن إطار التصدي للحرب الثقافية الآيديولوجية، التي شكلت بعدا رئيسيا من أبعاد الحرب الكونية على سوريا. وهذا ما يؤكده منذ البداية الصديق أحمد جرادات. فالهجمة الشرسة التي تعرضت لها سوريا كانت عسكرية إرهابية واقتصادية وثقافية وإعلامية وآيديولوجية شاملة، ربما لم يشهد التاريخ لها مثيلا في شمولها وشراستها وفبركاتها. وطبعا، لولا وجود طابور خامس سوري وعربي ضخم جدا شكَّله الريع النفطي عبر عقود، ولولا سنوات طويلة من إفساد الوعي العربي بنتيجة هزيمة حركة التحرر القومي العربية، لما تمكنت الإمبريالية الغربية من شن هذه الحرب التدميرية على سوريا. وقد حشدت الإمبريالية جيشا من عتاة الإرهابيين الظلاميين من شتى أصقاع الأرض وأموال الريع النفطي وطابور خامس من الكمبرادور الثقافي العربي، الذي باع ضميره الثقافي بثمن بخس، والذي سخَّر مهاراته الثقافية والفكرية للنيل من الحق السوري وتشويه سمعة الدولة السورية والجيش العربي السوري والصمود السوري الأسطوري. وهي مهارات مُعهَّرة، لأن أساسها هو التعبير عن روح الوطن والأمة العربية وروح الإنسانية التواقة للحرية والتحرر والكرامة والإبداع والتقدم، وليس تبرير هجمة ناهبي الأوطان ومفككيها وقاطعي الرؤوس وآكلي الأكباد وقامعي الأذهان والعقول.

إن التصدي لطابور الكمبرادور الثقافي الرث ومحاولاته فبركة الأحداث وتبرير الخيانة الوطنية باسم الحرية والديموقراطية وخدمة المشروع الصهيو-إمبريالي بات أمرا ملحا لا يقل إلحاحا عن تصدي الجيش العربي السوري البطولي

للهجمة الإرهابية الرجعية على الوطن السوري، خصوصا في ضوء تراجع أعداد المثقفين الوطنيين التقدميين حاملي مشروع التحرر والتقدم والتنوير وتصاعد أعداد تجار الثقافة ومعهريها، منذ إلغاء الاتحاد السوفييتي وهيمنة الإمبريالية الأميركية على مقدرات العالم برمته.

لكن سوريا صمدت، الأمر الذي لم يكن في حسبان الإمبرياليين والرجعيين والإرهابيين. صمدت سوريا، وصمدت قيادتها ودولتها وشعبها وجيشها وشعراؤها وأدباؤها وباحثوها. صمدوا رغم قسوة الهجمة. إذ فات معسكر الأعداء والعدوان أن سوريا هي نتاج إرث من العراقة التاريخية التي لا تضاهى والتي تمتد في الماضي إلى آلاف السنين. وفاتَهم أيضا إرث سوريا النضالي التحرري الذي أكسبها استقلالا سياسيا واقتصاديا وثقافيا لا نجد له مثيلا في الوطن العربي. فسوريا أبتْ ان تسلم رقبتها لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والبنوك العالمية وللمديونية المتصاعدة. وهذا بدوره مكنها من بناء قاعدة إنتاجية متنامية كادت أن تصل بها إلى مصاف الدول الصناعية المتقدمة لولا هذه الهجمة الإجرامية. كما مكنها من الوقوف بحزم أمام قوى الاستسلام والتطبيع مع الكيان الصهيوني الغاصب، ومن الدعم غير المحدود للمقاومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، الأمر الذي مكن المقاومة اللبنانية من تحقيق الانتصار عام 2000 وعام 2006، ومكن المقاومة الفلسطينية في غزة من الصمود. إنهم لم يدركوا أن صمود سوريا ينبع من أعماق التاريخ والحضارة ومن روح الاستقلال والمقاومة. لقد أفلحوا في تدمير الكثير من البنى السورية وفي قتل مئات الآلاف من السوريين وتكبيد سوريا خسائر فادحة، لكنهم عجزوا تماما عن كسر إرادة الدولة السورية والشعب السوري. فصمدت الدولة، التي أرادوا تفكيكها وتسليمها إلى الإرهابيين التكفيريين، وصمد الجيش العربي السوري، وصمد الشعب السوري، وصمدنا معها لأن أقطارنا ما كان لها أن تستمر متماسكة لولا الصمود السوري وثبات الدولة السورية وتماسكها. لقد أثخنوا سوريا بالجراح، لكن ما يدمينى ولا يقتلني يقوّيني، كما سبق أن قال نيتشه. لذلك كلنا أمل في أن تضمِّد سوريا جراحها وتنطلق محلقة في سماء الحضارة وأن تظل قلب العروبة النابض ومنارة للمقاومة والتحرر الوطني.

وقـد لفـت نظـري في هـذا الكتـاب العنـوان الفرعـي "ثـورة أم ثـورة مضـادة". وأضيـف إلى هـذه الثنائيـة مصطلحـا آخـر هـو مصطلـح الثـورة المفبركـة الإعلاميـة الهوليووديـة (ثـورات الجزيـرة والعربيـة والبـي بي سي). ففـي سـوريا وليبيـا مـن قبلهـا شـهدنا ثـورات مفبركـة إعلاميـا فبركتهـا قـوى الثـورة المضـادة، وعـلى رأسـها الإمبرياليـة الأميركيـة، مـن أجـل خـداع جماهـير الأمـة العربيـة وجماهـير العـالم، ومـن أجـل تشـويه مفهـوم الثـورة والحـراكات الثوريـة العربيـة الحقيقيـة. وبالفعـل، تـم خلـق أجـواء شـعبية معاديـة لسـوريا، ليـس سـوريا الحقيقيـة، وإنمـا سـوريا المتخيلـة إعلاميـا، واسـتُغل التخلـف الطائفـي المسـتشري في الوطـن العـربي نتيجة هيمنـة الريع النفطـي عـلى وعـي الأمـة لهـذه الغايـة. ومـن ذلـك تنبـع أهميـة المقاومـة الثقافيـة والفكريـة والإعلاميـة. ولكـن، علينـا أن نعـترف أنـه لـولا الصمـود الأسـطوري للقيـادة السـورية والجيـش العـربي السـوري، لمـا اسـتطعنا إقنـاع الجماهـير العربيـة بالحـق السـوري مهـما حاولنـا ثقافيـا. لكـن، يظـل للمقاومـة الثقافيـة دورهـا وأهميتهـا في هـذا الـصراع. ومـن ذلـك تنبـع أهميـة هـذا العمـل. فهـذا العمـل هـو فعـل فكـري نضـالي. وكاتـب هـذا العمـل مناضـل أردني صلـب تصـدى للطغيـان والخنـوع والاستسـلام لسـنين طويلـة، وعـانى مـا عانـاه مـن اضطهـاد واعتقـال وسـجن. لكنـه صمـد صمـود الأبطـال. وظـل قابضـا عـلى الجمـر حتـى بعـد أن انحـسر اليسـار في العـالم، وخصوصـا في الوطـن العـربي. ظـل وفيـا للكرامـة الإنسـانية والقيـم الوطنيـة والقوميـة والإنسـانية، وسـخَّر قلمـه الأدبي الرفيـع في سـبيل ذلـك. واحتلـت سـوريا القلـب مـن اهتماماتـه الفكريـة النضاليـة، لأنـه أدرك تمامـا أن سـوريا تتصـدى بـكل بسـالة نيابـة عنـا جميعـا، ونيابـة عـن الأمـة العربيـة، لا بـل العـالم برمتـه. وبـذل في هـذا الكتـاب جهـدا نقديـا كبـيرا في تحليـل بعـض النـماذج الأدبيـة السـورية المتميـزة في غضـون السـنوات العـشر الأخـيرة التـي اكتـوت بهـا سـوريا شـعبا وجيشـا وقيـادة مـن جـراء الحـرب الكونيـة الإرهابيـة التـي شـنت عليهـا في العـشر سـنوات الأخـيرة ومـا قبلهـا. وهـل هنـاك أفضـل مـن الأدب في التعبـير عـن معانـاة شـعب يكافـح للبقـاء؟

لقـد أفلـح الصديـق أحمـد جـرادات في هـذا العمـل النقـدي الكبـير في رسـم صـورة مفصلـة وصادقـة للوجـدان السـوري إبـان محنـة الشـعب السـوري الكـبرى، تلـك المحنـة التـي كشـفت عـن معـدن هـذا الشـعب العريـق وعـن بطولـة وطنيـة قـلَّ

نظيرها. فلم تدخر الإمبريالية جهدا في تجنيد حثالات الأرض الإرهابية وتسليحها وتدريبها وتمويلها ثم بثها عبر الحدود من أجل تفكيك الدولة والمجتمع السوريين. لكن سوريا بعراقتها وعروبتها ووطنية أبنائها وعلمانيتها وتقدميتها وصلابة جيشها استطاعت أن تصد هذه الهجمة الهمجية. بقي عليها أن تحرر باقي أراضيها من الإرهاب التكفيري والاحتلالين التركي والأميركي ومن رجس الانفصاليين وإعادة إعمار سوريا على أسس اشتراكية علمانية تقدمية. وكلنا أمل في أن تتمكن سوريا شعبا وجيشا وقيادة من تحقيق ذلك بعد دحرها الأسطوري للإرهاب التكفيري. وعلينا جميعا واجب دعم الجهود السورية في هذا المضمار كل حسب طاقته. ولنا في كتاب الصديق أحمد جرادات قدوة ساطعة في ذلك.

الأستاذ الدكتور هشام غصيب

مُلامسة

هـذه الدراسـة أول إحاطـة بالتعبـير الأدبي عـن الحـرب عـلى سـورية. لذلـك تحمّـل كاتبهـا الأسـتاذ الزميـل أحمـد جـرادات مسـؤولية الريـادة وثقلهـا. وهـي دراسـة مفتوحـة الآفـاق، لأن الحـرب لا تـزال مسـتمرة، ولأن المقاتلـين لم يسـجلوا بعـد مذكراتهـم التـي يفيـد منهـا الكتّـاب، ومـا قـدم للنـشر مـن رواياتهـم لم يظهـر بعـد. ولا شـك في أن أجمـل الشـهادات عـلى البطـولات والصـبر سـتظهر فيـما بعـد!

قـال مجنـد سـوري بسـيط للعصابـة المسـلحة التـي اعتقلتـه: "واللـه لنمحيهـا"! قصـد دولـة التكفيريـين السـوداء التـي كانـت تَغـرس مخالبهـا بـين سـورية والعـراق. وكان رجالهـا هـم الشـهود عـلى كلام المجنـد الشـجاع، وكان يمكـن ألا تصـل صرختـه إلينـا أبـداً.

ربمـا كنـت أشـبهه عندمـا كتبـت "أوراق مـن سـنوات الحـرب عـلى سـورية" في الأيـام الاولى التـي هيمـن عليهـا الذهـول العـام والعصابـات المسـلحة، حتـى نشرتُهـا سـنة 2014. وكانـت دمشـق نفسـها تحـت النـار، مهـددة بالاجتيـاح مـن شرقهـا وغربهـا. نشرتهـا قبـل التدخـل الـروسي الـذي حمـى الدولـة السـورية، دون مسـاعدة أيـة مؤسسـة ثقافيـة، كي أؤكـد تعبـيري عـن الانحيـاز الحـرّ إلى الدولـة السـورية. فمنـذ اللحظـة الاولى شـعرت بهـول مـشروع تفكيـك سـورية والعـراق ولبنـان الـذي يمـدّ ليـل الإمـارات المذهبيـة والإثنيـة عـلى المنطقـة.

خـلال الكتابـة، كان الاسـتناد إلى المعلومـات ضرورة لتحصـين حـدسي الشـخصي ولكشـف الحقائـق. وسـاعدتني اللغـات التـي أعرفهـا في قطـف تلـك المعرفـة. ولعـل أيـام الحـرب الطويلـة سـمحت لي بذلـك البحـث، وبالعمـل الـذي يفحـص الأداء الفنـي ويقلّمـه، ويضبـط تدفـق الوجـع الروحـي. كان مصـير سـورية يومـذاك في خطـر، ومـن ضاحيـة داريـا قـربي يمكـن أن تدخـل العصابـات التكفيريـة المسـلحة. وعـلى الشـوارع حيثـما مشـينا تتسـاقط الصواريـخ القاتلـة. لكـن الجيـش كان قـد نفـض عنـه مفاجـأة السـنة الاولى وبـدأ يألـف، كجيـشٍ نظامـيٍ، مواجهـة حـرب العصابـات ويتبـادل الخـبرة مـع الأشـقاء المقاومـين.

تهاوت تحت النيران يومذاك، المناقشات التي قصدت أن تشغلنا قبل الحرب: المثاقفة، التناقض بين السياسي والثقافي، رسم شخصية الآخر العدو، والرأي الآخر. مع أننا تحدثنا قبل الحرب عن ثقافة المقاومة، وفي بداية الحرب ذكرنا ضرورة مواجهة ثقافة الفكر التكفيري. ولعلنا في تلك الأيام واجهنا نتائج التسامح الذي اعتمد أشخاصاً غير موهوبين، غير صادقين، ليتصدّروا الثقافة، فإذا هم يصدحون في الفضائيات والمؤتمرات ضد وطنهم. وخيّبنا أيضاً بعض أصدقائنا الذين هاجروا من الوطن بدلاً من الثبات فيه. هكذا واجهنا مستويات متنوعة من الحرب، إعلامية وثقافية ووجدانية. وكانت الكتابة لنا نجدةً وواجباً. وكان الوقت متسعاً لتأمل حياتنا نفسها.

يشهد تاريخ الأدب العالمي أن الأعمال الأدبية التي تعبّر عن القضايا الإنسانية والوطنية الكبرى هي القادرة على الخلود. لكن وضع تلك الأعمال في النهج التربوي وفي مساحة التذوق مسألة سياسية. لذلك انتشرت في اوروبا أناشيد المقاومة سنوات فقط بعد الحرب العالمية الثانية، ولم تبق حتى أطيافها عندما حكمت الليبرالية الجديدة المجتمعات الاوروبية. تفسّر تجربة الاتحاد السوفييتي وما بعده هذه المسألة. فقد غمس الأدب ريشته بوقائع الحرب، وكتبت قصائد الشعر تحت نار المعارك. ولدت قصيدة سيمونوف المشهورة "انتظريني وسأعود، لكن انتظري طويلاً" في الجبهة. وأصبحت قصيدة كاتيوشا نشيداً وطنياً عاماً. وأنتجت خلال سنوات الحرب أفلام جيدة لا تزال من الكنوز الفنية الإنسانية. أثّرت الحرب في مصائر الشعوب السوفيتية، كما أثّرت هذه الحرب في مصائر السوريين. لكن النهج السياسي هناك وقتئذ وضع التعبير الفني عنها في الكتب المدرسية، وثقّف بها بالكتب والأفلام والمسارح والحفلات الموسيقية. في السنة التي يدرس فيها الأجانب مبادئ اللغة الروسية تعلمنا قصيدة "انتظريني وسأعود"، وقصصاً عن المقاومة. يدهش اليوم من يبحث في تلك الكنوز التي أنتجها الاتحاد السوفييتي غناها وقدرتها على التأثير في المعاصرين حتى هذه اللحظة.

المسألة التي يجب أن نواجهها إذن، ليست فقط أن يستلهم الكتّاب أحداث الحرب ويستخدموا المعلومات التي تشهد عليها، فقط، بل وضع المختار الناجح

مـن تلـك الأعـمال في النهج التربـوي العـام. كي يبقـى هـذا المقطـع الغنـي بالبطـولات والأوجـاع والصـبر والوعـي في الذاكـرة العامـة مـن خـلال أعـمال فنيـة قـادرة عـلى الخلـود. لكننـا هنـا أيضـاً نواجـه إصـلاح النهـج والرؤيـة، كي نعتمـد فقـط الموهوبـين والمخلصـين، المتصوفـين في العمـل الفنـي، المؤمنـين بـأن الروايـة والقصـة والمسرحيـة والنشـيد والموسـيقى تسـتلهم الحقيقـة، وتسـتند إلى المعرفـة، وإلى عمـلٍ يشـبه النحـت في الحجـر، وتشـكيل الطـين، والتأليـف الموسـيقي، وتشـييد المعابـد الكـبرى، ويهـدف إلى الارتقـاء بالوعـي والـذوق.

لعـل المسرحيـات التـي كتبتهـا بعـد التدخـل الـروسي والاطمئنـان إلى مصـير الدولـة السـورية، وتناولهـا الأسـتاذ أحمـد جـرادات في هـذا الكتـاب، إشـارة إلى بحـث الكاتـب الدائـم عـن الشـكل المناسـب لـلأداء. فالعـالم بـدا لي وقتـذاك كمـسرحٍ واسـعٍ يـؤدي فيـه زعـماء العـالم دورهـم، ويعـاني فيـه الضحايـا مـن المـوت والأوهـام ويحلمـون بالنجـاة. مـع أني أعـرف أن تلـك المسرحيـات، في شروط الواقـع المسرحـي الراهنـة، لـن تقـدّم عـلى المـسرح. لكنـي أردتهـا شـاهداً للمسـتقبل عـلى أفـكار ومشـاعر شرائـح متنوعـة مـن السـوريين، وعـلى صبرهـم وصمودهـم في الحـرب. تحملـت قـراءة كثـير مـن المؤلفـات السـلفية، مـن ابـن تيميـة إلى ابـن القيـم إلى سـيد قطـب والدعـاة المعاصريـن، كي أجسـد في مشـاهدَ الفكـرَ التكفـيري. وخـلال جمـع قصـص المهاجريـن في البحـر، وقصـص السـوريين الذيـن عاشـوا في المناطـق غـير الآمنـة، تعمّـق ايمـاني بمسـؤولية الكاتـب عـن أداء معانـاة النـاس، وزاد إعجـابي بصلابـة السـوريين وصبرهـم وشـجاعتهم.

كتابتنـا عـن الحـرب التـي عصفـت بالوطـن، ليسـت حاجـة أو واجبـاً فقـط، بـل أمانة. فذاكـرة مرحلـة تاريخيـة حصانـة للأجيـال القادمـة. المثـل عـلى ذلـك أن السياسـة الروسـية بعـد البيريسـترويكا اسـتندت إلى شـعر وأغـاني الحـرب الوطنيـة العظمـى، لتسـتنهض الاعتـداد الوطنـي الـروسي وتسـتعيد للشـعب الـروسي كرامتـه، وتذكّـره بالثمـن الـذي دفعـه ليخلّـص العـالم مـن شر النازيـة العنصريـة. وكسـبت الشـباب إذ وضعتهـم إلى جانـب آبائهـم خـلال اسـتدعاء الذاكـرة.

تلك لمحة من فضائل الفن. فالفن يؤدي دوره في استنهاض الروح بعد مئات السنوات من صياغته متجاوزاً حدود الزمان والمكان إلى أجيال وطنه وإلى الإنسانية. لذلك تمسّ وجداننا حتى اليوم قصيدة ابن الريب في رثاء نفسه، وشعر المعري، وتجتمع في تلك القمة الإنسانية ما أنجزته عصور من الفنون القادرة على خطاب الإنسان، وتؤدي واجبها المقدس في ترقيق عواطفه، وتهذيب طباعه، وتوسيع وعيه.

هكذا يتضمن نداء الفن منظومة فكرية، مستلهمة من مسائل زمنه ومن تجاوزها. وهي في حالتنا أثر الحرب في الإنسان، وقدرته على مواجهة شرورها. لكننا لا نؤثر بأدائنا إلا إذا امتزجت في أعمالنا قوة البحث، ودقة المعلومة، وجمال العمارة. ما أقسى شروط العمل الأدبي القادر على الحياة، إذن! فلابد للرؤية الأخلاقية الفنية والفكرية التي يتضمنها العمل الأدبي أن تكون ذات جذور في الواقع الحي، وذات أغصان وارفة، ولابد من أن تمتع وتلامس الروح. لذلك ماأخطر أن نقصر عن أداء مسائل الحياة في منطقتنا الفوّارة! ما أخطر ألا نتبيّن أن الكتابة وسيلة ماضية الحدّ، قد ندافع بها عن أنفسنا وقد تسدّد إلينا! وما أخطر أن نجهل أن الأدب لن يكون إنسانياً إلا إذا كان مستنبتاً من أرضه الوطنية!

الدكتورة ناديا خوست

فاتحة

ماذا تشمل أنثولوجيا الأدب؟

ليس ثمة قائمة محتويات محددة وحصرية وشاملة لكتب/مصادر أنثولوجيا الأدب، بل إنها تختلف من مصدر إلى آخر. فوفقاً لكتاب "أنثولوجيا نورتون للأدب الإنجليزي"[1]، على سبيل المثال، فإن الأعمال الأدبية التي يتضمنها هذا المصدر تشمل طيفاً واسعاً من الألوان الأدبية: الشعر، القصة القصيرة، الرواية، المسرح، المقال، النقد الأدبي، النثر، الملحمة، الأغاني، القصيدة الغنائية، وغيرها.

وقد تحوَّل المعنى الأوسع لمصطلح "الأدب" على مدى قرون من جسم الكتابة بأكمله المنتَج بلغة معينة، إلى مجموعة فرعية من الكتابات التي تضم الأعمال التي تجتذب اهتماماً خاصاً بسبب جمال شكلها أو قوة تعبيرها. بيد أن كل نص يجتذب اهتماماً خاصاً يخضع لحوار أو مراجعة دائمَيْن، وأن الحدود الفاصلة بين ما هو "أدبي" وما يُعتقد بأنه "غير أدبي" تتغير ويُعاد رسمها باستمرار.

وقد تضمَّنت "أنثولوجيا نورتون" المشار إليها العديد من النصوص التي من شأنها أن تلقي ظلالاً من الشك على أي مفهوم للأدب يحدد مجموعة معينة من أنواع الكتابة، مع أنها تعتبر الرواية حجر عثرة أمام إمكانية إدماجها في الأنثولوجيا بسبب طولها، ولأن من الصعب جداً اقتطاف فقرات تمثيلية من الرواية، التي تعتمد قوتها على اتساعها أو على التطور البطيء لشخصياتها أو على التدفق السريع لسرْدها.

أما في هذه الأنثولوجيا التي نحن بصددها، "أنثولوجيا الأدب السوري في بيت النار"، التي استحقت اسم "الأوديسة السورية" بجدارة، فإن ما يُسمى بـ "نطاق اختصاصها" terms of reference يشمل: الشعر، القصة القصيرة، الرواية،

1- The Norton Anthology of English literature, Seventh Edition, Volume 2, Stephen Greenblatt, Associate General Editor, W.W Norton & company. New york. London C 2000

المسرح، الدراسة والبحث، المقال، واليوميات، من بين المؤلفات التي تمكنتُ من الحصول عليها أو تفضَّل أصحابها بتوفيرها لي أثناء زيارتي إلى دمشق بمناسبة احتفالية العيد الذهبي لتأسيس اتحاد الكتاب العرب في سورية في كانون الأول/ديسمبر 2019، التي شرَّفني الاتحاد الشقيق بدعوتي لحضورها. ويحدوني أمل كبير في الحصول على غيرها في قادم الأيام لتضمينها في الأجزاء التالية من الأوديسة السورية، بعد أن ضربت جائحة كوفيد-19 وسُلالاتها الخبيثة كوكبنا وحوَّلتْه من "قرية صغيرة" على حد وصف أنصار العولمة الرأسمالية الذي كان سائدا قبل تفشيِّها، إلى أرخبيل جزر منفصلة ومتباعدة ومعزولة عن بعضها بعضاً، وأوقفتْ الحياة البشرية وقتلت الإنسان الاجتماعي وجمَّدت العمل في كل شيء تقريبا، بما في ذلك عملي في مشروع الأوديسة السورية، وجعلت من المتعذر القيام بزيارات أخرى إلى سوريا كنت أخطط لها لاستكمال العمل الذي بدأته، آملاً في زوال الغمَّة في أقرب وقت.

ما هي الأوديسة السورية؟

الأوديسة السورية مشروع ثقافي أعكف على إعداده بعنوان "الأوديسة السورية: أنثولوجيا الأدب السوري في بيت النار"، يضيء الأعمال الأدبية التي ألَّفها كُتَّاب سوريون عايشوا الحرب العدوانية على سوريا ووقفوا ضدها وكتبوا مؤلفاتهم في أتونها، في الفترة منذ إشعال فتيلها في آذار/مارس 2011 حتى اليوم، وهي فترة نطاق البحث التي بلغتْ في آذار/مارس من هذا العام 2021 "العشرية الحالكة"، وذلك إسهاماً متواضعاً من جانبي في إسناد المعركة الثقافية التي يخوضها الكتاب السوريون الوطنيون والتقدميون ضد قوى العدوان الامبريالي-الصهيوني-الرجعي العربي الهمجي وشغّيلتهم من جحافل الإرهابيين على سوريا وفي مواجهة الفكر الظلامي التكفيري والنيوليبرالية المتوحشة.

كيف وُلد عنوان "الأوديسة السورية"؟

في كانون الثاني/يناير 2018 قرأتُ متأخراً، بسبب ظروف الحرب على سوريا، كتاب الدكتورة ناديا خوست "أوراق من سنوات الحرب على سورية"[2]، وحالما فرغتُ من قراءته وجدْتني أقفز فوراً وبلا تردد إلى النتيجة، إلى عنوان المقال الذي سأكتبه حوله، دون أن يُغني عنه مهما يكن. هذا الكتاب الذي قرأتُه للتو، هو "أوديسة" سورية بلا مبالغة. وخلال قراءتي الكتاب حضرَ في ذهني، أوّل ما حضر، الأوديسة الإغريقية الشهيرة، لكن في زمان آخر ومكان آخر وسياق آخر، فضلاً عن الدلالات المختلفة والمتداخلة والمشتبكة، التي تروي رحلة العودة إلى الوطن "نوستوس" التي قام بها أوديسيوس (يوليسيز) منذ مغادرته طروادة، وما كابَده خلالها من أهوال وحروب على مدى عشر سنوات، مع البَشر تارة ومع الآلهة تارة أخرى ومع أنصاف الآلهة وأنصاف البَشر تارة ثالثة، من أجل الوصول إلى هدفه النهائي: العودة إلى وطنه وعائلته. وكان يعلن أنه لن يحقق ذلك الهدف إلا بعد خوض المواجهة الحاسمة مع والقضاء على جميع رجالات المملكة الذين يتنافسون بضراوة على الظفر بمملكته من خلال الفوز

2- ناديا خوست، أوراق من سنوات الحرب على سوريا، مؤسسة الصالحاني، دمشق، الطبعة الأولى، 2014

بزوجته بنيلوب، التي تلجأ إلى استراتيجية الحيلة الشهرزادية بسبب قوة الأعداء المتنافسين ووحشيتهم وعدم قدرتها على مجابهتهم، حيث تصرُّ على أنها لن تختارَ أحداً من بينهم إلا بعد أن تفرغ من غزْل كفن والد زوجها لاريتيس، ولكنها كانت تفكك في الليل ما حاكتْه في النهار كما هو معلوم في الملحمة الكبرى للشاعر الضرير هوميروس.

إنها إذن ليست رحلة العودة إلى الوطن فحسب، بل رحلة استعادة الوطن من مغتصبيه. من هنا لمعتْ في ذهني وانبثقت فكرة العمل على إنجاز مشروع ثقافي أوسع يحمل هذا العنوان، ومنه جاءت التسمية "الأوديسة السورية". هكذا يُهدي الجزء اسمه للكل، وليس العكس. ويتلخص المشروع المقترح في إعداد مشروع ثقافي بعنوان "الأوديسة السورية": أنثولوجيا الأدب السوري في بيت النار"، يقارب الأعمال الأدبية التي ألَّفها كُتَّاب سوريون عايشوا الحرب العدوانية على سوريا وكتبوا مؤلفاتهم في أتونها خلال الفترة منذ إشعال فتيلها في مطلع عام 2011 حتى الآن، وقد بلغت "العشرية الحالكة"، وذلك إسهاماً متواضعاً من جانبي في إسناد المعركة الثقافية التي يخوضها الكتاب السوريون الوطنيون والتقدميون في مواجهة العدوان الهمجي والفكر الظلامي التكفيري والنيوليبرالية المتوحشة، لا مزاودةً على المثقفين السوريين، فهم أقدر مني وأكفأ، وأعرَف مني بتفاصيل شؤون سوريا، صغيرها وكبيرها، وإنما لأنني، شأني شأن العديد من الأردنيين، أعلم على وجه اليقين أنه إذا هُزمت سوريا، طارَ الأردن كله، كياناً وشعباً وجغرافيا، في مهب الرياح الصهيونية – الامبريالية-الرجعية العربية المجحفله بالإرهاب.

مدخل

الانتليجنسيا في الحرب الثقافية: قادة لشعوبهم أم بيادق في أيدي أعدائها؟

قبل اقتحام بيت نار الأوديسة السورية في هذه الحرب العالمية الهمجية التي تعرَّضت لها سوريا طوال العشرية الحالكة التي مضت، ينبغي النفخ على جمرة الموضوع الأساسي، وهو الحرب الثقافية ودور الثقافة والمثقفين في التصدي للعدوان ومقاومة المعتدين وإلحاق الهزيمة بهم، الأمر الذي يقتضي الإجابة عن السؤال الأساسي في الحرب الثقافية: هل الانتليجنسيا قادة لشعوبهم أم بيادق في أيدي أعدائها؟

لعلَّ من نافلة القول إن الثقافة ليست واحدة من الساحات التي تُخاض **عليها** الحروب فحسب، بل هي من المعارك الفاصلة التي تُخاض **بها** الحروب من قبل الدول والشعوب. ولا يمكن كسب أية حرب بدون استخدام ترسانة سلاح ثقافي مختَزنة أو يتم تجهيزها لتلك الحرب، حتى لو كانت عدوانية وغير عادلة وثقافتها زائفة وشريرة ومتوحشة. وبالنسبة لحربنا الدائرة في مواجهة العدوان الإمبريالي- الصهيوني- الرجعي العربي وجحافل الإرهابيين التكفيريين من داعش والنصرة وسُلالتيهما، فإن حمَلة هذا السلاح ومستخدميه هم المثقفون التقدميون الذين يجب أن يشكّلوا "كتيبة" أو "حامية" تتقدم الجيش أو ترافقه أو تحمي ظهره. وتضطلع هذه الكتيبة الثقافية بمهمات رئيسية ثلاث: التصدي للعدو ثقافياً وفضحُ أهدافه الحقيقية؛ وتعبئة الشعب واستنهاضه لمقاومة عدوّه؛ وبيان عدالة القضية الوطنية وشرحها للعالم، وخاصةً الشعوب والحركات التقدمية، لكسب تأييدها. هذا بالإضافة إلى دور الانتليجنسيا الأساسي الدائم والثابت، وهو الدور الحضاري المتمثل في تكريس وإدامة إشغال مكان لائق للشعب/الأمة في متن التاريخ، بدلاً من أن ينزاح، أو يُزاح، إلى هامشه كما هي حالنا اليوم.

بيد أن السؤال الكبير هو: هل يقوم/هل قام المثقفون في بلادنا بهذا الدور في الحروب العدوانية الأخيرة على سوريا والعراق وليبيا ولبنان، والحبل على الجرار؟ بل ألم يشتغل كثيرون منهم في صفوف أعداء بلادهم وشعوبهم مقابل العطايا والهدايا والهِبات والجوائز والمناصب، وعملوا أبواقاً دعائية لهم وزمّارين تحت الطلب؟

من المؤكد أن الزمنَ سيكشف عن كثير من الأمثلة والممارسات المُشينة لمثقفين وكتاب وفنانين، منهم من يُعَدّ من الكبار- ولا أتحدث هنا عن السياسيين، فعن هؤلاء حدّث ولا حرج- على غرار ما كشفت النقاب عنه الباحثة فرانسيس ستونر سوندرز حول دور وكالة المخابرات المركزية "سي آي أيه" في إدارة الحرب الثقافية الباردة بتشغيل أعداد كبيرة من المثقفين والكتاب والفنانين لصالحها في أوروبا والولايات المتحدة نفسها والعالم ضد الشيوعية والاتحاد السوفييتي إبان حقبة الحرب الباردة.

مثقفون أم زمّارون؟

في كتابها الشهير "مَن دفع للزمّار؟ وكالة المخابرات المركزية والحرب الثقافية الباردة"[3] تؤكد الباحثة سوندرز أنه بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية الساخنة أوزارها، وفي أوج الحرب الباردة، أعدَّت الولايات المتحدة برنامجاً سريا للدعاية الثقافية في أوروبا الغربية بإدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (التي سترد من هنا فلاحقاً باسم "الوكالة"). وتؤكد سوندرز أن السمة الأساسية للبرنامج هي الادعاء بأنه غير موجود، وأن الحاضنة الرئيسية له هي منظمة/مؤتمر الحرية الثقافية Congress of Cultural Freedom، التي أدارها عميل الوكالة مايكل جوسلسون خلال الفترة من عام 1950 إلى عام 1967.

ومن المعروف أنه خلال تلك الفترة وصلتْ المنظمة إلى خمسة وثلاثين بلداً وشغَّلت عشرات الموظفين، ونشرتْ أكثر من عشرين مجلة مهمة، وأقامت معارض فنية وامتلكت وكالات إخبارية، ونظَّمت مؤتمرات دولية رفيعة

3 - فرانسيس ستونر سوندرز، مَن الذي دفع للزمار؟ وكالة المخابرات المركزية والحرب الثقافية الباردة، دار غرانتا بوكس للنشر، لندن، 2000.

المستوى، ومنحت جوائز لفنانين وموسيقيين وكتاباً وأقامت لهم احتفالات عامة واحتفاءات خاصة. لقد كانت مهمة منظمة الحرية الثقافية الأساسية تتمثل في إبعاد الإنتليجنسيا في أوروبا الغربية عن الاستمرار في التعلق بأهداب الماركسية والشيوعية، باتجاه استيعاب "الطريقة الأمريكية" وتحقيق ما سُمي بـ "السلام الأمريكي" Pax Americana؛ فبدأت الوكالة منذ عام 1948 بإنشاء كونسورتيوم يضطلع بمهمتين: أولاهما تحصين العالم ضد ما أسمته "وباء" الشيوعية؛ وثانيتهما تسهيل تمرير مصالح السياسة الخارجية الأمريكية.

وفي سبيل تنفيذ هاتيْن المهمتين رفعت الوكالة فزاعة "الحُمر لم يعودوا ينامون تحت السرير، بل باتوا الآن ينامون في السرير نفسه"، أي في عقر دار الولايات المتحدة وأوروبا الرأسمالية. وشكَّلت لجنة دولية مضادة لمؤتمر السلم العالمي، ضمَّت أسماء كبيرة، من قبيل تي إس إليوت، أندريه مارلو، بيرتراند راسل، وحتى ألبرت شويتزر، الحائز على جائزة نوبل. وقد بلغت ضراوة الحرب الثقافية التي شنَّتها الوكالة ومنظمة الحرية الثقافية ضد كل من يساند أو يتعاطف مع الشيوعية أو الاتحاد السوفييتي أو حتى مؤتمر السلم العالمي حد اتهامه بالخيانة العظمى والتشكيك في وطنيته أمام شعبه. ووصلت الحملة المعادية للشيوعية إلى حد أن مدير مكتب التحقيقات الفدرالي الشهير إدغار هوفر أرسل أحد عملائه إلى دار النشر التي كانت تعتزم نشر رواية "سبارتاكوس" لإبلاغها بأن مستر هوفر لا يريد أن يرى رواية هوارد فاست على رفوف المكتبات، وهذا ما تمَّ.

وتجزم الباحثة سوندرز، استناداً إلى معلومات ووثائق، بأن أسماء كبيرة لعدد كبير من الكتاب والفنانين والمؤرخين والعلماء والنقاد في أوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية ارتبطوا بمشروع منظمة الحرية الثقافية، بطريقة أو بأخرى، بعلمهم أو بدون علمهم، وأن هيئات ثقافية بأكملها وقفت ضد أنظمة بلدانها واستنْجدت بأعدائها، ومن بينها، مثلاً، اتحاد الكتاب المجريين الذي أذاع من راديو بودابست "مانيفستو" ناشد فيه جميع الكتاب والمثقفين في العالم مساندته ضد النظام الاشتراكي في بلده في عام 1956، وكان ذلك بإيعاز من منظمة الحرية الثقافية.

بمثل هذه الروح المتهافتة على تقديم الخدمات الثقافية لدول العدوان تعامل العديد من المثقفين والكتاب السوريين و العرب مع العدوان الهمجي المتعدد الجنسيات على سوريا، حيث هبَّوا لتأمين الغطاء الثقافي لوحشية العدوان، متدثرين برداء "ثورات الربيع العربي"، وألبسوه لبوس الحرب "الأخلاقية" الواجبة ضد "الدكتاتورية" في سوريا ومن أجل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي لم تعرف طريقها إلى بلدانهم يوماً. ورأوا أن أنجع سبيل إلى ذلك هو شخصَنة القضية ومذهَبتها وجعلها "قضية العرب والمسلمين المركزية"، بدلاً من فلسطين، فرفعوا شعار الإطاحة بالرئيس بشار الأسد مع مصاحف المظلومية المذهبية على رؤوس الرماح الوهابية. وقد تبنَّى أولئك المثقفون تلك السردية الليبرالية- الوهابية وتبجَّحوا بالرطانة السياسية الجوفاء وصاغوها شعراً ونثراً وخطباً عصماء في الميديا ووسائل التواصل الاجتماعي، وتسابقوا، بل تطاحنوا أحياناً و"تواشوا" (وشى بعضهم ببعض) في سبيل نيل الجوائز الثقافية والأدبية والفنية المحلية والعربية والعالمية، من قبيل "بوكر" العربية و"كتارا" القطرية وسواهما، أو طمعاً في النشر في الصحف والمجلات المموَّلة، أو المشاركة في مراكز البحوث المقنَّعة، أو الظهور على الشاشات الفضائية المملوكة والموجَّهة من قبل مشغِّليهم.

هنا يجدر التذكير بسيل البيانات السياسية المحلاَّة أحياناً بقشرة ثقافية برَّاقة التي أصدرها مئات المثقفين والكتاب والفنانين العرب، فضلاً عن العديد من المنظمات الثقافية العربية تأييداً لدول وقوى العدوان وتنديداً بسوريا التي تتصدى للعدوان.

فمنهم من خرجت بياناته تعجُّ بالأكاذيب والأضاليل السياسية ضد بلده، لكنها مموَّهة بعناوين "ثقافية" فضفاضة، من قبيل "ضد عالم اليوم"، وحاول الظهور بأنه يستند إلى "تحليل طبقي"، لكنه زائف وتعسفي، لإضفاء "صَبغة" فكرية يسارية على معارضة ليبرالية حليفة للوهابية والإرهاب.

ومنهم من افترى فرية مكشوفة حول "الصمت الرسمي العربي وتلكؤ المؤسسات الثقافية العربية إزاء ثورة الشعب السوري". إذن ما ذا تُسمى أطنانُ البيانات

والمقالات والأعمال الأدبية والفنية والمسلسلات والأفلام المتهافتة التي "صُنِّعت" خصيصاً ضد سوريا منذ اليوم الأول، أي منذ أن أطلق "فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة" برنار هنري ليفي مشروعه "الثوري" الجوَّال باسم "نظرية القذافي وتطبيق النموذج الليبي على سوريا"؟[4]

كما أنَّ منهم من استنكر موقف سوريا التاريخي من "قضية العرب الأولى"، ورفضَ "رفضاً قاطعاً الزجَّ باسم فلسطين وقضيتها والمتاجرة بدم أبنائها" من قبل الدولة السورية، وارتدى رداء ثقافياً ليقول إن موقفه السياسي المعادي لسوريا هذا يأتي استناداً إلى وحفاظاً على "الإرث الثقافي الفلسطيني المنحاز للحريات عبر روافعه التاريخية، بما يليق به كمشروع تحرري حمَلتْه وأغنتْه وعمَّقت جوهره أسماء مثل إدوارد سعيد وغسان كنفاني ومحمود درويش (من الواضح أن الغرض من "زج" هذه الأسماء الثلاثة في هذا المقام لا يخفى على أي ذي لُب حكيم."

جدل الثقافي والسياسي

إلى جانب المواقف المعلنة لبعض المثقفين المُعادين لسوريا، والتسترُّ على المواقف الحقيقية المضمَرة لبعضهم الآخر، انتعشت وتفشت في الوسط الثقافي "أُطروحة **الثقافي ضد السياسي** القديمة المعلوكة، وطفت على السطح رطانة "تثقيف السياسة لا تسييس الثقافة"، التي يوحي راطنوها، باستعلاء مصطنع، بأنهم لا يبتغون سوى مرضاة النقاء الثقافي وتجميل وجه السياسة القبيح، وذلك "بالنأي بالنفس" عن وحل السياسة. والحقيقة أن كلَّ كاتب راجح العقل يعلم في داخله أن فصل الثقافي عن السياسي في تاريخ الأمم هو فصل تعسفي و"بروباغاندا" سياسية ليبرالية، لكنها محجَّبة ببرقع ثقافي. كما أنه أشبه ما يكون بإطلاق قنبلة دخانية لإخفاء مسرح العمليات و"تغبيش" رؤية "المقاتلين" وإقناع البيادق بأنهم يدافعون عن "قضية" ويرفعون لواءها وشعارها، وهي هنا "فصل الثقافي عن السياسي"، فلا معركة بدون عُصبة تخوضها، ولا عُصبة بدون "قضية" وشعار تتلطَّى خلفهما مهما بلغت بشاعة أهدافها المضمرة. إن الفصل

4- أنظر مقالي «فيلسوف الربيع العربي و جيفارا الثورة المضادة» الحوار المتمدن 6 اكتوبر / تشرين الاول 2012

التعسـفي بـين الثقـافي والسـياسي ليـس سـوى خرافـة مكارثيـة ومحـض هُـراء، وإن السـجال بشـأنه تـرف سـقط بالتقـادم منـذ انتهـاء الحـرب البـاردة وكشْـف القنـاع عـن دور وكالـة المخابـرات المركزيـة في الحـرب الثقافيـة البـاردة بشـكل موثَّـق مـن قبـل العديـد مـن الكتـاب والباحثـين الغربيـين أنفسـهم.

بيان الندم

وكي لا ينكـر أحـد مـن المثقفـين السـوريين والعـرب مـن أنصـار "الثـورة" وأعـداء "النظـام" مـا أوردتُـه بشـأن ارتبـاط العديـد مـن الكتـاب والمثقفـين بوكالـة المخابـرات المركزيـة مـن خـلال منظمـة الحريـة الثقافيـة، لنفـي ارتباطاتهـم هـم بأعـداء سـوريا، أود أن أُشـير إلى مـا ذكرتـه الباحثـة "سـوندرز" آنفـة الذكـر مـن أنـه في أواخـر عـام 1967 وأوائـل عـام 1968، شـعر الزعيـم الجبـار لمنظمـة الحريـة الثقافيـة مايـكل جوسلسـن بالإرهـاق العقـلي والجسـدي جـرَّاء مـا اقترفـت يـداه مـن فظائـع "ثقافيـة" بحـق كبـار المثقفـين مـن خـلال وكالـة التجسـس الأمريكيـة. ومَـن يـدري، لعلهـا صحـوة ضمـير النـزْع الأخـير، فأصـدر البيـان الآتي المبـاشر الـذي وقَّعـه معـه 17 شـخصية ثقافيـة:

"نـودُّ أن نعلـن عـلى المـلأ معارضتنـا للتمويـل السـري مـن قبـل وكالـة المخابـرات المركزيـة للمطبوعـات والمنظـمات الثقافيـة وعـن إيماننـا بـأن التمويـل المنتظـم مـن قبـل هـذه المنظمـة لا يمكـن إلا أن يـضرب صدقيـة هـذه المطبوعـات والمنظـمات ثقافيـاً وأخلاقيـاً."[5]

وتضيـف الباحثـة أنـه في عـام 1978 مـات مايـكل جوسلسـون كئيبـاً وحيـداً بعـد أن تخـلَّى عنـه جميـع الذيـن تعاونـوا معـه سـابقاً، حتـى أنـه أخفـق في أن يجـد لنفسـه عمـلاً. فـإذا كانـت تلـك نهايـة مايـكل جوسلسـون، رجـل الجـبروت الـذي شـغَّل أو تلاعـب أو خـدع أو اسـتغل أو سـيَّر عـن بعـد أو اضطهـد أو حطـم عـدداً لا يُحـصى مـن أكـبر وألمـع الكتـاب والفنانـين في الولايـات المتحـدة وأوروبـا والعـالم،

5 - فرانسيس ستونر سوندرز، من الذي دفع للزمار: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والحرب الثقاية الباردة، ص 425، غرانتا بوكس، لندن 2000.

فما هو مآل المثقفين السوريين والعرب الذين يلهثون خلف تابعي جوسلسون المعاصرين وتابعي التابعين؟

ينطوي هذا المدخل على أسئلة أساسية عديدة، لا مناص من اجتراح إجابات صادقة ودقيقة وصريحة عنها، بلا مجاملة لأحد أو جهة ولا تبرير أو تسويغ لأمر ولا رطانة أو غمغمة فكرية أو سياسية:
- كيف ولماذا حدث ويحدث ذلك في سوريا والبلدان العربية؟ ما هو دور المثقفين؟ ما الذي فعله ويفعله المثقفون إذن؟ ما العمل؟ كيف الخروج من هذه الأزمة/المأزق؟

لا أدَّعي وصلاً بحل أو إجابة عن سؤال، ولست مؤهلاً لذلك، لكنني أرجو أن يُسمح لي بطرح اقتراح يقضي بالتوجُّه إلى المفكرين والفلاسفة والعلماء والمؤرخين والكتاب والأدباء والفنانين الوطنيين والتقدميين من جميع البلدان العربية ودعوتهم إلى إنشاء ملتقى فكري تقدمي يشمل الحقول المذكورة كافة، يأخذ على عاتقه الاضطلاع بالمهمة الثقافية "الوجودية" الواجبة الأداء، ويحمل على كاهله العبء الحضاري الثقيل الذي يستحق أن تنحني له أصلب الظهور، مهمة إنتاج الأفكار والتحليلات والمقاربات واجتراح الحلول الكفيلة بالخروج من المأزق الحضاري لهذه الأمة وإعادتها إلى متن التاريخ بإعلاء شأن العقل والعلم والإنسان. وأجدُ أن اتحاد الكتاب العرب في سورية، اتحاد كتاب العرب جميعاً- وأظنه الوحيد بين اتحادات الكتاب العربية الذي يحمل اسم "العرب" بدون الصفة القطرية- لا تنقصه الأهلية الكفيلة بتبني إطلاق مثل هذا المشروع التشاركي الكبير، النابع من قلب الكارثة الوطنية، ورعايته. ولعلَّ في العمل على إحراز تقدم حقيقي في سيرورة هذا المشروع الطويلة والمعقدة والمتشعبة والمتعددة الرؤى والمسارات ما يلامس جانباً من الإجابة عن الأسئلة الثقافية الكبرى آنفة الذكر.

هـل يسـتطيع الكتـاب والفنانـون أن ينتجـوا أعـمالاً أدبيـة وفنيـة في أتـون الحـرب؟

نعـم، بـل بوسـعهم خـوض القتـال بامتشـاق السـلاح النـاري، وليـس الثقـافي فحسـب، في الوقـت نفسـه. ولعـلَّ مـن أسـطع الأمثلـة عـلى ذلـك موقـف الكتـاب والفنانـين أثنـاء مـا عـرف باسـم الحـرب الأهليـة الإسـبانية.

متاريس الفلسفة والأدب

في كتابـه المدهـش " أنـا إسـبانيا: الحـرب الأهليـة الإسـبانية والرجـال والنسـاء الذيـن ذهبـوا لقتـال الفاشـية"،[6] يقـدم المـؤرخ البريطـاني دافيـد بويد هيكـوك روايـة تفصيلية لـدور العديـد مـن الكتـاب والفنانـين الغربيـين البارزيـن في مقاومـة الانقـلاب الفـاشي بقيـادة الدكتاتـور فرانكـو عـلى النظـام اليسـاري الشرعـي المنتخـب في إسـبانيا أثنـاء مـا عُـرف باسـم الحـرب الأهليـة الإسـبانية، ولتأثيرهـا الكبـير عـلى حياتهـم وأفكارهـم وحتـى كتاباتهـم في خضـم المعـارك.

فيصـور المـؤرخ كيـف كان عـدد مـن الكتـاب والفنانـين والصحفيـين المنخرطـين في صفـوف مـا عُـرف بـاسم "فيلـق المثقفـين الأممـي" يقاتلـون مـن جامعـة مدريـد، وقـد اتخـذوا متراسـاً لهـم في مكتبـة كليـة الفلسـفة والأداب، حيـث كانـوا يطلقـون النـار مـن النوافـذ المسـدودة بالكـراسي ومجلـدات الفلسـفة الألمانيـة، في مشـهد حـي لعلـه كان سـيثلج صـدر ماركـس وإنجلـز لأن فلسـفتهما جـاءت لا لفهـم العـالم فحسـب، بـل لتغيـيره أيضـاً. وكانـوا في اسـتراحة المقاتلـين بـين المعـارك يهرعـون إلى رف الأدب للتـزود بالذخـيرة الرومنسـية مـن أشـعار كولريـدج ووردزورث.

وكان الشـاعر الشـيوعي الانجليـزي الشـاب جـون كورنفـورد الـذي التحـق بالألويـة الأمميـة يطلـق النـار بحماسـة مـن خلـف متاريـس الكتـب، ويقـول إن تلـك الحـرب الثوريـة "مرعبـة عـلى نحـو مُبهـج!"

6- Haycock, David Boyd, Iam Spain: The Spanish Civil War And The Men And Woman Who Went To Fight Fascim, Bercon, Uk, 2012

ففي تموز/يوليو 1936 اندفع عدد غفير من الكتاب والفنانين والمثقفين إلى امتشاق السلاح الحربي، فضلاً عن السلاح الثقافي، دفاعاً عن الجمهورية الإسبانية الثانية، وكان من بينهم أسماء لامعة، من قبيل الشاعر جون كورنفورد والروائي أيرنست همنغواي، وغيرهم من الأسماء التي تحدَّث عنها المؤرخ دافيد هيكوك في كتابه الذي تضمَّن تحليلاً سياسياً، إلى جانب الوصف الحي للمعارك وحكايات البطولة الرومنسية، بحيث لم يتوانَ عن القول إن الحرب الإسبانية، النسبة لذلك الجيل من الكتاب والفنانين، "كانت تتسم "بالجاذبية"، وإن جاذبيتها كانت تكمن في تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود فيها، ووصلت إلى حد يجعلك تشعر بأن كل كاتب بريطاني أصيل وجد طريقه إلى إسبانيا!" وقال كاتب آخر إن" كل معادٍ للفاشية في أوروبا أحسَّ برعشة أمل".

ولا يسعني هنا إلا أن أردد كلاماً مشابهاً: إن كل كاتب وفنان ومثقف سوري وعربي وأممي حر وأصيل ومعاد للإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية والنيوليبرالية المتوحشة والفكر الظلامي التكفيري القروسطي ينبغي أن يجد طريقه الثقافي إلى سوريا. هذا هو دوره المنوط به وهذا ما هو متوقع ومطلوب منه.

أحمد جرادات

الأوديسة السورية - 1 -
الجزء الأول

ناديا خوست:
أوراق من سنوات الحرب على سورية

الأوديسة الإغريقية

"أوديسيوس، أيها الابن الملكي للاريتيس، رجل الأمجاد
أما زلت توّاقاً إلى مغادرتنا والعودة على جناح السرعة إلى وطنك،
إلى أرضك الأم الحبيبة؟
حظاً سعيداً إذن ووداعاً!
لكن لو كنت تعلم في أعماقك كأس الآلام التي يخبّئها لك القدر
وستتجرّعها قبل أن تصل إلى ذلك الشاطئ البعيد،
لمكثتَ إذن هنا سيداً في بيتنا،
ودخلتَ ملكوت الخلود."

الرجاءُ الأخير من الإلهة كاليبسو إلى أوديسيوس، في محاولة لاستبقائه على أرض جزيرتها بإغرائه بالخلود بدلاً من مكابدة الأهوال في طريق عودته إلى مملكته إيثاكا وزوجته بنيلوب، ومواجهة مآل الفناء البشري، ولكنه يأبى، مفضلاً الفناء على أرض وطنه على الخلود في غيرها و بالتخلي عنها.

الأوديسة السورية

"لم يخطر ببالي يوماً أن أكتب هذه الأوراق... فقد بدا لي أن الحرب ستكون فقط لتحرير الأرض أو لرد عدوان إسرائيلي، وليس في قلب المدن السورية. كانت الحرب قاسية وثقيلة، حرباً دولية على الوجدان والروح، على الفرد والنسيج الاجتماعي والذاكرة الوطنية. أُطلق اللصوص على القمح والمعامل وآثار الحضارات السورية، على طرقاتنا وبيوتنا وبساتيننا ومدارسنا وجامعاتنا وأماكن عملنا. احتالَ فيها سياسيو الغرب المتأنقون وخبراؤهم ومنظماتهم الدولية والإنسانية ومئات المحطات التلفزيونية والصحف والمواقع الإلكترونية وعشرات الآلاف من المرتزقة، وبلدان عربية وجامعتها العربية: راقب الشعب السوري هذه الحرب المقنَّعة بمطالبه ثم اكتشف أنها حرب على الوطن."

الدكتورة ناديا خوست في مقدمة الكتاب.

الأوراق

ليعذرني القارئ لأنني لم أستطع كبح حماستي للكتاب، ومنع نفسي من التعبير عن إعجابي به منذ فاتحة المقال، بل من التجرُّؤ على ذلك قبل التمهيد له بالمقدمات الضرورية للاستنتاجات كما تقتضي أصول الكتابة والبحث، وكأني بي أود أن أسكب كل ما أريد قوله بدفقة واحدة في جملة واحدة لو استطعت إلى ذلك سبيلا. ونظراً لأن ذلك ليس بالمستطاع فقد ارتأيت أن أدع مؤلفة هذا الكتاب تتحدث أكثر مما يتحدث كاتب هذا المقال.

فهذا الكتاب النادر – بحدود اطلاعي طبعاً - في مقاربة الحرب على سوريا أثناء وقوعها وفي يوميات أهوالها المادية والإنسانية الملتهبة، وليس بعد انتهائها وبرودة أحداثها والجلوس على مسافة المؤرخ منها، إنما هو مزيج فريد المذاق من عناصر يصعب الإحاطة بها كافة: إنه مزيج مدهش من الملحمة والرواية والتاريخ والأنثروبولوجيا والأرشيف والتحليل السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتربوي والسيرة الذاتية والشعبية والوطنية المزيَّنة بفن العمارة والمشحونة بذاكرة المكان، والحالات الدراسية والشحذ الذهني وتداعيات ما يُعرف بتيار الوعي. وحتى أبواب المعلومات الواردة في الكتاب لم تأت ناشزة أو منفصلة عن النص الكلي أو دخيلة عليه أو زائدةً عن حاجته، بل هي جزء أصيل منه.

لقد أدهشني كيف استطاعت الكاتبة أن ترسم شخصياتها الواقعية- أقصد الشخصيات الحية بلحمها وشحمها وأسمائها الحقيقية- وكأنها شخوص روائية تتحكم هي برسمها ومسارها ومآلاتها، فجعلتْني أحب أو أكره أو أغضب من هذه الشخصية أو تلك. كما أدهشني كيف استطاعت أن تجعل كتاباً عن الحرب المتوحشة وفظائعها الصادمة كتاباً رقيقاً ومشوقاً لا تريد أن تغادر صفحاته أو أن تودِّع صفحاته. وإلى جانب كل هذا وذاك، فهو "كتاب الحصانة" الثقافية والروحية المكين الذي يستحق أن يُدرَّس لأجيال ما بعد الحرب على وجه الخصوص. لقد جاءت كل تلك العناصر متناسقة كخيوط حرير متعددة الألوان في النسيج العام أو كضفائر مجدولة بأنامل سحرية.

يرتكز معمار هذه التحفة الأدبية، التي تتشكل من منمنمات أخَّاذة في جدارية فسيحة، على ثلاثة أعمدة أو أضلاع تمثل المعاناة الشخصية والوطنية وتصل بينها جسور شفافة. وتشبِّه الكاتبة مثلث المعاناة هذا بالسرطانات الثلاثة: السرطانُ الشخصي، مرضُ حبيبها وزوجها ورفيقها الأعز بسام، والسرطانُ العام، الحربُ الدولية الغاشمة على سوريا التي تشنها الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، ولاسيما النفطية، والجحافل الإرهابية التكفيرية الوهابية التابعة لها، وسرطانُ النيوليبرالية المحلية التي أسهمت بقيَمِها وممارساتها في تمهيد الطريق الاقتصادي والاجتماعي أمام التدخل السياسي والعسكري لقوى الامبريالية والتبعية باتخاذها ذريعة لئيمة لتنفيذ خطة مبيتة ضد سوريا. وتتنقَّل الكاتبة من ضلع إلى آخر على كامل مساحة الكتاب بسلاسة وبدون مطبات أو نتوءات فنية، مع كل الحرص على تقديم النقيض الجميل لقُبح تلك السرطانات والمقاوم لها، فتحفر بأصابعها جدولاً رقراقاً يخترقها جميعاً وتنساب فيه الذكريات الجميلة من الزمن الجميل والأماكن الجميلة العابقة بالفن والأدب والموسيقى والمقاومة مع بسام والبنات والأصدقاء.

السرطانات الثلاثة

لنتأمَّل اللوحة المتكاملة التي ترسمها الدكتورة خوست في مطلع الكتاب، وكيف تتنقَّل في صفحة واحدة أو حتى في فقرة واحدة أحياناً بدون تكلُّف أو فواصل تعسفية بين السرطانات/الأضلاع الثلاثة، من محنة بسام- ومحنتها هي مع مرضه- إلى محنة الوطن، إلى دوْر النيو- ليبرالية المفسد للمجتمع والنفوس والمؤسس للأزمة، فتتحدث عن تداخل تلك السرطانات، أحدها يأكل إنساناً عزيزاً عليها، وآخر يفتك بوطنها. فقد تابعتْ في صور الأشعة الكتل السرطانية التي تنخر النسيج الحي لكبد بسام وطحاله، وفي الوقت نفسه تابعت في نشرات الأخبار وعلى الانترنت مؤتمرات السياسيين الغربيين وندوات المثقفين المعارضين ووحشية العصابات المسلحة. وتعود بالذاكرة إلى الفترة التي سبقت اندلاع الأحداث الأليمة، حيث جرتْ محاولات عديدة للكشف عن التطاول على حقوق الناس وخطر اقتصاد السوق على التماسك الاجتماعي وجرائم الليبرالية

الجديـدة، وضرورة الاتسـاق بـين النهـج الاجتماعـي والاقتصـادي ونهـج السياسـة الوطنيـة، ومكانـة القطاع العـام كعمـود فقـري للأمـان الاقتصـادي، وعـن شـخصيات اقتصـاد السـوق المتوحشـة المتكـبرة المتعاليـة عـلى النـاس. وكانـت هـي شـخصياً ممـن تحدَّثـوا عـن الفسـاد واقتصـاد السـوق الـذي أفقـر النـاس وعـن ظلـم الاسـتملاكات في غوطـة دمشـق وتدمـير بسـاتين كيـوان التاريخيـة لمصلحة الفنـادق الكـبرى والخلايجة، وعـن سـلب السـوريين سـاحلهم، وعـن السـاحة الشـبيهة بسـاحة "هولوكوسـت" برلـين في قلـب حمـص ومخططـات المدينـة التـي اسـتخدمها الإرهابيـون أنفاقـاً للتدمـير والتفجـير والقتـل مـع الإفـلات مـن العقـاب. وتتسـاءل عـن أولئـك الذيـن نبَتـوا كالفطـر السـام وتملأ وجوههـم الشاشـات الغربيـة، كيـف ومتـى نبتـوا ومـا هـو تاريخهـم الوطنـي كي يبـاح لهـم رسـم مسـار ومصـير بلـد عظيـم وعريـق كسـوريا؟ وكيـف اسـتطاع الغـرب الإمبريـالي أن يُشـغِّل معارضـات وقـادة ممـن يقبلـون قصـف بلادهـم بطائـرات حلـف الأطلـسي ليزيحـوا خصمهـم السـياسي ويتربعـوا عـلى عـرش سـلطة تابعـة أو خائنـة، أكانـت خلافـةً وهابيـة أم كانتونـات طائفيـة وإثنيـة؟

جمرة الغضب تحت الرماد

تطـرح الدكتـورة ناديـا خوسـت سـؤالاً رئيسـياً مهـماً، بـل السـؤال الرئيـسي الأكـثر أهميـة في الـصراع الدائـر في سـوريا وعليهـا: لمـاذا يحـدث هـذا في بلـد تميَّـز بالانفتـاح الإنسـاني والسـلم الاجتماعـي والتعدديـة الثقافيـة والتعايـش بـين الأديـان والطوائـف والمذاهـب والأعـراق عـبر تاريخـه العريـق؟ ومـا هـي البـذرة التـي استنبتتْ حاضنـة اجتماعيـة للإرهابيـين قبـل أن تكتشـف تلـك الحاضنـة أنهـا تُسـتخدم للتغطيـة عـلى والتمهيـد لتنفيـذ خطـة أمريكيـة- صهيونيـة جهنميـة ملفوفـة بسـلوفان "الجهـاد المقـدس" ومدجَّجـة بجنـود الخلافـة "الراشـدة" الذيـن تحرسـهم ملائكـة الحـرب، فـما يرمـون إذ يرمـون عدوهـم- سـوريا- ولكـن اللـه هـو الـذي يرمـي ؟

وللإجابـة عــن هــذا السـؤال الكبـير تُقـدم الكاتبـة تحليـلاً سياسـياً- اجتماعيـا- اقتصاديـاً- نفسـياً عميقـاً، بأسـلوب ولغـة راقيـيْن، للأوضـاع التـي سـبقت شـنَّ الحـرب عـلى سـوريا، مفـاده أن البـذرة، أو إحـدى البـذور، ربمـا تكـون قـد زُرعـتْ في رمـاد الغـبن، الـذي يكمـن كالجمـرة بانتظـار أن يشـعله الغضـب الأعمـى، غضـب لا يكبحـه سـوى الوعـي والثقافـة، القـادران عـلى كشـف الوجـه البشـع الـذي يتـوارى خلـف القنـاع الزائـف.

وتُسلط الكاتبة ضوءاً ساطعاً على ما فعله الليبراليون الجدد في سوريا، وتخصُّ بالوصف الدقيق مخطط "إيكوشار" التنظيمي في ثنائية الضديْن والزمنيْن. فقد أدى هذا المخطط إلى خسارة السوريين غوطة دمشق التاريخية، التي كانت تفترش مساحات شاسعة على مد النظر من الريف الدمشقي والمكسوَّة بعدد لا يُحصى من الأشجار المثمرة من كل صنف ولون، والتي وفَّرت الأمن الغذائي والبيئة النظيفة لتنزُّه العائلات وللمدينة بأسرها وملاذاً آمناً للثوار السوريين ضد الاحتلال الفرنسي. لكن إيكوشار كسرَ التوزان الدقيق في علاقة المدينة التاريخية بغوطتها؛ إذ فتَك الاستملاك بالأراضي الزراعية وأغرى التنظيم الفلاحين قبل أن يكتشفوا أن تجارة العقارات هي الرابحة وأنهم الخاسرون، حيث فقدوا أراضيهم وعملهم وأصبحوا عمال مياومة يجلسون على الأرصفة منذ الصباح الباكر بانتظار أن يلتقطهم مقاولو البناء. لقد شكَّلت تلك التغييرات حاضنة اجتماعية لمن موَّلتهم وسلَّحتهم ودرَّبتهم وشغَّلتهم الأطراف الدولية والإقليمية المعادية لسوريا والمنظمات الوهابية التابعة لها.

وترى الكاتبة أن الأحداث شقَّت الأرض السورية، فنبتَ خليط عجيب: الغث والسمين، المخلص والمأجور، المتشبث بامتيازاته والانتهازي الذي يعرف من أين تؤكل الكتف، الوطني الذي اكتفى بقديمه وعجز عن فهم الجديد فخرج من متن الأحداث إلى هامشها، والمكبوت الذي حُلت عقدة من لسانه فجأةً فراح يهذر بالكلام الهراء، والنكرة الذي لاحتْ له فرصة الظهور لأول مرة فاعتقدَ وصدَّق أنه أصبح نجماً في المجتمع أو في عالم السياسة أو الفن أو الإعلام، والمغبون الذي حرَّكته غريزة الانتقام فامتشق كل الأسلحة التي أتاحها له الإرهابيون وطفق يثأر من المجتمع والأبرياء والبلد، والدهماء من الفئات الرثة الذين يغريهم غياب الأمن ويشكل حماية لجرائمهم، فلم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الفظائع.

غير أن الكاتبة لا تسلِّم بطمس معالم الطريق، بل ترى أنه في هذه الفوضى الهدامة يُنجد العقل السوي كل مَن يخشى على مصير بلاده وشعبه وجيشه من مخططات الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية، ولا سيما الخليجية، التي فجَّرت الصراع في سوريا، وحرَّكت ماكينتها الإعلامية العملاقة لترسيخ

شخصنة الصراع وشيطنة الشخص في العقول، وهو الأسلوب الذي اعتادت عليه وجرَّبته بنجاح لضرب الدول التي لا تسير في ركابها وإسقاط الحكام الذين لا يأتمرون بأمرها، فاختصروا حربهم العدوانية على سوريا في شخص الرئيس بشار الأسد (نظام بشار، جيش بشار، رحيل بشار...) لتضليل الشعب السوري والعرب والعالم كي يسهل الانقضاض على الدولة السورية وتدمير جيشها وسلب استقلالها والقضاء على مقاومتها وتقسيمها وإلحاقها بفلكها، وذلك لأن مايسترو العدوان (الولايات المتحدة الأمريكية) وجوقته الجهنمية يعلمون تماماً أن الرئيس بشار الأسد بات يمثل رمزاً للصمود في مواجهة العدوان والتصدي له، وراية للمعركة المصيرية الوجودية، وصمام أمان للدولة، والحلقة المركزية التي تربط السلسلة كلها أو خيط السبحة الذي "يلظُم" جميع حباتِها، ومحل إجماع القوى السياسية والاجتماعية المؤيدة للدولة الوطنية، والذي يمثل قطب الرحى في جبهة المقاومة، والرئيس العلماني الذي يكفل احترام وحماية حقوق جميع الطوائف والمذاهب و"مكونات" الشعب السوري بدون تمييز. وإلى جانب ذلك وفوق كل ذلك، لأنه القائد المقدام ورابط الجأش للجيش العربي السوري الذي حمل على كاهله مهمة خوض المنازلة الكبرى، والزعيم الذي تمتع طوال السنوات العجاف بشجاعة مُبهرة وحافظ على تماسكه وهدوئه وتفاؤله الواثق، ولم يبرح مكانه الطبيعي كرئيس للدولة، مكتبه ومنزله، ولم يقبل بإرسال عائلته إلى مكان آمن في الخارج، وهو الذي يأخذ على عاتقه مهمة محاربة الإرهاب والمحافظة على الدولة واستقلالها ووحدة وسلامة أراضيها بلا هوادة أو تردد، هذه جميعاً صفات تليق بزعيم وطني في زمن الحرب مع الأعداء. لهذا كله ركزت جميع أطراف العدوان على شخص الرئيس الأسد، نصَبوه هدفاً لهم وصوَّبوا سهامهم المسمومة نحو صدره، ولكنه باقٍ، وسوريا باقية.

ثورة أم ثورة مضادة؟

تُذكرنا الدكتورة خوست بأن الثورات الحقيقية مشاريع تغيير تقدمية كبرى مهَّد لها أو واكبها أو قادها مفكرون وفلاسفة عظام، من جان جاك روسو إلى لينين وسيمون بوليفار وغاندي وماو تسي تونغ وهوشي منه وغيفارا وكاسترو... وغيرهم، وهي تطرح برامج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية شاملة، وتشارك فيها طبقات وفئات اجتماعية تقدمية متبلورة. فأين هذه "الثورة" المزعومة

مـن تلـك الثـورات؟ فحتـى قبـل الظهـور المعلـن للمقاتلـين الأجانـب مـن تنظيـمات القاعـدة والنـصرة وداعـش وأخواتهـا وبنـات عمومتهـا عـلى الأرض السـورية، تقـول الكاتبـة إن معظـم أفرادهـا كانـوا مـن الهامشـيين والمهربـين والمجرمـين أشـباه الأميـين الذيـن يوجههـم أمّـة جوامـع مأجـورون، وغيرهـم مـن الأشـخاص الذيـن ينتمـون إلى الفئـات الرثـة التـي يصفهـا كارل ماركـس في كتابـه "الثامـن عـشر مـن برومـير، لويـس بونابـرت" بأنهـا "وقـود الثـورة المضـادة" لسـهولة تشـغيلها وموضعتهـا في خدمـة المـشروع الإمبريالي-الصهيوني-الرجعـي العـربي ضـد سـوريا.

هنـا تقـدم الكاتبـة في أبـواب المعلومـات، ببراعـة وتفصيـل بـلا زوائـد، مـا يشـبه "الحـالات الدراسـية" المنقولـة عـن مقابـلات صحفيـة كأمثلـة سـاطعة عـلى نوعيـة الشـخصيات القياديـة الرثـة في مـا سُـمي بــ "الثـورة" السـورية المسـلحة وقصصهـم مع تلـك "الثـورة": مـن ذاك الـذي أفلـت بـين عشـية وضحاهـا بفعـل التهريـب والـرشى، مـن أتـون الفقـر و"التعتـير"، إلى فخامـة رئيـس البلديـة، إلى ذاك الـذي انطلـق مـن الكباريـه ليشـكل "لـواء شـهداء بـدر"، ويحـوز لقـب "المليارديـر الصغـير"، إلى زعيـم العصابـة الـذي شـكَّل "لـواء أحـرار سـورية"، واسـتولى عـلى مصانـع حلـب وباعهـا إلى الأتـراك، ففـاز بلقـب "المليارديـر الكبـير"، وغيرهـم غيـض مـن فيـض.

الثقافة والثورة

"اسـتلهَمتْ" المعارضـة السـورية المثقفـة "ثقافتهـا" مـن برنـار هـنري ليفـي وأفـكاره وتراثـه وخبراتـه وأنشـطته. وبرنـار ليفـي الفرنـسي الصهيـوني الشـهير في الغـرب باسـمه المختـصر BHL وعـراب "الربيـع العـربي"، هـو أحـد مؤسـسي "حركـة الفلاسـفة الجـدد" الذيـن وصفهـم المفكـر الماركـسي سـمير أمـين بأنهـم "نصابـو الفلسـفة الجديـدة"، والجنـاح الثقـافي لحلـف الأطلـسي. ويتباهـى ليفـي، صاحـب التسريحـة السـاحرة والياقـة البيضـاء المنشّـاة، بأنـه صانـع "الثـورة" الليبيـة ضـد حكـم العقيـد معمـر القـذافي وملهمهـا وقائدهـا وخطيبهـا المفـوَّه. وأراد ليفـي أن يطبـق "السـيناريو الليبـي"، أو مـا أسـماه "نظريـة القـذافي"، عـلى سـوريا، أي التدخـل العسـكري لحلـف الناتـو بالقصـف الجـوي والبحـري والزحـف الـبري لجحافـل الإرهابيـين الوافديـن إلى "فسـطاط الكفـر" مـن شـتى أصقـاع الأرض داخـل الأراضي السـورية. وأرادت المـرأة الفولاذيـة هيـلاري كلنتـون أن تطبـق عـلى الرئيـس بشـار الأسـد مـا طُبـق عـلى معمـر

القـذافي في الصحـراء الليبيـة: القتـل الانتقامـي الوحـشي والمهـين كي يكـون عـبرة لمـن يعتـبر ولا يعتـبر، وربمـا أرادت أن تـزف نبـأ قتـل الرئيـس الأسـد بالعبـارة نفسـها التـي اسـتخدمتها مـع القـذافي، وذكّـرت بهـا الدكتـورة خوسـت: "أتيْنـا، رأينـا، فـمات" We came, We saw, He died، وهـي العبـارة التـي اسـتعارتها كلنتـون أصـلاً مـن يوليـوس قيـصر: "فينـي، فيـدي، فيـشي" (أتيـتُ، رأيـت، انتـصرتُ) في خطـاب النـصر السـهل والسريـع عـلى ملـك فونتـوس الـذي قيـل عنـه إنـه أقـصر خطـاب في التاريـخ مـع تغيـير الكلمـة الأخـيرة إلى "مـاتَ" لوصـف جريمـة قتـل الرئيـس معمـر القـذافي الوحشـية بتبجـح واسـتخفاف مقيـت بـأرواح البـشر وكرامتهـم.

موقع الثقافة ودور الإنتليجنسيا

تلحـظ الدكتـورة خوسـت أن الثقافـة التـي راجـتْ في سـوريا قبـل شـن الحـرب عليهـا أصبحـت مـن الكماليـات، فبعـد انتقـال الاقتصـاد مـن القطـاع العـام إلى قطاعـات السـياحة والاسـتثمارات العقاريـة، حـلَّ البزنـس محـل الثقافـة والفكـر، واحتـل رجـل الأعـمال مـكان المثقـف والمفكـر. وتفـشى اقتصـاد السـوق وانهـارت الطبقـة الوسـطى التـي تنتـج الثقافـة والفنـون. وفي غيـاب السياسـيين في مكاتبهـم وخلـف أسـوار بيوتهـم وزجـاج سـياراتهم المظلَّـل، مـلأ الفـراغ بهـدوء وسريـة شـيوخ الجوامـع الوهابيـون الذيـن نجحـوا في تحريـض مريديهـم عـلى التمـرد وتخزيـن الأسـلحة ثـم اسـتخدامها في الوقـت المناسـب.

دور الإنتليجنسيا

تشـير الكاتبـة إلى أن الإنتليجنسـيا الغربيـة والعربيـة شـاركت في تزويـر الحقائـق وانحـازت بـكل صفاقـة إلى جبهـة العـدوان عـلى سـوريا. بيـد أن صـورة الانتليجنسـيا التاريخيـة هـي عـلى النقيـض مـن ذلـك، وأن دورهـا التاريخـي هـو الإسـهام في تربيـة الـروح الإنسـانية عـلى المُثـل الأخلاقيـة العليـا، فضمَّـت في صفوفهـا مفكريـن وفلاسـفة وأدبـاء وفنانـين وصحفيـين تقدميـين عـبَّروا عـن تـوق شـعوبهم إلى التحـرر والعدالـة والمسـاواة.

أمـا الإنتليجنسـيا السـورية المعارضـة فقـد تحلَّقـت حـول طـاولات رُفـع عليهـا العلـم السـوري ذو الضلـع الأخـضر والنجـوم الثلاثـة الحمـراء الـذي اعتُمـد في عهـد الانتـداب

الفرنسي، في الدوحة والرياض واسطنبول وباريس بمعية وتحت هيمنة ممثلي التنظيمات الإرهابية المسلحة، بما فيها الإخوان المسلمون، وتحت إشراف المشغِّلين العرب والغربيين والإسرائيليين. فهل قطر والسعودية وتركيا راعية للثورات الشعبية وواحة للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وداعية لها؟ وهل تهدف البترودولارات التي تُدفع لهؤلاء إلى بناء مشروع "وطني ثوري" بديل في سوريا؟ هل ثمة حرية ورأي حر ومستقل يُشتريان بالمال؟ أم أن مَن يدفع للزمَّار هو الذي يحدد اللحن؟ (مَن الذي دفع للزمار: وكالة المخابرات المركزية والحرب الباردة الثقافية، فرانسيس ستونر ساوندرز) سالف الذكر.

وتأسىَ الكاتبة على أن المال اشترى الإنتليجنسيا العربية وغيَّر دورها التاريخي، فسقطت في الموضوعات البديلة التي طلبها الغرب الاستعماري من الزمَّارين بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، الذي ترتَّب عليه انهيار منظومة القيم الأساسية و"تطبيع الكبائر"- إن جاز التعبير- من قبيل جعل الخيانة وجهة نظر، وتسويغ العلاقة بممثلي الامبريالية ومؤسساتها الأمنية والاقتصادية والسياسية والمالية ومنظمات التمويل الأجنبي التابعة لها، والتطبيع مع العدو الصهيوني وتهافت الكتاب على عتبات مقدمي الجوائز الأدبية والفنية والصحفية الغربية والخليجية المشبوهة أو المسيَّسة.

بل وصل الانحطاط الثقافي إلى حد القول إن الدبابة السورية كالدبابة الأمريكية على الرغم من الخطر المحدق بسوريا والمآسي التي يكابدها الشعب السوري، ذلك لأن العديد من المحسوبين على الإنتليجنسيا فرُّوا من وجه الأعاصير التي عصفت ببلدهم وشعبهم وبالأجيال المقبلة وقفزوا من السفينة التي ظنوا أنها غارقة ليحجزوا أماكن لهم في المرحلة القادمة التي توهَّموا وصدَّقوا أن السيادة والقيادة فيها ستكون للولايات المتحدة وحلفائها، في حين أن الثقافة في ظروف العدوان الخارجي على أي بلد ينبغي أن تكون بمثابة سلاح قتالي ثقيل وجهاز للتعبئة الحربية أو لاستنهاض الروح أو صقل الذوق وتوسيع الرؤية، ولا يمكن أن تكون حيادية أو منفصلة عن السياسة كما يتشدق بعضهم.

اختراق الثقافة

تُخصص الدكتورة خوست مساحةً كبرى للدور المنوط بالثقافة في الدفاع عن الوطن، وتُحمِّل المثقفين الذين تخلُّوا عن دورهم الوطني مسؤولية كبرى عن التمهيد لما حدث في بلادهم. وتشير إلى تساؤل الرئيس الأسد عن غياب المثقفين الوطنيين و التقدميين والقوميين، والتنبيه إلى شيوع الروح اللاوطنية والفراغ الفكري على الرغم من الحرب الثقافية التي تشنها الدوائر الامبريالية والخليجية الوهابية على بلادهم.

وتنقل الكاتبة عن وفد من المثقفين الروس زار سوريا السؤال نفسه الذي طرحه الرئيس الاسد: "أين المثقفون السوريون؟" وذلك انطلاقاً من الأهمية القصوى لدور المثقفين في الدفاع الوطني في مواجهة العدوان. لقد غذَّت المُثل الوطنية الوجدان الشعبي السوري، فهل اختُرقت المقدسات السورية الوطنية على حين غرة؟ وكيف تسللت النزعة اللاوطنية إلى سوريا وأية مطايا ركبتْ؟

وتُورد الكاتبة مقتبسات من كتابات راجتْ، أو رُوجت، تنادي بأن جميع الأفكار بحاجة إلى إعادة صياغة، وعلى رأسها فكرة الوطن. بل يقول كُتَّابها بصراحة إن الوطن ليس أكثر من فكرة مقدسة، بل ليس هناك وطن، فتلك فرية كبرى كلَّفت البشرية حروباً مروعة. ويصل هؤلاء إلى حد العِري العقلي والأخلاقي التام بالقول إن من السخف أن يفكرَّ المرء بالموت من أجل ما يسمى "الوطن" بينما يجد غيرُه وطناً بديلاً بسهولة. ويطالب هؤلاء بإلغاء الجيوش باعتبار ذلك يمثل الطريقة المثلى لصون الأوطان (التي لا لزوم لها!!).

ويخلص أولئك الكتاب إلى أن المشكلة ليست تحرير الشعوب، بل تحقيق الديمقراطية (الغربية طبعاً)، وأن الامبريالية ليست أعلى مراحل الرأسمالية الأوليجاركية اليوم، وإنما هي بوابة العدالة... فتأمَّل يا رعاك الله! هذا ما آل إليه موقف الكثرة من المثقفين السوريين والعرب- العاربة والمستعربة- الذين يُفترض أن يكونوا في المتراس الأمامي للدفاع عن وجود الأمة الحضاري، ولكنهم بدلاً من ذلك شاركوا في التآمر على أمتهم وقبلوا بدور الكومبارس والزمَّارين والمهرجين في بلاط أعدائها، مما حدا بالمقاتل الدبلوماسي بشار الجعفري أن

يستنجد بالشعر في مُستهل كلمة له من على منصة الأمم المتحدة، التي لا شأن لها بالشعر ولا تأبه بالأدب للأسف، وكأنه يناجي رئيسه بشار الأسد أو يجيب عن سؤاله: "أين المثقفون؟" بأبيات لنزار قباني في لحظة لم تفلت من عدسة الكاتبة التي تسجل أدق الظواهر والأحداث:

دمشق يا كنز أحلامي ومروحتي   أشكو العروبة أم أشكو لك العربا؟
الشعر ليس حماماتٍ نُطيِّرها   نحو السماء، ولا ناياً وريح صبا
لكنه غضبٌ طالتْ أظافره   ما أجبنَ الشعر إن لم يركب الغضبا

حقاً، ما أجبنَ الشعر إن لم يركب الغضبا.
ولكن على الرغم من أهوال الحرب ومآسيها وعقابيلِها، فإن الكاتبة تدرك مدى أهمية الوجه الآخر للحرب وتحرص على أن تكون شاهداً عياناً عليها، فتتمثل الشاعر الكبير ناظم حكمت عندما رفض أن يغفو ويفيق في قرن قادم، فتقول: "كنا شهوداً على اجتياز مقطع من مراحل الحرب، لو رحلنا قبل ذلك لَفاتنا البهاء الذي كشفتْه الأحداث في الشعب السوري."

وأنا بدوري أتمثَّله كذلك، لأقول إننا محظوظون بشكل خاص وعلى نحو قد لا يتكرر لأننا نشهد أمام عيوننا على أرض سوريا ولادة نظام عالمي جديد أكثر عدلاً، أو أقل جوراً على الأقل، على الرغم من المخاض العسير والعذابات الأليمة والثمن الباهظ الذي دفعه الشعب السوري والجيش السوري والوطن السوري، ولا أحب أن أنام الآن وأستيقظ في عصر قادم كي لا يفوتني هذا الحدث الكوني العظيم، الذي ستزهو به سوريا أمام الأمم جمعاء، وتكتب بالأبجدية السورية على أقواس النصر التي ستظلل بواباتها المشرعة للإنسانية التقدمية لافتة تقول: "على هذه الأرض وُلد نظام عالمي جديد".

خاتمة

تختتم الدكتورة ناديا خوست هذه "الأوديسة" السورية البديعة و"كتاب الحصانة" الثقافية والروحية للأجيال القادمة بالسؤال الأكبر: متى تنتهي الحرب؟ ومتى يعود الجنود السوريون أحياء منتصرين إلى أهلهم ويرحل المسلحون الأجانب إلى بلدانهم مهزومين؟ وتؤكد أن سوريا ستنتصر وأن السوريين باقون في وطنهم، "فهذه الحرب كالملاط الذي يربط الحجر بالحجر ويعيش دهوراً، تجمعهم في مواجهة الوحشية وتساعدهم على اكتشاف الانحطاط الأخلاقي وتجار الأوجاع وعظمة الصبر ونُبل التعلق بالوطن. فبالرغم من الحرب عبقَ زهر النارنج وفتَّح الياسمين الأبيض والأصفر وتدفَّقت المجنونة حمراء وبنفسجية على أسيجة البيوت."

لكن غصة الحزن وندوب الذاكرة الموحشة لا تفارق الكاتبة، فتعود إلى الأسئلة الأكثر عمقاً وألاقل يقيناً:

"أصبح أمسنا الرائق قبل الحرب طيفاً شاحباً وصرنا نتساءل: هل تنظَف بلادنا بعد الانتصار على الإرهابيين من بقايا تختبئ في نفق منسي في جوبر أو شق صخري في معلولا؟ هل تعود الطمأنينة إلى دروب جبالنا وبساتيننا؟ هل سنصادف، ونحن نزرع شجرة، بقايا الإرهابيين السوداء؟ يصعب ألا نسمع في حفيف النسيم تحت سمائنا الزرقاء أوجاع ملايين السوريين، حتى لو انتهت الحرب و "حَلُّوا عنا!"

بالتأكيد ستنتهي الحرب وسيحلُّون عن ظهورنا مرغمين، بل إن بشائر انتهائها تطوف الآن في أرجاء سوريا."

الأوديسة السورية -2-
الجزء الثاني

ناديا خوست:
ضمير الثقافة أم ثقافة الضمير؟

يشمل هذا الجزء الأعمال التالية للدكتورة ناديا خوست التي تفضَّلت بتوفيرها لي من بين الأعمال المشمولة في نطاق البحث:

- الحرب المفتوحة، د. ناديا خوست، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2018.
- مسرحيات الحرب على سورية، د. ناديا خوست، الطبعة الأولى، 2015، التصميم والطباعة: مؤسسة الصالحاني، دمشق. وتضم أربع مسرحيات:
  - " قبل ثلاثين سنة"
  - "ملجأ في الحرب"
  - "بين الأنقاض"
  - "سبايا ومسلحون"
- "منطقة آمنة"، مسرحية من الحرب على سورية، د. ناديا خوست، الطبعة الأولى 2018 التصميم والطباعة: مؤسسة الصالحاني، دمشق
- "مهاجرون في البحر"، د. ناديا خوست، الطبعة الأولى، 2017 ، التصميم والطباعة: مؤسسة الصالحاني، دمشق

تمهيد

بعد الفراغ من قراءة كتابها "أوراق من سنوات الحرب على سورية" المشار إليه آنفاً والذي يغطي الفترة حتى عام 2014 من سنوات الحرب، توقعتُ أن تصدر المؤلفة جزءاً ثانياً من الكتاب متمماً له، فإذا بها تفاجئنا بأعمال أدبية أخرى متممة للأول ولا تقلُّ أهمية وعمقاً وجمالاً منه، لكن بجنس أدبي آخر غير متوقع، وهو "مسرحيات الحرب على سوريا"، بالإضافة إلى مسرحيتين أُخريين مذكورتين آنفاً.

إن ما لمستُه في جميع كتابات ناديا خوست التي قرأتُها هو أن الثقافة بالنسبة لها تمثل "دينها ومعبودها"، شغلها الشاغل وهاجسها الأكبر وغايتها الأسمى ووسيلتها الأنجع لمواجهة محنة بلادها والخروج منها.

وانطلاقاً من إدراكها العميق لأهمية الثقافة وخطورتها، فإنها تشير في كتابها "الحرب المفتوحة" إلى أن الحرب على سوريا مرَّت في مرحلتين: المرحلة الخشنة، أي العسكرية، والمرحلة الناعمة، أي الثقافية، وأن "نصوص هذا الكتاب تلامس هاتين المرحلتيْن، وتذكِّرنا بدور الثقافة في الدفاع الوطني".

الحرب المفتوحة، الحرب على الثقافة

ترى المؤلفة أن قوى الإمبريالية والصهيونية لا تكتفي باحتلال أراضي العرب ونهب خيراتهم والسيطرة على أسواقهم ومائهم وسمائهم لأن هيمنتها التامة عليهم لا تتم إلا "بالسيطرة على أرواحهم وعقولهم والقضاء على ثقافتهم وسلب إرادتهم"؛ ذلك أن الثقافة تزوّد الأفراد باللقاح الواقي وتشكل درعاً وحصناً للمجتمعات والأمم. وتورد الكاتبة أمثلة على أن تاريخ البشرية المديد مليء بالأحداث التي تؤكد أن الكلمة المبدعة كانت دائماً تدافع عن رؤية وهدف مهما بدتْ حيادية، فتقول إنه لو لم يكن الفكر معبراً عن القضايا الكبرى لَما كتب بيدبا الفيلسوف كليلة ودمنة لدبشليم الملك، وترجمَه برزويه إلى الفارسية لأنوشروان، ثم ترجمه ابن المقفع إلى العربية موجَّهاً ضد أبي جعفر المنصور. ولَما كان المصير التراجيدي لكل من الحلاج وابن رشد نتيجةً لمواقفه الفكرية. وأود أن أُضيف في هذا المقام "لما" اخرى : ولَمَا اضطر المأمون إلى "اختراع" حلمه مع أرسطو لتسويغ وإنجاح مشروعه الثقافي والحضاري العظيم في التاريخ العربي- الإسلامي بنقل كنوز الفلسفة والعلوم والآداب الإغريقية إلى بغداد وترجمتها إلى اللغة العربية:

فقد ذكر ابن النديم في الفهرس "أن الخليفة المأمون رأى في المنام رجلاً أبيض اللون، مُشرّباً حُمْرة، واسع الجبهة، جالساً على سريره. فشعر وكأنه قد مُلِئ هيبة بين يديه، فسأله: من أنت؟ فقال: أنا أرسطوطاليس. فسُرَّ به وقال: "أيها الحكيم، أسألُك؟" فقال: سَل. قال المأمون: "ما الحسن؟" فردَّ: "ما حَسُنَ في العقل"، فسأل المأمون: "ثم ماذا؟" فردَّ أرسطو: "ما حَسُنَ في الشّرع"، فسأل المأمون: "ثم ماذا؟" فردَّ أرسطو: "ما حَسُنَ عند الجمهور" فسأل المأمون: "ثم ماذا؟"، فقال أرسطو: ثم لا"، أي لا يوجد شيء بعد ذلك." من ذلك المنام المخترع، أطلق المأمون مشروعه الثقافي الكبير. وفي هذا الحوار الحلم نرى أن

المأمون قدّم العقل على الشرع، وأضاف له "حسناً" ثالثاً وهو الجمهور(العقل - الشرع - الجمهور)

من جانب آخر تَسوق الكاتبة مثالاً من التاريخ الحديث على دور الثقافة الهدامة في رسم مصائر الدول والشعوب، يتعلق بما حدث للاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية في مطلع العقد الأخير من القرن المنصرم، فتقول إن انهيار وتفكك المعسكر الاشتراكي بأكمله بدأ بمقدمات فكرية غشاشة سوَّغت تغيير منظومته الفكرية والأخلاقية والاقتصادية، فرددوا مقولات متهافتة من قبيل: "أن مستوى التسلح النووي سيضطر العالم الغربي إلى تغيير نظامه الاقتصادي كي لا تُدمر الحياة الإنسانية على وجه الأرض"، وهم يعلمون أن الرأسمالية المتوحشة مستعدة لتدمير الكرة الأرضية ألف مرة إذا أحسَّت بأن سلطتها، بل حتى أرباحها، في خطر حقيقي، ولا تأبه البتة بالحياة الإنسانية، بل بحياتها هي فقط.

[كاتب هذه السطور شاهد لا يزال على قيد الحياة على صحة ما ذهبت إليه الكاتبة. ففي زيارة إلى موسكو في عام 1990 بدعوة من قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي "للتعرف" على مشروع ميخائيل غورباتشوف الغامض حينئذٍ (بيريسترويكا وغلاسنوست)، شاركتُ في حلقة دراسية لمدة أسبوعين عُقدت في أكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، حاضرَ فيها عدد من أساتذة الأكاديمية من "منظّري" مشروع غورباتشوف، حيث طرحوا أفكاراً غائمة وردَّدوا بعض "الآيات والأحاديث" الماركسية المبتورة من سياقاتها، ووزَّعوا كتاب غورباتشوف المتهافت وكتيّبات أخرى قليلة العدد وسطحية المضمون، أبرزها ما عرف بـ "وصية لينين السياسية". كما شنُّوا هجوماً على ستالين و ضد"عبادة الفرد" و "كارثة" الحرب الوطنية العظمى، بل ضد بناء الاشتراكية المتعجل، التي قالوا إنها حملت في أحشائها بذرة فنائها. ولعل من تسنَّى له زيارة شارع "أرابات" الشهير بموسكو في تلك الفترة لا ينسى تلك الحملة الشعواء المنظمة : ضد ماركس وانجلز ولينين وزعماء الاتحاد السوفييتي جميعاً، بشتى الوسائل و الأشكال: بالرسم و الغرافيتي و الموسيقى و الغناء و الشعر و اللافتات و المسيرات و الخطابات. لقد بدا واضحاً أن البريسترويكا

كانـت حقـاً، كـما وصفتهـا الكاتبـة، بمثابـة "مقدمـات فكريـة غشاشـة لتحطيـم الاتحـاد السـوفييتي والقضـاء عـلى الاشـتراكية باسـمها".]

اختراق الثقافة الوطنية

تُلفـت الدكتـورة خوسـت الأنظـار إلى أن العـدو عـلى وعـي تـام بمضـاء السـلاح الثقافي، ولذلـك يضـع الاخـتراق الثقـافي في قلـب ترسـانة أهدافـه وأُسـس مشروعـه السـياسي، وهـو أمـر بحاجـة إلى دعـاة ينخـرون الثوابـت التـي تقـوم عليهـا البنيـة الروحيـة للفـرد والمجتمـع، ويشـكلون نخبـة ثقافيـة جديـدة تحـل محـل القديمـة، وتتألـف مـن مثقفـين وكتـاب معروفـين ثبَّطهـم الانهيـار العالمـي، فشـعروا بأنهـم أضاعـوا العمـر في مـشروع خـاسر، وانخرطـوا في المـشروع الجديـد كي يظلـوا في موقـع الصـدارة.

القصف بالجوائز

تحـت هـذا العنـوان تؤكـد الكاتبـة أن العـدو عـلى وعـي كذلـك بـأن نهايـة مـشروع التحـرر الوطنـي هـو نهايـة المـشروع الثقـافي الـذي واكبـه. ولـذا، فـإن التمعـن في مجريـات هـذه الحـرب المدمـرة عـلى سـوريا يشـير إلى أن المهـمات التـي حملتْهـا النخبـة المثقفـة المختَرقـة أدت دورهـا في مرحلـة الحـرب "الناعمـة"، أي الحـرب الثقافيـة. ومـا تزاحُـم الأقـلام والأقـدام عـلى عتبـات أصحـاب الجوائـز والأعطيـات الثقافيـة إلا دليـل عـلى ذلـك، مـما يثـير التسـاؤل الاسـتنكاري لـدى الكاتبـة عـمّا إذا كان الإنتـاج الأدبي محايـداً، والجهـات المانحـة للجوائـز منظـمات خيريـة "غـير ربحيـة"، اللـه والثقافـة الخالصـة مـن وراء القصـد منهـا.

وتعطـي الكاتبـة أمثلـة عـلى فاعـلي الخـير الثقـافي مـن المانحـين، فهـذا "معهـد الحـوار الاسـتراتيجي" التابـع لمؤسسـة الصهيـوني فيدينفيلـد، يـشرف عـلى جائـزة بوكـر العربيـة. وهـذه الجامعـة الأمريكيـة في القاهـرة تمنـح جائـزة نجيـب محفـوظ. أمـا المسـؤولة الإداريـة عـن جائـزة بوكـر فهـي جمانـة حـداد، الملقبـة بــ "شـاعرة تـل أبيـب"، والنـاشرة المولعـة بجمـع رؤوس كتـاب إسرائيليـين وعـرب عـلى وسـادة ثقافيـة واحـدة في مؤاخـاة - يـا لهـا مـن أُخـوَّة - بـين مـدن عربيـة و"إسرائيليـة"، أي مـدن فلسـطينية مغتصبـة طبعـاً.

وتطرح الكاتبة السؤال الذي لا يغيب عن اهتمامها أبداً: هل يمكن فصل الفن والفكر عن معاناة الناس ومصائر الشعوب؟ أي عن محور الصراع المركزي؟ بالطبع لا، فالثقافة بالنسبة لها بمثابة "خندق مقاتل، لا يعترف بالابتعاد عن قضايا الأدب الكبرى ولا يقبل بتقديم المنابر للمتزاحمين على المال والشهرة والترجمة والجوائز وأوهام الوصول إلى "العالمية" بأية وسيلة وأي ثمن."

الأعمال المسرحية

في هذه المسرحيات الست التي يشملها هذا الجزء من الأوديسة السورية، و تضم أربع مسرحيات صدرت في كتاب واحد باسم "مسرحيات الحرب على سورية"، ومسرحيتين صدرتا في كتابين منفصليْن: "منطقة آمنة" و"مهاجرون في البحر"، نلمس كيف تلتقط المؤلفة شخوصها بمهارة بأصابعها العشرة من أرض الواقع، وتضعهم على خشبة المسرح وتترك كل شخصية منهم تُعبّر عن نفسها وتعرض تجربتها وأفكارها ومصالحها ومواقفها الحقيقية بدون تدخُّل.

ربما ينقد ناقد أو يقول قائل إن هذه مسرحيات مباشرة أشبه بالخطاب السياسي، ويطعن في فنيتها الدرامية، وقد يذهب إلى نفي انتمائها لهذا الجنس الأدبي. إن وجهة النظر هذه تُغفل أو تتغافل عن اثنتين من أهم ميزات كتابات الدكتورة ناديا خوست عموماً، وسر جاذبيتها: الأولى هي الاتساق consistency، حيث نجد أن المسرحيات الست تُشكل تتمة لما أعتبره الكتاب الأُم "أوراق من سنوات الحرب على سورية". كما أن كُتب الأوراق والمسرحيات والحرب المفتوحة تأتي في السياق نفسه ويربطها خيط من قصب، دقيق وناعم، ولكنه مرئي وبارز في الوقت نفسه. والثانية أن نصوصها من حيث تصنيف الأجناس الأدبية المعروفة أشبه بملحمة تولستوي "الحرب والسلام"، فهي مزيج من الرواية والقصة القصيرة والمسرح والمقتبسات الشعرية والقصصية والتاريخ والأنثروبولوجيا والتحليل السياسي والاجتماعي؛ أي أنها جاءت كما أرادت المؤلفة "أن تعبر عنها بهذا الشكل الذي عبَّرت عنه"[7]، على حد تعبير تولستوي نفسه في وصفه لملحمته "الحرب والسلام"، الذي نقله الكاتب مالك صقور.

---

7 – مالك صقور، سلطان الكلمة، الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2017، ص 153

لماذا كتبتْ ناديا خوست هذه المسرحيات؟

يبدو أن الكاتبة فوجئت بنفسها "متلبِّسة" بكتابة مسرحيات، فبادرت بسؤال نفسها: لماذا وكيف تجرّأتُ على كتابتها؟ وأجابت عن سؤالها قبل أن يبادرها به أحد، مشيرةً إلى ثلاثة دوافع: "الوجع على سورية والغضب على ظلم غربي يختال في اللعب بخرائط الأوطان وهول ما أظهرته الحرب من مكر ونفاق ونذالة ووحشية؛ وواجب التقدم إلى مكان أُفرغ ممن هم أكثر مني قدرة على الظهور فيه- وهو كلام فيه تواضع الكبار؛ وإيمانها بأن المسرح "يلبي الحاجة إلى الحوار ويتأمل تأملاً جماعياً المسائل الكبرى التي تمسُّ وجدان الإنسان." لكنها تلاحظ أن مَن احتل خشبة المسرح ليس مَن تصدى للمسائل الكبرى التي تمس الوجدان، بل مَن ملأها بمشاهد اللامعقول الدموية.

وتوضح الكاتبة أن "هذه المسرحيات جاءت "ثمرة الفرجة على المشاهد الحقيقية الحية، الموجعة والصاخبة التي عشناها. ولذا فإنها لا تتبنى الرأي الدارج بأن "الموضوع يتقمَّص أسلوب التعبير عنه، ويقترح الشكل ويولد معه"، لأنها تعتقد أن الموضوع عندما يتعلق بمصير ووجود شعب ووطن أمر مختلف وأكثر تعقيداً، الأمر الذي حضَّها على الاجتهاد في الصياغة الفنية في جنس أدبي لم تتصور أن تلامسه.. "فميَّزت المسرحية المقروءة من المسرحية المنفَّذة على خشبة المسرح، واستندت إلى هدف الثقافة الشامل، وهو المعرفة."

المسرحية الأولى من مجموعة مسرحيات الحرب على سورية وهي مسرحية **"قبل ثلاثين سنة"** مسرحية واقعية تسجيلية بأحداثها وتنوُّع شخوصها الواقعيين، من اليساري إلى الإرهابي إلى المعارض الانتهازي إلى المسؤول في أجهزة الحزب أو الدولة إلى المثقف، إلى المفكر الذي يستعرض مواقف مختلف المثقفين، فيتحدث عن وجود ثلاث خطط تُحاك ضد سوريا، أو خطة من ثلاث نسخ: النسخة العربية، وتتلخص في إسقاط النظام "المستبد"؛ والنسخة الإسلامية، التي لا مكان فيها للعلمانية، فحدود الله بيِّنة: الإسلام أو الجزية أو الحرب؛ والنسخة الغربية، التي تريد إقامة دولة القانون والديمقراطية وحقوق الإنسان وتنصيب رئيس ليبرالي "بذقن إسلامية وروح إسرائيلية" على حد قول المفكر.

في المشـهد الثامـن مـن المسرحيـة مجموعـة مـن المثقفـين يعـبّرون عـن مواقفهـم: فالمثقـف الأول يقـول إن الإنتليجنسـيا هـي التـي تصنـع الثـورة وإن قدَرهـا أن تتصـدر المراحـل التاريخيـة! ويقـول الثـاني إنـه يعـارض الأنظمـة الاسـتبدادية الشـمولية لأن الفـن لا يترعـرع إلا في كنَـف الحريـة! ولا ثقافـة بـدون حريـة! أمـا الثالـث فيشـكو من إلزامهـم بنقابـات واتحـادات ومنظـمات ثقافيـة، لأن المثقـف لا يُسـجن في إطـار، فهـو يختنـق داخـل الأُطـر. وأمـا الرابـع فيقـول إن مـا يجـري في سـوريا هـو حـراك شـعبي، وإن الإنتليجنسـيا يمثلـون صـوت الشـعب. بينـما تهتـف المـرأة المنفوشـة الشـعر: "لا لوصايـة الحـزب، لا لوصايـة الدولـة، لا لوصايـة المنظـمات، لا للتقاليـد الباليـة، وكل شيء يجـب أن يكـون حـراً، الوطـن والشـعب، وحتـى القـوافي وبحـور الخليـل بـن أحمـد الفراهيـدي.

ويشـير المفكـر، الـذي يبـدو أنـه يمثّـل ضمـير المثقفـين، إلى التحـولات التـي طـرأت على المثقفـين والكتـاب والفنانـين مـن قصـة الأمـس، يـوم كانـت الثقافـة هـي "الحاجـة العليـا للإنسـان" إلى قصـة اليـوم، حيـث صـارت الثقافـة الحاجـة الدنيـا للإنسـان، إن لم تكـن قـد سـقطت عمـداً، لا سـهواً، مـن دليـل الحاجـات المحـدَّث، وكيـف نقـل هـؤلاء بنادقهـم مـن كتـف إلى كتـف برشـاقة وبـلا عنـاء. فعندمـا انهـار الاتحـاد السـوفييتي وبلـدان المعسـكر الاشـتراكي، حوَّلـوا خطـوط سـيرهم إلى السـفارات الغربيـة، وصـاروا مـن هـواة حقـوق الإنسـان ودعـاة ضـد الاسـتبداد وأنشـأوا منظـمات "أن جـي أوز"NGOs التـي نبتـت كالفطـر في البريـة مـع كل رعـد . وعندمـا قـررت منظمـة صهيونيـة أن تمنـح جوائـز للروايـة حفظـوا دفـتر الـشروط عـن ظهـر قلـب، وكتبـوا عـن الجنـس والاسـتبداد والقبائـل والطوائـف:

"سـقطت الموضوعـات الكـبرى ومسـائل الوجـود والإنسـان الاجتماعـي ونضـال الشـعب التحـرري ورسـالة الفـن في تهذيـب الـروح." وذهـب بعـض المثقفـين االذيـن يدَّعـون العلمانيـة إلى تشـبيه مـا يحـدث في سـوريا بثـورات التحـرر الوطنـي العظمى، وقالـوا إن علمانيتهـم تتسـع للإخـوان المسـلمين، الذيـن يتفقـون معهـم عـلى إسـقاط النظـام، وبعـد إطاحتـه سـيعرف الشـعب طريقـه-الطريـق الـذي يكـون قـد طمسـه

الأعـداء ومرتزقتهـم تحـت الأنقـاض- وسـيوحِّد الشـعب بـلاده- البـلاد التـي يكونـون قـد قسَّـموها إلى إمـارات طائفيـة ومذهبيـة وإثنيـة- أو سـيخلق اللـه مـا لا تعلمـون. عندئـذٍ لـن تجـد أحـداً يـردد أو حتـى يتذكـر كلـمات الشـناوي:

عرفَ الشعب طريقه

وحَّد الشعب بلاده..

سَلْ جموع الشهداء

سل دموع الأبرياء

سل دم السوريِّ والمصريِّ يجري لهَبا

صارخاً: عرباً كنا ونبقى عربا."

معارضة وموالاة

يطـرح مُقـدِّم العـرض عـلى المفكـر سـؤالاً كحـد السـيف: "هـل النخبـة الثقافيـة أقـل نذالـة مـن السياسـيين الذيـن نهبـوا البلـد، ولمَّـا نزلـت الكارثـة طـاروا إلى عدونـا؟" ويتوجـس خيفـةً مـن أن النخبـة الأخـرى التـي أسـمت نفسـها مـوالاة وطنيـة لا تشـعر بهـول الكارثـة الإنسـانية والسياسـية التـي حلَّـت ببلدهـا، ولم يطـرأ عـلى أسـلوب حياتهـا "اللايـف سـتايل" أي تغيـير: سـائقوها، سـياراتها، مرافقوهـا، أكلهـا وشربهـا وخزانـات وقودهـا...

وفي مشـهد آخـر يحتفـي أحـد المثقفـين المعارضـين بوصـول نداء مـن أصدقـاء "الثورة" السـورية بعنـوان: "كفـى تهربـاً، يجـب التدخـل في سـورية"، وقـد وقَّـع النـداء أربعـة مـن كبـار الفلاسـفة الفرنسـيين: أندريـه غلوكسـمان، برنـار كوشـنير، برنـار هـنري ليفـي، وماريـو بيتـاتي، الذيـن يسـميهم المفكـر الماركسي سـمير أمـين "نصابي الفلسـفة الجديـدة والجنـاح الثقـافي لحلـف الأطلـسي". ألا يعلـم مثقفـو المعارضـة السـورية مـن هـو برنـار هـنري ليفـي، صاحـب الكاريزمـا الطاغيـة والتسريحـة الموديـل والياقـة البيضـاء المنشّـاة، والشـهير في الغـرب باسـم التحبُّـب الحـركي المختصر BHL، الـذي قـاد "الثـورة الليبيـة" وخطـب أمـام ثلاثـين ألـف "ثائـر" ليبـي في بنغـازي باسـمه الصريـح، وعـرَّف بنفسـه عـلى المكشـوف بأنـه يقـوم بذلـك الـدور كيهـودي صهيـوني مـن قبيلـة أبنـاء العمومـة أحفـاد إبراهيـم. وبعـد نجاحـه الباهـر هنـاك أراد أن

يطبِّق النموذج الليبي على سوريا، وسيناريو معمر القذافي على الرئيس بشار الأسد.
في المشهد العاشر، ومقابل النداء االذي وجَّهه "نصَّابو الفلسفة الجديدة" الأربعة إلى "العالم الحر" يحثونه فيه على غزو سوريا، يقرأ مقدم العرض نداء مغايراً من الشعب السوري الى المعارضين الوطنيين الذين يضعون رِجلاً هنا ورجلاً هناك، والفاسدين الذين لم يكتفوا بما كسبوا ونهبوا، والحزبيين الذين لا يأبهون بما حدث، يطالبهم بأن يترجَّلوا عن ظهر البلد ويعرفوا أن الشعب لم يدافع عنه إعجاباً بهم، معارضين أم موالين، بل لأنه عقد العزم على الحؤول دون سقوط الدولة السورية.

في الفصل الخامس من مسرحية "**ملجأ في الحرب**" نشاهد مسرحاً داخل مسرح (فتيات وشبان يؤدون أدواراً مسرحية):

صاحب البيت (والبيت هو المسرح) لديه الكثير من الأسئة التي تحتاج إلى أجوبة، وعلى رأسها السؤال الذي لا تكلُّ الكاتبة من طرحه في مختلف كتاباتها: "أين المثقفون؟ لكن يبدو أن مَن يستطيع الإجابة عن تلك الأسئلة الكثيرة برأيها، إما ذاهل أو خائف أو عاجز أو باع لسانه وعقله أو يقف في انتظار المنتصرين كي ينحاز إليهم.

يتنطَّع الشاب الأول للتعليق، معرباً عن تشاؤمه المطلق وإحباطه الشديد، فهو لا يرى إلا أرضاً يباباً، لا يرى باحثاً مقنعاً، أو شاعراً عظيماً، أو روائياً كبيراً، أو سياسياً مرموقاً! بل تم "توظيف" روائيين وشعراء وسياسيين لم يعترف بهم الشعب.

وفي حوار بين صاحب البيت وشاب آخر حول دور الفكر الوهابي التكفيري في الحرب على سوريا، يُظهر الأول عدم اقتناعه بأن ينْصبَّ الاهتمام على السلاح الذي يقاتل به الوهابيون فقط، وليس على البترو- دولار الذي يحمل الفكر الوهابي على جناحيه ويطير به حول العالم، فهل كان الإرهابيون سيقاتلون بدون

شحن فكري يحقنهم "بهرمونات" التكفير والوحشية ضد كل آخر؟ ويعتقد صاحب البيت أن التهديد الذي تشكله "الأيديولوجيا" هذه أكبر من التهديد بعمليات القتل، وأن المسألة الأشد خطراً هي أنهم "يسحبوننا إلى ملعبهم الذي اختاروه، حلَبة الكفر والإيمان، بهدف إلغاء ساحات النشاط الإنساني الواسعة، التي يحتدم فيها الصراع الحقيقي بين الفقر والغنى، وبين الاستعمار والشعوب، وبين الصهاينة والعرب."

مرة أخرى يدور الحديث عن المعارضة والموالاة، فيصنِّف الشاب الثاني المعارضة إلى ثلاثة أصناف: معارضة وطنية أيقظتْها الكارثة، وليس لها وزن بين الناس، ومعارضة وطنية نائمة لم تصحُ بعد، ومعارضة خائنة تُطبِّل لها الفضائيات العربية والأجنبية لا نفوذ لها في الوطن.

ويوجز الوضع في سوريا التي تتصدى لحرب عدوانية دولية بأن فيه فاسدين وانتهازيين يؤمنون بأن البلد ملكهم الخاص، وحزبيين يؤمنون بأنهم يجب أن يكونوا دائماً قادة ومسؤولين! وفي الوقت نفسه يواجه الفكر الوهابي المتوحش المسلح بالحقيقة المطلقة التي أوحى بها "مستر همفر"، الجاسوس البريطاني الذي قيل أنه جنّد الشيخ عبدالوهاب في عام 1712 وأنزلها عليهم من سدرة المنتهى، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ويتساءل الشاب: "هل لدينا القوة والوقت والثقافة وصفاء الروح الكافية لمقاومة هذا الفكر، ناهيك عن إلحاق الهزيمة به؟" ولسان حاله، من هول ما يرى من أخطار خارجية وداخلية، يردد بيت أبي الطيب المتنبي:
"وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل؟"

وحول أسباب الكارثة التي حلَّت بالوطن وطريق الخلاص منها يدور حوار بين صاحب البيت وإحدى الفتيات التي تسأله عنها، فيقدم تحليلاً حاد البصيرة لأسبابها، أستئذنكم باقتباس طويل منه لأهميته وعمقه:

"يجب أن نفهم أخطاءنا لنكون في قامة واجباتنا. فقد تخيَّلنا أن الزمن ثابت

وأننا مخلَّدون فيه كما نحن. توهَّمنا أننا "طليعة" نقبض على ناصية الحقيقة، فقبضنا على المناصب واستبعدنا الكفاءة والصدق. اعتمدنا الولاء الحزبي، لا الولاء للوطن. ومن فرط الغرور واليقين لم نلتفت إلى الوراء لنتبين أننا أصبحنا طليعة دون شعب، وأن الائمة الأميين أخذوا مكاننا بين الفقراء. بالثقافة والحرية تصبح الجماهير قوة وتؤمن بأنها الرقيب العتيد، فتدير حياتها بشجاعة. لكن الفقر والقهر والتعالي والوصاية تربّي الغوغاء.

"وقد رَّبينا الغوغاء فعلاً، وإلا كيف ظهر المتخلفون والمتوحشون الذين رفعوا على أكتافهم طفلاً في السابعة من العمر لينشد نشيد القتل. يجب أن ننفض أنفسنا كما يُنفض ثوب مليء بالغبار! يجب أن تنفض جميع الأحزاب نفسها لتبعد المرتزقة والمنافقين والفاسدين والتافهين. يجب أن نتعاون مع المعارضة الشريفة الموجودة لنداوي الوطن من نكبة التطرف والجريمة. ولنعيد الاعتبار للمُثل العليا: هول الصلة بالعدو، حُرمة الدم الإنساني، فضيلة الرحمة والشفقة، والإيمان بعظمة الحضارة. بخلْنا بتوظيف حراس للمتاحف، لكننا أثَّثنا مكاتب فخمة للمدراء. الحرب لم تدمر مصانع وورشات فحسب، بل استولدت أغنياء ربحوا من برد الناس وشقائهم في الحرب ونهبوا الوطن وكسروا العملة الوطنية. ونكتشف أن الحزبيين الذين رفلوا بالنعم والسيارات تدثَّروا بالحياد والتعقل ليحجزوا لأنفسهم مكاناً في زمن قادم يتوقعون فيه سيادة أخرى. سآخذ مكان الواعظ وأقول لك يا ابنتي: واهمٌ مَن يظن أن السياسة تثمر الخير بدون ثقافة! واهم من يظن أن نمو الاقتصاد ممكن بدون رخاء الناس! واهم من يظن أن المعاصرة ممكنة دون تراث وعراقة، فليست الحداثة بدونها غير رحيل بارد إلى الغربة!"

إن ما اقتبستُه للتو من كلام المؤلفة على لسان أحد شخوص مسرحيتها أشبه بـدُرر فكرية تنثرها في درب الأشواك يحدوها الأمل في أن يلتقطها ذوو النوايا الطيبة ممن وقعوا تحت سطوة الميديا المعادية الجبارة أو أشكَلَ عليهم الأمر، لعلها تُنبت أفكاراً نيِّرة ومشاعر نبيلة بشأن وطنهم وشعبهم.

في مسرحية "**بين الأنقاض**"، تُجري الكاتبة، على لسان الحكواتي، تشريحاً بارعاً وتشخيصاً دقيقاً للحالة المَرَضية لمدينة صغيرة - تمثل سوريا- وتقدم، مرة أخرى، تحليلاً معمقاً لأسبابها، تصف فيه كيف كانت المدينة وكيف أصبحت ولماذا حدث لها ما حدث. وقد مرَّت المدينة التي ضربتها الجائحة الجيو-سياسية بأطوار ثلاثة: مدينة الياسمين ومدينة السواد ومدينة الفساد.

يحكي الحكواتي، يا سادة يا كرام، أنه في يوم من الأيام "عاشت مدينة صغيرة تحيط بها البساتين ويفوح منها الياسمين وتعبرها الأنهار وتُزيِّن أبْنيتها بقصائد الشعراء وحدائقها بالأزهار وسطوحها بالدوالي وشوارعها بتماثيل الفنانين والعلماء ورجال التاريخ.

"وذات يوم اجتاحت المدينة عصابات تلبس ملابس سوداء، وتربط رؤوسها بربطات سوداء وتحمل أعلاماً سوداء، مسلحة ببلطات وسيوف ومدافع ورشاشات. أعلنت أن المدينة مدينة كفر وإلحاد، اقتلعت زينة الأبنية المحفورة في الحجر والخشب، كسرت شجيرات الورد، أضرمت النار بالمخازن، نهبت المعامل، كسرت التماثيل، مزقت كتب القوانين وأحرقت المخطوطات النادرة..."

هنا ينسى الحكواتي، أو يغفل، جزءاً آخر من الحقيقة، وهو الجزء المتعلق بالفاسدين والأشرار الذين استبقوا هجوم العصابات ذات الرايات السود، باجتياح البلد، واغتنوا من نشر المصارف وجعلوا المِلْكية الوطنية ملكاً خاصاً وعرضوا الموانئ والسواحل للبيع. أجَّروا الحدود بالساعة، فدخلت الأسلحة والعصابات. نهبوا الدولة والناس ودمروا الصناعة والزراعة والعمارة. أوهَمونا بأن صناعة الفنادق والمطاعم ستغمر الشعب بالخيرات، فجعلوا المنتجين أجراء بالمياومة. "فلو قصدتَ مواقف باصات الريف لفاجأك بؤس لم ترَ مثله. هناك وجدتْ العصابات مأواها، وصرخ الناس: الحساب، الحساب! لكن السياسيين سدُّوا آذانهم. في تلك البيئة تفتحت منظومة فكرية وافدة، ونبتَ مجرمون انتظروا انكسار هيبة الدولة."

في فصل "المحاكمة" تُعقد محاكم تفتيش قروسطية تحت يافطة إسلامية. القاضي الشرعي يُصدر أحكامه بقطع رؤوس عدد من العلماء والمفكرين بتهم الكفر والزندقة: ابن سينا لأنه قدَّم العقل على الوحي؛ وابن الهيثم لأنه آمن بأنه ليس هناك أفضل من المعرفة والحقيقة للتقرب إلى الله؛ وعالم الفلك البتاني لأن كفره وصل إلى قياس ما لا يحيط بعلمه إلا الله؛ و"شيخ الملحدين" أبو العلاء المعري لأن كفره لا يحتاج إلى برهان، فهو مسجَّل بلسانه:

أما اليقين فلا يقين وإنما   أقصى اجتهادي أن أظنَّ وأحدسا

هذا فضلاً عن "رسالة الغفران" التي جاءت رداً ساخراً على "نونية" ابن القيم الجوزية "الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية" في وصف الجنة، والتي تناهز الستة آلاف بيت!

في مسرحية "**سبايا ومسلحون**"، تقول المرأة الأولى إنه في الحرب، عند الوقوف على الشعرة بين الموت والحياة، كما في لحظات غرغرة الروح ولفظ الأنفاس الأخيرة، يتمسك الإنسان بأهداب البوح الصادق، ولذا فإنها تبوح بأن ثمة سوى الروم خلف ظهر الجيش روم. وتتساءل "كيف يمكن مقاومة جيش عالمي عدو بدون زاهدين في المناصب والمكاسب؟ وهل ينتصر مجتمع على الإرهاب وهو يسقي بذوره وغرساته ويحضن من يزرعه ويسمِّده، ويرعى نسخاً جديدة من المنشقين الفاسدين؟" يا له من سؤال في الصميم!

مسرحية "مهاجرون في البحر": لماذا كتبتْها الدكتورة ناديا خوست؟

"المهاجرون من سوريا، لماذا هاجروا؟ من الحرب؟ من اليأس؟ من البطالة؟ من الضيق بالأداء الحكومي؟ من العجز أمام الفساد؟ من الطموح إلى حياة تؤمِّن العمل والكرامة وحماية القانون؟ من سطوة الإعلام الغربي الذي رسمَ جنة تنتظرهم؟ أم لأن التهجير جزء من سياسات الحرب ومقتضياتها؟

وابل من الأسئلة تُمطره الكاتبة على رأس كل من يهمه الأمر، وتُمهد به للكشف عن مصدر إلهام هذه المسرحية ، وهو الواقع المثقل بالأوجاع.

أما المعمار الفني المناسب للتعبير عن هذه الأوجاع هنا والآن، فقد رأت المؤلفة أنه "الخشبة المتقشفة والعبارة الموجزة والمكان المفتوح والمسرحية التي تُقرأ أو تُمثَّل في أي مكان، وتترك أطياف زمن وأشخاص وعواطف لأزمنة قادمة، قد تضع عليها باقة ورد، وتتذكر من كانوا فيها ضحايا ومقاومين."

ففي المشهد السابع الذي يدور في مطعميْن يجري في أحدهما تفاوض بين الرجل الأول (رجل أعمال) والرجل الثاني (مسؤول رسمي) على نسبة الرشوة التي يتقاضاها الثاني، ويعكس ظاهرة الزواج السري الفاسد- الذي لم يعد سرياً- بين السلطة والمال وخطره على الدولة والمجتمع. وفي ثانيهما يدور حوار بين رجلين، المربوع والسمين، حول ما سُمي بـ "البيريسترويكا السورية" التي يريدها الرجل الليبرالي، وجوهرها أننا إذا أردنا أن نبني نظاماً سياسياً جديداً وطبقة جديدة ونظاماً اقتصادياً جديداً، يجب أن نقوم بتنظيف الأرض وتمهيدها، ولذا ينبغي تغيير اللغة والأفكار والثقافة، لأنها تقتضي "الانتقال من سياسة الأمن الغذائي إلى سياسة اقتصاد السوق، ومن "الليرة بتحكي" إلى "الدولار يأمر"، من الصناعة والتصدير إلى الاستيراد، من صندوق التوفير إلى المصارف والبنوك العالمية، من العرس المزَّين بالزنبق الشامي والزغاريد إلى العرس على حافة مسبح أو صالة فندق خمس نجوم."

في المشهد الثامن يُعقد اجتماع سري يضم رئيس مجلس المخاتير والمخاتير، وموضوع الاجتماع هو هجرة الشعب. رئيس المجلس يعلم أن المواطنين لا يهاجرون بسبب العصابات المسلحة فحسب، بل بسببه هو ومخاتيره أيضاً. ولذا، فإنه يريد من المخاتير إقناع الناس الباقين في البلد ممن لم يهاجروا بتغيير سلوكهم تجاهه.

ثم تأخذنا المؤلفة إلى المشهد العشرين، "الكرامة"، الذي يحمل نهاية ميلودرامية مفجعة، لكنها تحمل كذلك قبساً من أمل، فما "أضيق العيش لولا فسحة الأمل". وفي مشهد درامي عالي الجرعة يقف المنادي على الخشبة معلناً انتصار الجيش العربي السوري. ويتضمن المشهد ملخصاً مكثفاً للمحنة السورية قبل

الحـرب وأثناءهـا، ويضغـط بأصبعـه عـلى الجـرح الغائـر بـلا هـوادة ولا تزويـق ولا رطانـة سياسـية:

المنادي: (يقـرع جرسـاً نحاسـياً كبـيراً) "أيها الشـعب طردَ الجيـش العصابـات الهمجية مـن البـلاد. سـيعرض لكـم رئيـس مجلـس المخاتـير برنامجـه الكبـير. يخاطـب جميـع فئـات الشـعب، ويعـدد الوعـود الكاذبـة الكثـيرة التـي تبـدأ بالسـين والنـون "سـنـ": سنشـيد.. سـنضيء.. سـنزوِّد.. سـنؤمِّن.. سـنلغي.. سـنعيد.. سـنحاكم... سـنحاسـب... أيهـا.. (يعـدد فئـات الشـعب)... ارجعـوا، البلـد بأمـسّ الحاجـة إليكـم... لكـن أحـداً لا يسـتمع إلى المنـادي ولا يـرد عليـه، كأن الشـعب كلـه هاجـر مـن البـلاد ... ينـادي، ينـادي، وليـس مـن مجيـب، مسـتحيل. يفتـح السـتارة فـيرى أوراقـاً نثرهـا المهاجـرون عـلى الأرض وأشـخاصاً مسـتلقين عـلى الأرض في أيديهـم أوراق.

الشعب إما هاجر أو أغمض عينيه ومات: يا لَهول التراجيديا السورية!

المنــادي يجمـع الأوراق المتناثـرة ويدسُّــها في جيبــه، ويتنــاول الأوراق مــن أيــدي المسـتلقين عـلى الأرض ويقرأهـا ورقـةً ورقـة. كل ورقـة تحـكي قصـة حاملهـا الـذي فـارق الحيـاة:

ورقـة امـرأة: أنـا أم لثلاثـة شـهداء ... مـات والدهـم قبـل الحـرب ... عشـتُ عـلى ربطـة الخبـز، ليـس معـي ثمـن زيـت، أشـحذ، لأجـل ذكراهـم لم أتحمَّـل ذل الفقـر، أغمضـتُ عينـيَّ ومـتُّ.

ورقـة صبيـة: عمـري أربـع عـشرة سـنة، زوَّجنـي أهـلي عجـوزاً في السـبعين ليؤمِّـن لقمتـي، صرت خادمـة لـه ولأولاده. حـاول ابنـه الأكـبر اغتصـابي. هربـت في الطرقـات، صادفـت زاويـة مهجـورة، اسـتلقيت فيهـا. أغمضـتُ عينـيَّ ومـتُّ.

ورقـة طفلـة: لا أعـرف أيـن أمـي وأبي وإخـوتي. هربنـا مـن الحـرب وضِعـتُ، خفـتُ، رجعـتُ، وقفـتُ لأشـحذ. أخـذني شـحاذ في عمـري إلى امـرأة ينـام عندهـا الأطفـال ويعطونهـا الغلـة، هربـتُ، نمـتُ عـلى الرصيـف، أغمضـتُ عينـي ومـتُّ.

ورقة رجل: لم أعد أحتمل لغة المخاتير وزهوهم. قلوب الناس مجروحة والمخاتير يبتسمون. (يخاطبهم) يُسميكم الناس "مجلس الفساد والغلاء وسقوط العملة الوطنية". كلما انتصر الجيش في معركة كسرتم الليرة. وإذا لمسنا الفساد قلتم: هذا مَسٌّ بأمن الدولة. صرختُ، بكيتُ على الشعب. انفجر قلبي ومتُّ.

ورقة شاب: أُصبتُ بانفصام. أنا هابط في النهار، صاعد في الليل. في المساء أجلس في مقهى فيه مولِّدة وتلفزيون. اسمع الأخبار، أرى كبرياء رئيس بلدنا. أسمع ضباط الجيش. أسمع رئيس وفدنا في جنيف وأصفق. رفعوا رؤوس السوريين. وفي النهار أقف بانتظار باص مهترئ مزدحم. أدخل إلى مخزن وأفجع بالأسعار. أرتعش أمام يافطة "متعة التسوق..." أغمضتُ عينيَّ ومتُّ.

المنادي: (ينظر إلى الأوراق في يديه) أغضَبني ماكتبوه قبل الموت، ثم هزَّني. تحمَّلونا كي لا يخدشوا ظهر الجيش المقاتل. ما أعجب أن أرجو صمتهم أحياءً، ويرعشني كلامهم أمواتاً. أشعر بأن في صدري شيئاً يتلوَّى، أهو الضمير؟
رئيس مجلس المخاتير (للمنادي): هل أعلمتَ الشعب؟
المنادي: (حزيناً) مات الشعب. يناوله الأوراق التي نثرها المهاجرون على الأرض، وليس الأوراق التي جمعها من أيدي الموتى، خذ هذه الأوراق، اقرأها.

رئيس مجلس المخاتير: (يقرأ الأوراق) يا بلدي أرحلُ عنك ودمعي على خدي... زوروا عني قبور أهلي. عينكم على شجرة المسك على يمين الطريق. عينكم على سنديانة جدي. قلبي على الجيش.. تحية للجيش.. الله محيِّ الجيش. (يرتبك، يرمي الأوراق) لا يذكرون مجلس المخاتير بكلمة واحدة؟
المنادي: ترك أحد المهاجرين ورقة نسيتَ أن تقرأها: "إذا هاجر مجلس المخاتير رجع الشعب"...
لعلَّ من سيأخذ مكاننا يستحق أن يدير من تحمَّلونا خوفاً على البلاد، لا لأنهم يجهلون ذنوبنا.
رئيس مجلس المخاتير: (يهز رأسه وينصرف).
المنادي: (يدق جرسه النحاسي) هاجر مجلس المخاتير وكل من فيه. يا ناس

ارجعوا. ارجعوا قبل أن يكبر أولادكم ويصبحوا غرباء عنكم. لن تجدوا في الغربة من يبكيكم إذا متُّم. لن تجدوا من يزور قبوركم.
(تُسمع أصوات رجال ونساء بعيدة. المنادي ينصرف. ظلام)

في مسرحية "**منطقة آمنة: مسرحية من الحرب على سورية**" (تُقدم المَشاهد مقاطع من حياة السوريين في الحرب. خلفية بعض المشاهد صورة أبنية مدمرة وأبنية سليمة، تدخل وتخرج منها الشخصيات وتطل منها. في الجزء السليم شرفة فيها امرأة- امرأة الشرفة- تعبِّر عن ضمير الشعب أو ضمير سوريا).

تُمهد المؤلفة لمسرحيتها هذه بالحديث عن المثقفين، فتقول إن مما كشفته الحرب هو أن الثقافة خط الدفاع الأول عن الوطن. لذلك اجتهدَ الاختراق الثقافي لإبعادها عن محتواها المقدس: الحياة الإنسانية وحاجات الروح.

في مشهد "مهجرون ومستوردون" يقول المستورد إن الحرب لم تدمر المدن فقط، بل دمرت النظام الاجتماعي الاقتصادي أيضاً. فلا عودة إلى تحديد ساعات العمل والضمان الصحي والجمعيات السكنية. أنهت الحرب ما كان يسمى اشتراكية وعدالة اجتماعية. على الأنقاض سيشيَّد نظام جديد نحن في مقدمته. وفي مشهد "مفكِّر وامرأتان ورجل"، يُعرب المفكر عن عدم تفاؤله؛ إذ لم يعد محور التاريخ صراع الأغنياء والفقراء والجنوب والشمال، بل صراع الهويات. الدنيا تغيرت وزمن عبودية النصوص القديمة ولَّى، والذكي يميل مع الريح حيث تميل. هذا إذن عصر الهويات القاتلة، كما يسميها أمين معلوف، والتحرر من منظومة القيم البالية بحسب تعاليم الدين الجديد- دين السوق الحر- والرقص على الحبال وعبادة إله الربح. وتعلِّق المرأة الأولى بأن "الأخلاق لم تعد مرجعية، وأن الفكر، للأسف، مَرْكبة مجنَّحة يركبها شخص ليطير إلى منصب أو منفعة، ويركبها آخر ليخدم الناس. ولمواجهة الحرب نحن بحاجة إلى ثقافة الوجدان." هذه هي الثقافة التي تؤمن بها الكاتبة فكراً وتتبناها نهجاً: ثقافة الوجدان.

أما في مشهد "عودة"، فتتحدث المرأة الأولى إلى الثانية عن رؤيتها المتشائمة

لمرحلة ما بعد الحرب، حيث سيطلب أغنياء الحرب حصتهم السياسية، وسيطلب الفاسدون مكافآتهم لأنهم لم ينشقوا، وسيبقى المدراء المكروهون في مناصبهم لأنهم لم يهاجروا! في هذه الزحمة مَن يسمع صوت الحق والعدل والضمير الشخصي والوطني؟

وتقول الضيفة في مشهد "السمين والنحيل" إن البترو- دولار اشترى نوعين من الأسلحة الفتاكة: مرتزقة متوحشين مع أسلحتهم الحربية المتطورة، ومثقفين يوفرون لهم الغطاء السياسي و"الأخلاقي" المفقود، فصار الشعراء كتَّاب عرائض، وانكشف عري المثقف العربي واستسلامه للسراب الليبرالي المجحفل بالإرهاب، وحلَّ زمن خيانة المثقفين وتدجين الثقافة.

ويتساءل صاحب المكتبة في المشهد الذي يحمل اسمه "صاحب مكتبة وشاب"، من أين جاءت العصابات التي أحرقت مكتبته؟ ويُعرب عن حزنه لأن ما شاهده وقرأه كشفَ فراغاً فكرياً وقحطاً ثقافياً. إنه يعرف أن كبار المفكرين والكتاب هم نتاج مراحل تاريخية. فإلى أية مرحلة تاريخية يُنسب هذا القحط الثقافي؟ إلى مرحلة فرض الملابس الجامعية وحفظ الأجوبة عن الأسئلة وغياب المعلقات والشعر العربي من الكتب المدرسية؟ أم إلى انحطاط الكتَّاب إلى مستوى كتَبة وظائف الإنشاء؟ أم إلى تيه المثقفين في متاهة نقد النقد وعَلْك المدارس الأدبية التي طُويت من الغرب وتُرّهات موت المؤلف وتفكيك النص؟ أم إلى زمن نفاق المثقفين وتَسوُّلهم على أبواب المحسنين من أصحاب المَحافظ المنتفخة والرؤوس الخاوية؟

في مشهد "مثقفون"، يدور نقاش بين مجموعة من المثقفين حول الثقافة، الموضوع الأثير للمؤلفة، الذي يحجز مكانه على رأس أولويات اهتمامها. فيذكر المثقف الأول رأي ابن المقفع بالثقافة التي "تُهذب الإنسان وتُنبت موهبته كما يُنبت الماء النبات من البذرة". بينما يتحدث المثقف الثاني عن أن الخلاف بين السلطة والمثقف قديم ومستمر. ليردَّ عليه الأول بأنه ينبغي تحديد أية سلطة وأي مثقف، وعمَّ يعبر كل منهما؟ عن سلطة المنتجين أم المستغلِين؟ عن مثقفي

الوجـدان أم مثقفـي المـال الخليجـي؟ فيؤكـد الأول أنـه لا توجـد في الواقـع سياسـة مجـردة ولا ثقافـة مجـردة. فهـذه محـض خرافـة يسـتخدمها السياسـيون ومثقفوهـم لتسـويغ وتسـويق أغراضهـم غـير المجـردة.

كيف يقدم المسرح برنامج عمل من تحت الأنقاض

في المشـهد الثامـن والثلاثـين "اجتـماع"، تـترأس امـرأة الشرفـة اجتماعـاً عامـاً يثـير فيـه المشـاركون قضاياهـم ويقدمـون مطالبهـم.

امـرأة الشرفـة تسـجل المطالـب والقضايـا والمقترحـات والآراء والتعليقـات التـي يطرحهـا جمهـور المشـاركين في الاجتـماع، ومنهـا:
- بناء بيوت وورشات الناس التي دُمرت.
- تقديم مساعدات للفقراء وكتب مدرسية مجانية و دراسة جامعية مجانية.
- مـاذا عـن الشـهداء؟ كيـف نعيـش مـع مـن يمـلأ المـال الخليجـي جيبـه، فالمـال بحـد ذاتـه موقـف، مـن يمـلأ المـال السـعودي والقطـري جيبـه، تمـلأ الأفـكار الوهابيـة رأسـه.
- المصالحة ليست عفواً عن المجرمين.
- العلاقة مع إسرائيل كانت خيانة، أما الآن فقد أصبحت وجهة نظر.
- لا للإفلات من العقاب.
- حرية الكلام، لكن، ليس لمن قاتَلنا بأجر.
- لا تُبنـى النظافـة عـلى الوسـخ، نظِّفـوا البلـد مـن الذيـن نهشـوا لحمنـا... وعـشرات المطالـب الشـخصية والعامـة، مـن قبيـل محاسـبة الخونـة، قضيـة المخطوفـين، الاغتصـاب، حـق العمـل، اسـتملاك الأراضي ، الفسـاد المغطـى بمظلـة حزبيـة، تخريـب الاقتصـاد، الحـرب الناعمـة والطابـور الخامـس.. والقائمـة تطـول، حيـث تحـرص الكاتبـة عـلى معالجـة تفاصيـل المطالـب والمواقـف والأفـكار والمشـاعر بـدأب وجَلـد بالغـيْن.

لكـن ربمـا يقـول قائـل إنْ هـذا إلا برنامـج عمل/بيـان سـياسي، وليـس مسرحـاً. بيـد أن

مَـن يتمعَّـن في مسرحيـات الدكتـورة خوسـت هـذه يجـد أنهـا بمثابـة فصـول متَّسـقة ومتكاملـة في ملحمـة الحـرب والسـلام السـورية.

المشهد الأربعون: مشهد الختام، مِسكُ الختام، مُرُّ الختام

ماذا بعد النصر؟ خفَقان الرايات والقلوب، أم رعشة الخوف من المكامن؟

(عـلى خشـبة المـسرح شـجرة الميـلاد وزينـة رأس السـنة. شـابات يلتقطـن صورهـن. رجـل يقـف عـلى بعـد منهـن)

تختتـم المؤلفـة هـذه المسرحيـة بهـذا المشـهد، وتختتـم هـذا المشـهد بهـذه اللوحـة العميقـة الألـوان والظـلال والأبعـاد، التـي تسـتدرجني إلى المجازفـة بالقـول إنهـا تصلـح لأن تكـون خاتمـة تلخِّـص جميـع المسرحيـات المقدَّمـة هنـا، بـل لمعظـم أعمالها الأدبيـة المتعلقـة بالحـرب عـلى سـوريا. وبعـد ذلـك كلـه لأن تكـون خاتمـةً مِسـكاً، وإن مُـرَّة، لهـذا الجـزء مـن الأوديسـة السـورية:

"الرجـل: سـتنتهي الحـرب. سـينتصر هـؤلاء الرجـال والنسـاء، سـينتصر جيـش أصبـح أسـطورة في وجـدان الشـعب. لكـن تحـت الانتصـار أوجاع لا يسـتطيع قلـم أن يعدَّهـا. مَـن يُرجـع المفقوديـن الذيـن دُفنـوا في مقابـر جماعيـة؟ مَـن يُعيـد إلى الصبايـا سـبع سـنوات مـن العمـر؟ (أصبحـت عـشرة الآن) مـن يَجـبُر قلـوب المغتصبـات؟ هـل تسـتطيع امـرأة الشرفـة التـي صاغـت أمنيـات النـاس أن تنـسى طفلتهـا ابنـة الثـماني سـنوات؟ كيـف سيسـكن لـص في بنـاء مـع ضحيتـه؟ هـل يسـامح أولئـك الرجـال والنسـاء النبـلاء مَـن تفـرَّج عـلى أوجاعهـم وهـو مشـغول بتوسـيع بيتـه ومزرعتـه وسرقـة مالهـم وحدائقهـم؟ (يلتفـت نحـو المحتفلـين) مـررتُ بهـذه السـاحة التـي نصبـوا فيهـا شـجرة الميـلاد. رأيـتُ قذائـف المسـلحين عـلى السـاحة، ثـم رأيـت النـاس يعبرونهـا وكأنـه لا قذائـف قـد تقصدهـم بعـد لحظـة. حـرتُ مـاذا أسـمي ذلـك؟ بطولـة؟ معجـزة؟ صمـوداً أسـطورياً؟ حدَّقـتُ في النـاس، بـدا بعضهـم فقـيراً حتـى البـؤس، وبعضهـم يديـر حياتـه دون شـكوى. وعندمـا تحدثـت معهـم تدفقـوا في تحليـل الحـرب، أدانـوا مـن نظَّـم العصابـات وأرسـلها عليهـم. مَـدُّوا أذرعهـم عـلى طولهـا مشـيرين إلى الفاسـدين. وعندمـا ذكـرتُ الجيـش سـألوني: تسـألنا عـن أولادنـا؟ نضعهـم في عيوننـا، ونحضنهـم بقلوبنـا!

"تفرجتُ على شجرة رأس السنة. خلفها أنقاض ورجال ونساء فقَدَ كل منهم عزيزاً. شعرتُ بحنان عليهم ضغطَ قلبي حتى الألم. وشعرتُ بحب لهم لا يوصف، وبخوف عليهم أيضاً. فأنقاض الحرب كالعسل للذباب، هل ستهجم عليهم طبقة جديدة ترسم مُدناً وأبراجاً لا علاقة لها بهويتهم وحاجاتهم، بل تُبنى لتزيد أرباح الأغنياء؟"

بعد الحروب كثيراً ما يُنسى الفقراء، وكثيراً ما تبقى قبور الشهداء لأهلهم فقط. هل سيرسم هؤلاء الرجال والنساء تقاليد جديدة فيشِّيدون للوطن نُصباً لشهدائهم في الساحات والحدائق وأرض المعارك التي رووها بدمائهم. أخشى أن يكون ما بعد الحرب أقسى منها! أخشى أن تُفرض على هؤلاء الصابرين النبلاء حروب جديدة!"

وبعد،

هل هذا الكلام احتفاءٌ بنصرٍ مشوبٍ بتوجُّس حرب آتية؟

أم صوتُ بشيرٍ يُشيِّع حرباً إلى حيث ألقت رَحلها، مصحوبةً بالزغاريد واللعنات؟

أم صوتُ نذيرٍ يحذِّر من جمر اشتعالها المدفون تحت الرماد؟

الأوديسة السورية - 3 -

مالك صقُّور سلطان الكلمة

يتناول هذا الجزء بعض مؤلفات الكاتب مالك صقور التي تفضَّل بتوفيرها لي أثناء زيارتي الأخيرة إلى دمشق بدعوة كريمة من اتحاد الكتاب العرب بمناسبة احتفالية العيد الذهبي لتأسيسه في كانون الأول/ديسمبر 2019:

- درَّة، مجموعة قصصية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2014
- السماء ليست عالية، مجموعة قصصية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005
- الأبعاد الثقافية للحرب على سورية: قضايا ثقافية سياسية، مجموعة دراسات وبحوث، منشورات الهيئة العامة االسورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2015
- سلطان الكلمة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2017
- بالإضافة إلى كتاب "الأديب مالك صقور"، مجموعة من الباحثين والنقاد والشعراء والأدباء (بمناسبة تكريمه)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2010.

صحيح أن القصص المنشورة في مجموعتيْ "دُرّة" و"السماء ليست عالية" لم تُكتب في فترة نطاق البحث، إلا أنها تصوّر جانباً من الإرهاصات والممهِّدات الداخلية التي استغلتها واستندت إليها قوى العدوان لتصنيع الثورة المضادة وترويجها وتخطيط وشنِّ الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية على سوريا.

ففي قصة "الأرض" المنشورة في مجموعة "**درة**" يتذكر الرقيب أحمد منصور المجنَّد في القوات الخاصة كلمات والده التي لا تزال "تطن" في أُذنيه يوم ودَّعه وهو ذاهب إلى الجبهة في حرب تشرين للتصدي للعدوان الإسرائيلي على سوريا: "أرضك وعرضك يا أحمد .. أرضك وعرضك لا تفرّط بهما".

بعد عودته من أرض المعركة مصاباً بجروح، يجد الرقيب أحمد منصور أن والده "طقَّ ومات" قهراً ساعة تبليغة بقرار المحافظة استملاك قطعة الأرض الوحيدة التي ورَّثها لابنه، بعد أن ساوموه على شرائها لإنشاء مجمع سياحي فخم عليها، ولكن الأب رفض رفضاً قاطعاً، فقررت المحافظة استملاكها بحجة

بناء مدرسة "لتعليم أولادهم ومن أجل الوطن". لكن روحه لم ترقد بسلام، بل ظلت تحوم فوق رأس ابنه أحمد لا تنفك تذكّره بالوصية "أرضك وعرضك يا أحمد..." وبعد استنفاذ جميع السبل الممكنة لاسترجاع حقه في قطعة الأرض، لا يجد الرقيب أحمد سبيلاً سوى اقتحام مبنى المحافظة بكامل زيه العسكري ومدججاً بالسلاح وحاملاً أمراً ممهوراً بختم وتوقيع قائده العسكري يقول فيه: "إما أن يعيد المحافظ أرض أحمد منصور إليه أو يرميه بالرصاص".

يدخل الرقيب أحمد إلى مكتب المحافظ ويخاطبه بلا تردد أو رهبة: لقد قدمتُ دمي للوطن، وأنت هنا تتربع على هذا الكرسي الفاخر، واستكثرتم عليَّ قطعة أرض صغيرة ورثتها عن أبي. الدولة غنية، أراضيها شاسعة فسيحة، وأصحاب الكروش الكبيرة، أليس عندهم أولاد وأراضي؟

انهالت الاتصالات على القائد الذي ردَّ على الهاتف بجدية وإصرار: أحمد أفضل مقاتل عندي، أشجع الشجعان. أحمد ليس مجنوناً ولا مجرماً. أحمد قاتلَ على جبل الشيخ بشجاعة نادرة، اشتبك مع العدو بالسلاح الأبيض، تعرَّض للموت ألف مرة، أحمد رفعَ العلم السوري على المرصد. أحمد قاتلَ عنكم. نحن هنا نريق دمنا دفاعاً عنكم وعن بيوتكم وعن أولادكم وعن نسائكم وعن عاهراتكم أيضاً. فإما أن تعود أرض أحمد أو يتم إعدام من لم يردَّها له."

حدث هذا قبل إطلاق العنان للثورة المضادة وإشعال الحرب العدوانية الأخيرة على سوريا. أليس هذا ما حدث بعد إشعالها ويحدث أثناءها؟ هذا ما يقوله القائد العسكري المسؤول عن الرقيب أحمد في ردوده الهاتفية على المسؤولين في المحافظة: "بعضهم يريق دمه دفاعاً عن الأرض، وبعضهم الآخر مشغول بشراء وبيع الأرض لبناء المرافق السياحية الفاخرة عليها. الرقيب أحمد ورفاقه في الجيش السوري يقاتلون من أجل تحرير بلدهم، وتجار الحرب يُكدسون الثروات في خزائنهم.

أمـا في الحكايـة داخـل القصـة، حكايـة "الوليمـة" داخـل قصـة "**السـماء ليسـت عاليـة**" في المجموعـة القصصيـة التـي تحمـل العنـوان نفسـه، فـإن امبراطوريـة هندسـتان ليسـت في الهنـد، بـل هـي أيـة سـتان مـن "السـتانات" العربيـة التابعـة، والامبراطـور هـو أي حاكـم عـربي، ملـكاً كان أم أمـيراً أم شـيخاً أم رئيسـاً، مـن التابعـين للأعـداء أو تابعـي التابعـين، والثـوري "كومـار" ليـس كومـار الهنـدي بـل شـاهين العـربي، وعنـوان الحكايـة ليـس "الوليمـة" بـل "سرقـة الحـواس" أو فقـدان الحـواس".

في الحكايـة: كان يامـا كان.. كان الامبراطـور يقيـم وليمـة في كل عـام يدعـو إليهـا الخاصـة مـن أتباعـه، وفي أحـد تلـك الأعـوام خـرج شـاهين شـاهراً سـيفه وقاصـداً مـكان الوليمـة في السـماء السـابعة/الطابق السـابع متوعـداً وواعـداً بـألا يعـود إلا قاتـلاً أو مقتـولاً.. إمـا بالخبـز لجميـع النـاس بالتسـاوي أو بـرأس الإمبراطـور. يبـدأ شـاهين رحلـة "صعـود المُنحَـدر"، إن صحَّ التعبـير، ولكنـه لا يملـك بطاقـة دعـوة. وفي بـاب كل طابـق حـارس يمنعـه مـن الدخـول إلا إذا تخـلَّى عـن قطعـة أساسـية منـه: سـيفه في الطابـق الأول، وأذنـاه في الثـاني، ولسـانه في الثالـث، وقلبـه في الرابـع، وعينـاه في الخامـس، حيـث يعطونـه نظـارة بـدلاً منهـما، وكوفيتـه وجلبابـه في السـادس، حيث يعطونـه قبعـة وطقـماً بـدلاً منهـما. وبعـد صراع داخـلي مريـر يحـاول فيـه "تبريـر" تخليـه عـن أحـد مكوناتـه الأساسـية مقابـل الوصـول إلى الهـدف الأعـلى المنشـود الـذي خـرج مـن أجلـه بعـد تجريـده مـن سـلاحه وسـمْعه وبـصره ونُطقـه وشـجاعته وأخـيراً هويتـه، يصـل إلى القاعـة الملكيـة التـي تخلـب الألبـاب في السـماء السـابعة، حيـث الحفـل الامبراطـوري السـاحر. وعندمـا يناديـه صـوت: مـن أنـت يـا..؟ يـردُّ: عبـد سـيدي ومـولاي. مـاذا تريـد يـا..؟ جئـت لأحظـى بمباركـة سـيدي الامبراطـور وأنقـل إليـه تحيـات شـعبه وتمنياتـه لـه بطـول العمـر. أيـن أنـت يـا شـاهين؟ أنـا في السـماء السـابعة. هكـذا يصعـد شـاهين الثـوري العـربي سُـلّم ذلـك المنحَـدَر درجـة درجـة، فيخلـع مبادئـه الثوريـة واحـداً واحـداً عنـد مدخـل كل بـاب، فيهبـط مـن عليـاء "الخبـز للجميـع عـلى قـدم المسـاواة أو رأس الإمبراطـور"، إلى درك "الفيـل يـا ملـك الزمـان (مسرحيـة سـعدالله ونـوس)والنمـور في اليـوم العـاشر"(قصـة زكريـا تامـر).

كتاب الأسئلة الثقافية

في كتابه "الأبعاد الثقافية للحرب على سورية"، الذي أعتبرُه كتاب الأسئلة الثقافية بامتياز، يرى مالك صقور أن الحديث عن الأبعاد الثقافية للحرب على سوريا لا ينفصل عن الحديث عن الحرب العسكرية والاقتصادية والسياسية التي تدور رحاها في البلاد. وفي حمَّى الصراع الدائر هنا على الأرض السورية، ترتفع الأصوات المتسائلة: أين المثقفون؟ وما هو دورهم؟

يرى صقور أن "المثقفين الحقيقيين يرفضون التدخل الأجنبي ويرفضون العنف والإرهاب معاً، ويطالبهم بالقول والفعل لأنه يعتقد أنهم خير من يقول ويفعل ويطالب. ولأنه كما قال الشاعر المختلَف بشأن اسمه:

"لا يعرف الشوق إلا مَن يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

لا يسهر الليل إلا مَن به ألم ولا تحرق النار إلا رِجْل واطيها"

فإن المثقفين يُفترض أن يعرفوا معنى الحرية، ولذا يستطيعون التمييز بينها وبين الفوضى، وأن يعرفوا معنى الإصلاح ، ولذا، فإنهم هم الذين يطالبون به، وأن يعرفوا حجم الفساد ، ولذا، فإنهم هم الذين يحاربونه ويفضحونه. لكن ماذا يفعل المثقفون اليوم في المشهد العربي الراهن؟

يتميز مالك صقور، فيما يتميز به، بأنه يمتلك نبعاً من الأسئلة والتساؤلات، أسئلة تحتاج إجابات، وتساؤلات استنكارية تحمل إجاباتها بين سطورها. ولا تخلو جعبته العامرة من سهام الأسئلة التي لا تطيش لأنها مسدَّدة إلى قلب الحقيقة. ولذا فإنه يرى أن المشهد العربي الراهن يستدعي إثارة جملة من هذه الأسئلة التي تتطلب إجابات ملحَّة، وأن المثقفين مسؤولون عن ذلك بشكل ما. ومع أنه يعلم أن المثقفين الوطنيين والتقدميين لا يملكون القرار السياسي، وليسوا هم أصحاب الدور الفاعل في الدولة والمجتمع، فإنه يعتقد أنهم يجب أن يحددوا مواقفهم وأن يعلنوها في مواجهة الثقافة الرجعية التي تنشر الكراهية وتثير العصبيات القاتلة، الدينية والطائفية والمذهبية والقبلية، وتبيح إراقة الدم. وذلك لأنه يرى أن الكتابة أولاً وآخراً مسؤولية، وأن الكاتب مسؤول وصاحب رسالة، وهو الذي يصوغ الأسئلة الضرورية حول ما يجري بهدف الوصول إلى السؤال الجوهري الأهم: ما العمل؟

لا ينكر صقور وجود أصوات نبيلة وعقول نيِّرة وأقلام حرة في العالم العربي والعالم، ولكنه يتساءل: أين هم الآن؟ ولماذا هم مغيَّبون؟ وماذا هم فاعلون؟ أسئلة تولّد أسئلة أخرى تقتضي البحث عن إجابات معمقة ومتبصرة تستند إلى الواقع الملموس:

-هل تعكس الثقافة العربية سياسات البلدان العربية، أم أن السياسات هي التي تعكس الثقافة العربية؟

- منَ يوجه مَن؟ من يؤثر في الآخر؟ هل هناك صلة بين الثقافة والسياسة، أم أن هناك فجوة أو قطيعة بينهما؟

- هل توجد "ثقافة عربية" بالمعنى الجامع و الشامل للكلمة؟

- أم أن لدينا "ثقافات عربية" مفصَّلة على مقاس 22 دولة؟

- هل يمكن فصل الثقافة عن السياسة والاقتصاد؟

- هل يشكل المثقفون العرب "مكوَّناً" مؤثراً في مجتمعاتهم؟ هل يمكن أن نطلق على الشرائح المثقفة مصطلح "انتليجنسيا"؟ وهل تلعب هذه الانتليجنسيا الافتراضية الدور الفاعل المطلوب في توعية الجماهير العربية كما فعلت الانتليجنسيا الفرنسية والروسية إبان الثورتين العظميّين في هذين البلدين مثلاً؟

- لماذا يحسُّ المثقف بالغربة في وطنه ووسط مجتمعه؟

- أليس من المهام الأساسية للثقافة إرساء منظومة وعي متكاملة من أجل خلق المناخ السليم للمعرفة التي يكون الإنسان غايتها الأسمى وهاجسها الأول والأخير؟

مِن هذه الأسئلة وغيرها يخلُص مالك صقور إلى القول إن المثقف الإنسان – المفكر والفنان والكاتب والشاعر:

"لا يساوم، لا يقايض، لا يخون."

ويضيف في فصل آخر بأنه يجب ألا يصمت وأن يقول ما يجب أن يُقال، مثلما فعل الشاعر الألماني غونتر غراس، ويقتبس مقطعاً من قصيدته الشهيرة بعنوان "ما ينبغي أن يقال" التي أغضبت الأوساط الصهيونية وهزَّت الأوساط الأدبية الألمانية:

" لماذا ألوذ بالصمت؟ لماذا صمتُّ طويلاً
عمَّا يُمارَس بكل وضوح من ألعاب حربٍ
لن نكون فيها، نحن الناجين، في أحسن الأحوال
وفي نهاية المطاف أكثر من هوامش...
أُعلن الآن أنني لن أصمت بعد اليوم
لأنني سئمتُ نفاق الغرب
وآملُ أن يحرر هذا البوح أشخاصاً آخرين من ربقة الصمت
وأن يدفع المتسبب بالخطر إلى نبذ العنف..."

بعد كل هذه الأسئلة، يتساءل صقور عمَّ إذا كانت هناك فسحة أمل في انبعاث ثقافة عربية جديدة ووعي ثقافي جديد يُحصّنان المواطن- الإنسان في البلدان العربية ويقوّيان مناعته ضد "ثقافة" الإرهاب والحقد والكراهية والطائفية والمذهبية؟ أم ستبقى "النخب" الثقافية بمختلف أطيافها تُطلق الشعارات و تكتفي بالخطاب الإنشائي العبثي بلا فعل؟ عندئذٍ، لن يكون أمامنا سوى اللجوء إلى الطغرائي في لاميته الشهيرة:

"أُعلّل النفس بالآمال أرقُبها   ما أضيق العيش لولا فُسحة الأملِ".

غير أن مالك صقور يؤكد أنه لا يزال يؤمن بأن الكاتب ليس شاهداً فحسب، بل هو صاحب رسالة، وأن رسالته تقضي بأن يكون "معلماً ومنوّراً ومحرضاً ومبشراً وثائراً". لذا، فإن على الكاتب أن يسمو على الجراح ويعمل على بلسمتها، وأن يبقى مناضلاً من أجل إنسانية الإنسان المفقودة.

ثم يعود صقور إلى النهل من نبع الأسئلة والتساؤلات الذي يغرف منه كلما أحسَّ بالعطش إلى الحقيقة واليقين: أين العقل؟ أين دوره؟ أين الوعي، أين الحكمة والفلسفة؟ ومرة ثانية وثالثة، أين المثقف وما هو دوره؟

وفي محاولة لتلمُس إجابات عن هذه الأسئلة، يعرب الكاتب عن اعتقاده بأننا نواجه أزمة أخلاقية، يعزوها إلى الخلل البنيوي الذي أصاب المعرفة والثقافة

والديـن والسياسـة، متخـذاً مـن الواقـع الملمـوس دليـلاً عـلى صحـة اعتقـاده، فلـولا هـذا الخلـل العميـق في بنيـة التربيـة والأخـلاق، لمَـا اسـتطاع التكفيريـون تحقيـق كل مـا حققـوه بسرعـة، ولمـا وجـدوا كل هـذا الكـم مـن البـشر الذيـن يقبلـون باقـتراف أبشـع الجرائـم، بـل يسـتمتعون باقترافهـا مسـتندين ومطمئنـين إلى فتـاوى تجعلهـم يشـعرون بـأن نفوسـهم تعـود إلى ربهـا راضيـة مرضيـة!

كـما أنـه يـدرك أن مياهـاً كثـيرة جـرت تحـت الجـسر، لكنهـا ميـاه ملوثـة وفاسـدة، وتـم الاشـتغال عـلى هـذا الأمـر طويـلاً للوصـول إلى هكـذا نتائـج. ولذلـك يسـأل: مَـن المسـؤول عـن كل ذلـك؟ كيـف نخـرج مـن هـذا النفـق الحالـك الظلمـة؟ وكيـف نعلِّـم الأخـلاق الوطنيـة والمشـاعر الإنسـانية الطبيعيـة لأطفـال كـبَّروا ثلاثـاً وهـم يطيحـون بـرأس تمثـال أبي العـلاء المعـري كـما لـو كانـوا يحطمـون رأس "هُبـل" داخـل جـدران الكعبـة يـوم فتـح مكـة؟

بين الثقافة والسياسة

أمـام المشـهد الدمـوي الفظيـع في سـوريا، يسـأل الكاتـب عـن أيـة ثقافـة وأي مثقفـين يـدور الحديـث. وهـو يـدرك أن المثقفـين العـرب انقسـموا إزاء الأحـداث الكـبرى التـي وقعـت في الوطـن العـربي، ولا تـزال مسـتمرة، وأن المثقفـين السـوريين انقسـموا كذلك بـين مثقـف منتـمٍ إلى أرضـه ووطنـه وشـعبه، وآخـر أعـماه البـترودولار وحوَّلـه إلى أداة بأيـدي مشـغِّليه مـن أعـداء بلـده، وأغلبهـم مـن الباطـن. ويـرى أن سـنوات الحـرب أظهـرت أن السـوريين العاديـين الذيـن يزدريهـم بعـض المثقفـين باعتبارهـم يفتقـرون إلى الوعـي، إنمـا هـم أكـثر وعيـاً وانتـماءً مـن الذيـن يدَّعـون الثقافـة ويتناسـون أن "ثوارهـم" المدجَّجـين بالسـلاح والمـال والتكنولوجيـا المتطـورة هـم الأشـد جهـلاً وتخلفـاً. فمـن هـو المثقـف إذن؟

هنـا يسـتدعي الكاتـب مـا ورد في كتـاب "سـتالين – حقائـق وأكاذيـب" لمؤلفـه فلاديمـير جواخـري بشـأن اللقـاء المهـم للغايـة بـين جوزيـف سـتالين واتحـاد الكتـاب السـوفييت بعـد انتهـاء الحـرب الوطنيـة العظمـى لمناقشـة طـرق التطويـر اللاحـق لـلأدب والفـن. وليسـمح لي القـارئ باقتبـاس مطـوَّل لحديـث سـتالين مـع وفـد

الكتاب السوفييت نظراً لأهميته البالغة، ليس بذاته وفي سياقه ومكانه وزمانه فحسب، بل لأهميته في ما يتعلق بتفكير المثقفين السوريين والعرب وموقفهم حيال الحرب الهمجية على سوريا، التي يعتبرها الكاتب، بحق، حرباً وطنية عظمى كذلك.

فها هو رئيس اتحاد الكتاب السوفييت فادييف يقف بتهيُّب أمام ستالين، ويشرح له أن الناس تعبوا من رؤية مشاهد النيران والدم وأخبارها في السينما والإذاعة والصحف وأينما ذهبوا، ويقول: "يا رفيق ستالين أتينا إليكم لأخذ النصح، إذ يرى الكثيرون أن أدبنا وفننا دخلا في مأزق، ولا نعرف عن أي طريق نطوِّرهما لاحقاً- كيف نعرض في مؤلفاتنا الحياة الأخرى، حياة المستقبل الذي يخلو من الدم والعنف؟ باختصار: لقد تعب الشعب من النضال والدم ونضجتْ ضرورة الحديث عن حياتنا السعيدة المقبلة."

فيجيب ستالين المتحفز بعمق دائماً: "تفتقر محاججتكم يا رفيق فادييف إلى التحليل الماركسي- اللينيني للمهام التي تضعها الحياة الآن أمام العاملين في الأدب والفن. فوسائل الإعلام التابعة للامبريالية تصوّر السوفييت على أنهم "همج وأبناء كهوف" لم يبلغوا بعد درجة الإنسان، وها هم هؤلاء الهمج يُلحقون هزيمة نكراء بقوتين جبارتين في العالم، النازية والفاشية." ويجب أن يعرف العالم حقيقة هؤلاء الناس الذين اجترحوا تلك المأثرة العظمى بإنقاذ البشرية جمعاء. الناس العاديون هم الذين حققوا كل هذه الإنجازات التي ترونها ودفعوا حياتهم ثمناً لها. ولذا فإن مهمة الانتليجنسيا السوفييتية المبدعة اليوم هي أن تُبرز في أعمالها الإبداعية الإنسان السوفيتي البسيط وأن تكشف وتُظهر أهم خصاله وطباعه. وفي هذا الأمر يتكوَّن الخط العام لتطوير الأدب والفن."

ويذكر لهم ستالين مثلاً على ما ذهب إليه ما صرَّح به سناتور أمريكي: "إذا استطعنا أن نعرض في روسيا البلشفية أفلام الرعب التي ننتجها فإننا سنوجه ضربة لبناء الشيوعية." ويستشهد بقول ليف تولستوي إن "الأدب والفن أقوى أشكال التلقين والتأديب". ويركز ستالين على ضرورة فهم الأدب على أنه يُعد

”من أهم مكونات الأيديولوجيا المهيمنة في المجتمع ، وأنه طبقي الجوهر دائماً. ويدحض مقولة الفن للفن ويؤكد أنه لا يمكن أن يوجد كتَّاب وشعراء وفنانون ومسرحيون أحرار وهم مستقلون عن المجتمع ولا تعنيهم قضاياه.“

في هذه ”الحرب الوطنية العظمى السورية“ يكتسي موقف المثقفين منها ودورهم وفعلهم فيها أهمية بالغة. وعندما يأتي دور الحديث عن المثقفين المعارضين، فإن الكاتب يضعهم في أصناف ثلاثة: منهم من فرّ إلى الخارج ليصبح بوقاً ضد بلاده على الشاشات المعادية؛ ومنهم من بقي في الداخل والتزم الصمت المطبق المريب؛ ومنهم من كتب على صفحات الجرائد والدوريات، ولكنه تجاهل ما يجري في بلده وتعامى عن مشهد شلال الدم الذي لا يمكن أن تخطئه عين مُبصرٍ أو بصير، وكأن شيئاً لم يكن.

صُوَر المثقف – تعريفات

يعرض مالك صقور للقارئ خمسة تعريفات/خمس صور للمثقف بحسب وجهات نظر أصحابها: فبالنسبة لأدونيس، المثقف هو المثقف الطليعي، ولغرامشي هو المثقف العضوي- ويدعم هذا التعريف إدوارد سعيد- ولجوليان بيندا هو المثقف الحقيقي، ولميشيل فوكو هو المثقف الشمولي، ولهادي العلوي هو المثقف الكوني. أما باالنسبة لمالك صقور فإن المثقف هو المثقف العارف، وأياً يكن هذا المثقف العارف، ”فإنه إن لم يوظف ثقافته في خدمة وطنه ومجتمعه وإن لم يكن نبراسه وهدفه وغايته هو الإنسان، وإن لم يسعَ إلى ويناضل من أجل الحق والحرية والعدالة والمساواة فلا خير يُرجى منه ومن ثقافته.“

الثقافة والمثقفون من عصر الانحطاط الأول إلى عصر التفكير الإرهابي- الانحطاط الأكبر

يستهلُّ صقور هذا الفصل بإبراز البون الشاسع بين زمنين: زمن جميل وزمن قبيح، بين ما كان وبين ما هو كائن، لا على صعيد الثقافة والمثقفين فحسب، بل في مناحي الحياة كافة في العالم والبلدان العربية وسوريا. ويرصد التحولات التي حدثت فيها: من الأحلام الثورية الوردية إلى كوابيس الحروب القذرة؛ من

أماني الاستقلال والسيادة الوطنية والوحدة إلى التبعية للإمبريالية وإلغاء الدولة وتقسيمها؛ من الآمال بوطن حر وشعب سعيد إلى تخريب اقتصاد البلد ونهب خيراته ومقدراته وتعاظُم الغنى الفاحش وتغوُّل الفقر المدقع؛ من الدين لله والوطن للجميع إلى الإمارات المذهبية والطائفية المتناحرة؛ من ثقافة التنوير والعلم والمعرفة والتربية على قيم الخير والحق والفن والجمال إلى ثقافة التكفير والتدمير والتهجير والإرهاب.

هنا يُطلق الكاتب دفقة أخرى من سهام الأسئلة: ماذا عن الثقافة؟ كيف ستتم مواجهة الثقافة الدخيلة؟ كيف ستتم إعادة تأهيل الذين غُسلت أدمغتهم واحتُلت عقولهم؟

بالثقافة، الثقافة الوطنية الأصيلة، يجيب الكاتب، الذي يبدو جوابه حاضراً وقاطعاً. وهنا يأتي دور المثقفين، لكن من جديد: أين المثقفون؟ ما هو دورهم؟ ماذا فعلوا؟ وماذا يفعلون؟ إنها الأسئلة ذاتها التي أشرتُ إليها سابقاً.

يجيب الكاتب بأن بعضهم هرب من البلاد، وبعضهم الآخر يتهرب من المسؤولية؛ بعضهم غاب أو غُيب وبعضهم الآخر هامشي أو مهمَّش؛ منهم مَن نأى بنفسه وانكفأ منتظراً النهاية ولمن ستكون الغلَبة، عندئذ سيميل حيث الريح تميل. لكن هناك آخرين صمدوا لأنهم أدركوا الحقيقة وفهموا "لعبة الأمم الكبرى"، أولئك هم المثقفون الوطنيون. لكنه يستدرك بالقول إن "الأهم الآن هو الفعل الحقيقي على الأرض وربْط القول بالفعل، والبدء بمشروع ثقافي واضح ومعمق لمواجهة ظاهرة التوحش والفكر الظلامي الذي يخيّم على المنطقة. ويشير بمبضعه الثقافي إلى الدمَّل الذي زرعناه بأيدينا في جسدنا، ويجب أن نفقأه بتدخل جراحي علمي، ويصوِّب على "خديعة" المؤرخين "الذين ربما أرشدونا إلى "تدريس الحركة الوهابية في مدارسنا على أنها حركة إصلاحية تريد أن تُعيد الإسلام إلى أصوله الأولى وتشذبه من الشوائب التي علقت به، ولم ننتبه إلى خطورة هذه الحركة الفاشية الظلامية إلا بعد إعلان الحرب على سورية،" مع أن غزواتها المتوحشة في القرنين التاسع عشر والعشرين وصلت إلى مشارف

عـمان والشـام وكربـلاء والنجـف.

ويشـــدد الكاتـــب عـــلى أن شـــعارات المؤتمـــرات الثقافيـــة والنـــدوات التـــي تُعقـــد والتوصيـــات التـــي تصـــدر عنهـــا تبقـــى حـــبراً عـــلى ورق مـــا دام يطرحهـــا المثقفـــون ولا تسـعى الحكومـات إلى تنفيذهـا. ومـن هنـا يلفـت النظـر إلى أن إبـداع المثقـف عمـل فـردي، بينـما الثقافـة عمـل جماعـي، ولـذا، يقـترح عقـد ورشـات عمـل ثقافيـة تشـارك فيهـا مختلـف الهيئـات والمؤسسـات الثقافيـة المعنيـة لتصميـم مـشروع ثقـافي وخطـة عمـل "لتجديـد!" الخطـاب الثقـافي والتربـوي والدينـي في مواجهـة الفكـر الإرهـابي التكفـيري الرجعـي.

سلطان الكلمة: مالك صقور

يسـتهلُّ صقـور كتابـه هـذا باسـتخدام "التكنيـك" الـذي دأب عـلى اتّباعـه في جُـل كتاباتـه، وهـو "تكنيـك الأسـئلة"، باسـتمطار زخَّـة جديـدة مـن الأسـئلة والتسـاؤلات التـي يَـبرع فيهـا:

سلطان الكلمة أم كلمة السلطان؟

أيهما أسبق؟

أيهما أقوى؟

أيهما أبقى؟

وللكلمة فعل السُّم

للكلمة فعل البلسم

ولكن أية كلمة؟

كلمة السلطان فرض

سلطان الكلمة رفض

وبين الفرض والرفض تنطلق الثورة وتتجلى كلمة الشاعر والكاتب والفيلسوف.

ولمَّـا كان صاحبـه الـذي يحـاوره في شـك مـن هـذا الأمـر، فقـد أدار معـه هـذا الحـوار القصـير لإقناعه:

- هـل تعلـم مَـن هـم الملـوك أو الأمـراء أو السـلاطين أو الخلفـاء أو القيـاصرة في زمـن

سقراط وإفلاطون وأرسطو، أو في زمن سوفوكليس وهوميروس، أو في زمن الفرزدق وجرير، أو في زمن شكسبير وديكنز، أو في زمن بوشكين وتولستوي، أو في زمن ابن المقفع والجاحظ...؟

- لا أعلم.

- إعلم إذن أن كلمة السلطان فانية زائلة، وأن سلطان الكلمة هو الباقي الخالد. هنا إذن مربط الفرس، وهو الخلاصة والرسالة التي يريد الكاتب توصيلها: الثقافة أقوى وأبقى.

اللامنتمي

تحت هذا العنوان يرى الكاتب أن الحرب على سوريا كشفت النقاب عن أمور كثيرة، وأن الإنجاز الأهم لأدب هذه المرحلة العصيبة هو اكتشاف معادن الأشخاص، ذلك أن هذه الحرب تمثل باعتقاده "محنة وامتحاناً ومحكّاً": محنة لأن معادن الأشخاص تظهر في المحن، وهي امتحان لأنهم ينجحون أو يفشلون، وهي محك، لأنهم يميّزون بين المعدن الثمين والمعدن الرديء، وكلها تكشف مَن هو المنتمي ومن هو اللامنتمي لوطنه. ويتوقع أن الأدب، بعد انتهاء الحرب، سينشغل لوقت طويل في توصيف وتجسيد وتصوير التراجيديا السورية. ويريد لهذا الأدب "أن يُنصف الأبطال الحقيقيين الذين حققوا معجزات الصمود والمقاومة والنصر من الفقراء والناس الطيبين البسطاء الذين بدمهم صنعوا مجد الوطن"، على غرار الأبطال من المواطنين السوفييت العاديين الذين حققوا النصر للاتحاد السوفييتي والذين ذكرهم ستالين في لقائة بقيادة اتحاد الكتاب السوفييت المشار اليه آنفاً.

أسئلة مباشرة للكاتب والفنان والمثقف

من جديد يجد القارئ نفسه أمام رشقة جديدة من سهام الأسئلة والتساؤلات النفَّاذة يطلقها مالك صقور مخاطباً المثقف والكاتب والفنان مباشرةً:

"بعد أن بلغ الدم الزبى:

- بماذا تفكر، وكل شيء أمام عينيك يُدمَّر، وكل شيء يحترق؟

- ماذا تكتب، وكيف تكتب، والبلاد تغرق في بحر من الدم؟

- كيـف تكتـب قصتـك، مـا هـو موضوعهـا ومضمونهـا وشـكلها، وأنـت تخـرج مـن مجلـس عـزاء لتدخـل مجلـس عـزاء آخـر؟
- عـلى أي وزن أو بحـر، وعـلى أي إيقـاع تكتـب قصيدتـك وأنـت تـرى بـأم عينيـك أشـلاء الضحايـا تحـت الـركام وبقايـا اللحـم والـدم متناثـرة عـلى الجـدران؟
- هـل يمكـن أن تبـدأ بكتابـة روايـة، وسـط هـذا الضجيـج والتهييـج والتجييـش الهـادف إلى نهـش لحمـك وتكسـير عظامـك؟
- كيف لك أن تنسى ابن صديقك الذي اختُطف ولم يعد؟
- كيـف تنـسى ابنـة زميلـك التـي اغتُصبـت وأُهينـت عـلى مـرأى مـن عائلتهـا في الشـارع وأمـام آلات التصويـر، وبثّتهـا الفضائيـات المعاديـة؟
- هـل سـيكون لمقالـك طعـم ولـون ونكهـة ورائحـة في زمـن انتصـار الغريـزة البيولوجيـة وهيمنـة وحـوش الغابـة؟

هـذه الأسـئلة يوجّههـا صقـور إلى جميـع المثقفـين بـلا اسـتثناء، ويطلـب مـن كل منهـم أن يسـأل نفسـه بحضـور ضمـيره وجهـا لوجـه: "أثنـاء الحـرب، أيـن كنـتُ ومـاذا فعلـتُ ومـاذا قدمـتُ؟ ويريـد منهـم أجوبـة صادقـة بـدون لـف ودوران أو ذرائـع ومـبررات، فقـد بلـغ الـدم الـزبى، عـلى حـد تعبـيره، ويجـب ألا يُـترك شيء مخفـي وراء الأكَمـة السـورية وتحـت حجارتهـا.

أدب الحرب والسلم

يشـير الكاتـب إلى أن الحـروب والمعـارك الكـبرى في التاريـخ، قديمهـا وحديثهـا، انعكسـت في آداب شـعوبها، وأن سـجل الأدب العالمـي حافـل بموضوعـات الحـرب والسـلم وكيـف انعكسـت في الشـعر والروايـة والقصـة والتاريـخ (الإليـاذة والأوديسـة لهومـيروس حـول حـرب طـروادة، و"الحـرب والسـلم"، لتولسـتوي حـول غـزو نابليـون لروسـيا عـلى سـبيل المثـال). ومـع أن تولسـتوي نفسـه يصـف مؤلَّفـه بأنـه "ليـس بروايـة ولا قصيـدة ولا سـجل وقائـع تاريخيـة، بـل هـو مـا أراد المؤلـف ومـا اسـتطاع أن يعـبر عنـه في هـذا الشـكل الـذي عـبَّر بـه عنـه"، فـإن صقـور يعتـبره "روايـة تاريخيـة واقعيـة سـجَّل فيهـا مؤلفهـا أحـداث 1805-1812 بأمانـة ومـزج فيهـا الواقـع العسـكري والاقتصـادي والاجتماعـي، ورسـم لوحـة متكاملـة عـن المجتمـع الـروسي، لا

سيما الطبقة الأرستقراطية ووطنية الروس وصلابتهم وهزيمة نابليون النكراء."
هنا وفي هذا المقام يتداعى إلى ذهن الكاتب سؤال كبير ينطوي على طموح أكبر: هل/كيف انعكست الحرب العالمية الهمجية على سوريا في الأدبيات السورية. هل ستُكتب ملحمة "حرب وسلام" أو "إلياذة وأوديسة" سورية؟ هذا ما حاولتُ ملامسة جانب منه في الفصل الأول من هذا الكتاب و أحاول استخلاصه و الكشف عنه او الحضّ عليه او التطلع اليه في هذا المشروع الذي أعكف على إعداده بعنوان " الاوديسة السورية"

الإنسان موقف والكتابة مسؤولية

يقتبس مالك صقور عنوان كتاب محمود أمين العالم "الإنسان موقف" عنواناً لهذا الفصل. ويوضح الأمر بأن الخلافات والاختلافات في الرأي لا تتعلق بالقضايا الجمالية والأدبية والفلسفية مثلاً، بل بالموقف من قضايا الوطن المصيرية. وهذا هو بيت القصيد بالنسبة له، حيث لا يمكن السماح بأن تُعتبر الخيانة الوطنية وجهة نظر. وهنا يتجلى موقف المثقف والكاتب الملتزم بقضايا شعبه وأرضه ووطنه. ويضرب مثلاً على ذلك ما فعله ليف تولستوي، الذي كان على خلاف مع السلطات القيصرية والكنيسة، ولكنه عندما اعتدت تركيا وبريطانيا وفرنسا على روسيا في عام1851، ارتدى ملابسه العسكرية وقال قولته الشهيرة "الوطن أولاً، الوطن ثانياً، الوطن ثالثاً" وذهب إلى ساحة الحرب.

وبعد كل ما وقع من أهوال وجرائم في سوريا، يستهجن الكاتب كيف يكتب من يسميهم "الكتاب الرماديين" وكأنهم يعيشون في جزيرة نائية منقطعة عن عالمنا، ولا يهمهم مصير وطنهم وشعبهم، وكيف لا يزال هناك مثقفون، ومن بينهم مَن يصنّفون أنفسهم بأنهم يساريون، أو حتى ثوريون، يسمُّون ما حدث في سوريا "ثورة". فالمثقف والكاتب الحقيقي برأيه يجب أن يكون ملتزما بقضايا شعبه ووطنه، لا خائناً لها، وناطقاً بالحقيقة ولو كانت مُرة، لا مزيّفاً لها. ولعلَّ ما يقتبسه الكاتب من جوليان بيندا عن خيانة المثقفين ينطبق على الصنف الثاني من المثقفين:

"إن بعض المثقفين، في تناولهم للأهواء الفئوية وفي بحثهم عن المكاسب السياسية، قد يتسببون بالذبح المنظم للأمم والشعوب والطبقات." فهل ثمة حقيقة أقسى من هذه الحقيقة وجريمة أفظع من هذه الجريمة؟

مالك صقور مترجماً

في كتاب "الأديب مالك صقور" لمجموعة من الباحثين بمناسبة تكريمه، يحتفي عدد من الكتاب السوريين به كمترجم، ومن بينهم جمانه طه، نجم الدين السمان، محمد الحاج صالح، صباح السوسو، محي الدين محمد، وشاهر أحمد نصر، ويتحدثون عن ترجماته للأدب الروسي العظيم والأدباء الروس العظام، من قبيل بوشكين الذي يصفه مكسيم غوركي بأنه "بداية البدايات في الأدب الروسي، وبيلينسكي وماياكوفسكي وغوركي وغوغول وغيرهم.

ففي مقاله حول ترجمات صقور، يقول الكاتب شاهر أحمد نصر إن من يريد التعرف إلى جوهر الإنسان- الكاتب، يجب أن يتعرف إلى مضمون كتاباته التي تعكس تجاربه وأسلوب تفكيره ومنهجيته في الحياه. وبالمثل، فإن الترجمة النابعة من الإرادة الذاتية، تعكس بهذا الشكل أو ذاك شخصية المترجم. وعليه يرى أن ترجمات مالك صقور، الأديب الشاب الفقير، "الذي لقي الصد والتجاهل والسخرية أحياناً، عكست قوة الإنسان والوطن والخير والجمال والروح الثورية في قلب ووجدان هذا الإنسان النبيل."

هل ينطق مالك صقور بلسان بوشكين وماياكوفسكي؟

لعل مَن يقرأ بحواسه بعض ترجمات مالك صقور للأدب الروسي ويتلمَّس الروح التي يبثها فيها، يدرك كيف أن الترجمة المستهدِفة والواعية و"النابعة من الإرادة الذاتية" العميقة، كما في حالة مالك صقور، تعكس بشكل ما شخصيته وروحه وفكره، ويتأكد من أن صقور يريد من الشاعر والكاتب والفنان أن يكون مثل بوشكين، كما رآه في دراسته المبهرة عنه "بوشكين والقرآن"، أي حامل رسالة وصاحب قضية، مهمته أن يكون "شاهداً ومبشراً، محرضاً ومنوّراً، معلماً وثائراً" على الظلم ومن أجل الحرية.

ففـي قصيدتـه "النبـي" التـي تعكـس تأثـره العميـق بالسـيرة النبويـة المحمديـة، يأتيـه الملاك المجنـح ليأمـره بإبـلاغ رسـالته "النبويـة" كأنما يقـول لـه: يـا أيهـا المدَّثـر، قـم فأنـذرْ..":

"وجاءني صوت الرب:
إنهضْ أيها النبي، وابصرْ لبَّ إرادتي
جُبْ البر والبحر
والهبْ بفعلك قلوب الناس.."

وتحـذف الرقابـة القيصريـة آخـر بيتـين مـن القصيـدة اللذْيـن يأمـره فيهـما وحـي اللـه بـأن يذهـب إلى عريـن المـلأ مـن قريـش أي إلى القيـصر مبـاشرةً:

"انتفضْ، انتفض يا نبي روسيا
اذهبْ إلى القيصر."

وفي قصيـدة "غيمـة في سروال"، التـي ترجمهـا مالـك صقـور، للشـاعر الثـوري المخـذول ماياكوفسـكي، شـاعر الثـورة الاشـتراكية العظمـى الـذي بـذل كل مـا في وسـعه وضحّـى بـكل شيء مـن أجلهـا وسـار في طليعتهـا وتنبَّـأ بحتميـة تفجُّرهـا وانتصارهـا في عـام 2016، وتأخَّـرت سـنة واحـدة:

"إني أسمع جلجلة عام *2016*
متوَّجاً بإكليل الثورة
وأنا معكم رائدها الأول
سأكون - حيث الألم أكون -
في كل مكان أكون
ومع كل دمعة
أصلب نفسي.."

ليجـد نفسـه محـاصراً ومحاربـاً مـن قبـل الانتهازيـين والبيروقراطيـين مـن "مجانـين طاحونـة الاجتماعـات" الفارغـة المتكسـبين الذيـن يخنقـون روح الإبـداع ويمنعـون التطـور والتقـدم وبنـاء الاشـتراكية، فهتـفَ في وجوههـم: "ليسـقط حبكـم، ليسـقط فنكـم، ليسـقط نظامكـم، ليسـقط دينكـم".

خاتمة:

كلمة المحتفى به مالك صقور: في حفل تكريمه

خلال قراءتي لما تيسَّر لي من مؤلفات مالك صقور لغايات كتابة هذا الجزء، بحثتُ فيها عن اقتباس أستعيره منها لمسك الختام، فوجدتُ مُرادي بين سطور كلمته التي ارتجلها في حفل تكريمه من قِبل جمعية القصة والرواية في اتحاد الكتاب العرب، والتي اقتدى فيها بشاعر روسيا العظيم بوشكين في أبيات كان قد ترجمها بنفسه وهو في الخامسة والعشرين من العمر:

"هنيئاً لمن كان شاباً في شبابه
هنيئاً لمن نضج في الوقت المناسب
هنيئاً لمن تزوج في الثلاثين
هنيئاً لمن تخلَّص من ديونه في الخمسين."

أبيات تُبيِّن أنه كان شاباً في شبابه، وأنه نضج في الوقت المناسب، وهي من المواصفات التي يستأهل صاحبها التهنئة عليها من وجهة نظر بوشكين؛ كما يتيمَّن فيها بالشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري في مقولته السهلة الممتنعة "أنا أستطيع بغيري" في جميع مراحل حياته، من المرحلة الابتدائية في مدارس سوريا إلى الدراسات العليا في الجامعات السوفييتية؛ ولا يفوته العرفان بالجميل لكل من قدَّم له أدنى شكل من أشكال التعاطف والتقدير. ولكنه بلغ الستين من العمر ولم يتخلص من ديونه بعد.

ويعرِّف مالك صقور بنفسه بأنه كاتب من جيل ما بعد النكبة التي ولدت نكبات ونكسات، ومن جيل الأحلام الكبيرة والانكسارات الكبيرة، أحلام الثورة والتحرر والوحدة العربية والحرية والاشتراكية. ويتأمل في ما آلَ إليه ذلك الجيل من انكسارات وما آلت إليه تلك الأحلام والآمال من خيبات. وقد أدرك استحالة الجمع بين المبادئ والسياسة، بين القيم العليا وفن الممكن، وأنه لا يوجد أدب بلا سياسة، ولكن ثمة سياسة بلا أدب وبلا أخلاق.

ويفخر صقور بأنه ينتسب إلى سلالة أبي ذر الغفاري المنقرضة، ويؤمن مع أنطون سعادة بأن الحياة وقفة عز، وهو عنوان يُقرأ منه موضوعه. وفي الحديث عن نفسه يتميز بالتواضع الجم كشخص وككاتب، لكنه تواضع الكبار، فيقول إنه لا يزال كاتباً هاوياً، مع أنه في الحقيقة كاتب كبير ومثقف عضوي موسوعي. وتبلغ شجاعته حد القول إنه يعرف سلبياته ومثالبه وعلى أية درجة في سلم الإبداع وبين القامات الكبيرة يقف، ونحن نعرف أنه يقف على الدرجات العليا في سلم الإبداع وبين القامات الكبيرة وسط الكتاب العرب السوريين.

وأخيراً، يحرص مالكك صقور على إهداء ذلك التكريم "إلى القراء الأعزاء الذين وصلتُ إليهم، وما زالوا يحلمون برغيف خبز طازج نظيف وعيش كريم وسماء زرقاء خالية من التلوث".

الأوديسة السورية - ٤ -

ليندا إبراهيم:
من حضرة الرسولة إلى سيدة الضوء

يتناول هـذا الجـزء اثنـين مـن دواويـن الشـاعرة لينـدا إبراهيـم تفضَّلـت الشـاعرة بتوفيرهـما لي:

- لسـيدة الضـوء، دار الينابيـع للطباعـة والنـشر والتوزيـع، دمشـق، الطبعـة الأولى: 2018
- لحضرة الرسولة، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2016.

توضيح

لست ناقـداً أدبيـاً، ولسـت هنـا بصـدد ذلـك حتـى لـو كنتُـه، إذ أن اهتـمام البحـث منصـبٌّ عـلى مضمـون الأعـمال التـي يتناولهـا الكتـاب، وليـس عـلى الجوانـب الفنيـة للنصـوص الأدبيـة: أي عـلى الأدب الـذي أنتجـه كتاب سـوريون داخل سـوريا وإسـهامه في المعركـة الثقافيـة ضـد العـدوان الـدولي الهمجـي عـلى سـوريا منـذ إشـعال الثـورة المضـادة حتـى الآن.

وأود أن أوضـح أن "مـشروع الأوديسـة السـورية" هـذا لا يُعنـى بمعالجـة النصـوص مـن الناحيـة الفنيـة، فلذلـك مـكان آخـر وأوان آخـر كـما يقـول الشـاعر غسـان مطـر في مقدمـة ديوانـه "لمجـدك هـذا القليـل" [8]، الـذي كتـب قصائـده خـلال أيـام الحـرب العدوانيـة الثلاثـة والثلاثـين التـي شـنتها إسرائيـل عـلى لبنـان في تمـوز 2006، يومـاً بيـوم:

"هـذه اليوميـات لا أحاكمهـا فنيـاً اليـوم. إن لذلـك أوانـاً آخـر. اليـوم أحملهـا كـما هـي، كـما وقعـت مـن قلبـي وأنشرهـا دون تـردد. وفي هـذه اليوميـات لا تهمُّنـي كل النظريـات حـول القصيـدة، يهمنـي الصـدق الـذي تحملـه الكلـمات، يهمنـي كيـف انهمـرت هـذه الكلـمات بعشـوائية كـما انهمـرت علينـا القذائـف. يهمنـي أنني كتبـت في وقـت كان مطلوبـاً مـن الأقـلام أن تنكـسر وتخـرس..."

ولكننـي مـع ذلـك أرى أن مـن المفيـد الإشـارة بإيجـاز إلى بعـض الجوانـب الفنيـة للنصـوص الشـعرية المشـمولة بهـذا البحـث للشـاعرة لينـدا إبراهيـم لارتباطهـا بتوضيـح المضامـين:

---

8 غسان مطر، لمجدك هذا القليل، دار الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2006

تتميـز قصائـد لينـدا إبراهيـم بأنهـا تعـجُّ بمـا أُسـمِّيه "المفـردات المعـاني" وليـس معـاني المفـردات، أي أن المفـردة بحـد ذاتهـا معنـى. وتحتـل مفـردات شـعرية معينـة مسـاحة القصيـدة عـلى نحـو متكـرر: فكلمـة "الـروح" مثـلاً تسـكن في كل قصيـدة وتـكاد تـتردد في كل سـطر، فهـل هنـاك مفـردات شـعرية وأخـرى غـير شـعرية؟ أم أن الشـاعر هـو الـذي يجعـل مـن المفـردات العاديـة مفـردات شـعرية؟ أعتقـد أن الشـاعرة لينـدا إبراهيـم تفعـل ذلـك.

وتسـتخدم الشـاعرة لغـة شـعرية رفيعـة المسـتوى وصـوراً شـعرية محلِّقـة تُضفـي عليهـا علامـات التشـكيل المتعمَّـد جـمالاً عـلى جـمال. كـما أن اسـتخدام الشـاعرة علامـات التشـكيل بهـذا الحـرص يكتـسي أهميـة قصـوى لفهـم القصائـد والمعـاني وتراكيـب الجمـل والمقاطـع والموسـيقى الشـعرية، ناهيـك عـن الإلقـاء والقـراءة، بـل لـولاه لفـاتَ قرّاءَهـا الكثـير. وتتمتـع الشـاعرة بالقـدرة عـلى "الهندسـة المعماريـة للقصيـدة" بـدون الوقـوع في وهـدة التصنُّـع أو التعسُّـف الشـعري، في بنـاء فنـي راقٍ وبسـيط.

وهـي تعلـن أن "خيارهـا في العـالم والوجـود هـو الشـعر"، والشـعر لا يزدهـر إلا في النـور كـما يقـول مقـدم ديوانهـا الدكتـور راتـب سـكر، والنـور يـضيء الـروح. خيارهـا إذن هـو ثالـوث الشـعر والنـور والـروح. والـروح هـي الوعـاء والغطـاء والمـلاذ الآمـن الـذي تلـوذ بـه عندمـا تضيـق الدنيـا في وجههـا وتدلهـمُّ الخطـوب.

مـن زاويـة أخـرى، تسـتلهم الشـاعرة النصـوص المقدسـة وتنهـل مـن ثلاثـة ينابيـع، أو تسـتند إلى ثـلاث تجارب/قصـص نبويـة: نبيّـان ومتنبـي، أو إلى إلـه ونبـي ومتنبـي: المسـيح ويوسـف وأبـو الطيـب.

ديوان "لسيدة الضوء": باقة قصائد للوطن

في هـذه الباقـة 1-10، تتحـدث الشـاعرة عـن وطنهـا سـوريا كجـرح عميـق مفتـوح ونشـيد لا يمـوت وموطـن للأطفـال والأحـلام والعيـش الشـظيف الـذي صـار دمـه هويـة، وعـن جنـود الجيـش العـربي السـوري، الذيـن يذهبـون إلى حتفهـم بأرجلهـم مـن أجـل أن تبقـى سـوريا. هـؤلاء البواسـل، ومعهـم سـائر الجنـود المجهولـين مـن البسـطاء والشـهداء والفقـراء، هـم الذيـن حمـوا الوطـن، وهـم الذيـن تفديهـم الشـاعرة بروحهـا:

وطني ...
يا أيُّها الجُرْحُ الفَسيحْ...
أينَ أمضي في لياليكَ الشَّجِيَّهْ..
وبقلبي أغنياتُ الرِّيحْ ؟..
أينَ أُخفِي صَرخَةَ الرُّوحِ الذَّبيحْ..؟
دمُكَ الآنَ الهُويَّهْ
دمُنا الآنَ الهويَّهْ ..
وطني، يا موطنَ الأطفالِ والأحلامِ والعَيشِ الشَّظيفْ
وطني أنتَ نشيدٌ لا يَمُوتْ...
سلام على الذائقين الحتوف..
سَلامٌ على القاهِرينَ المَنُونْ..
سلامٌ على الهازمين السواد
لتبقى بلادي بياضاً من الياسمين
سلامٌ لأرواحهم أجمعين...
بروحي أيها البسطاء..
بروحي أيها الفقراء..
برُوحِي أيها الشهداء ..
مَنْ رَحلُوا بلا قبرٍ، بلا اِسمٍ، بلا عنوانْ ..
أفدِيكُمْ..

بيـد أن الشـاعرة واثقـة مـن أن المعركـة الفاصلـة في الحـرب بـين عـالم النـور وعـالم الظـلام سـوف تنتهـي بانتصار "الملكـوت عـلى الظلمـوت"، وسـترى سـوريا ناهضـة مـن

تحـت الرمـاد وأبناءهـا الطيبـين صاعديـن إلى العُـلى:
سيأتي زمانٌ أرى وطني ناهضاً من رمَادْ..
وأبناءَهُ الطَّيِّبِينْ..
صاعدينَ إلى المَلَكُوتْ..
بعدَ أنْ هَزَمُوا الظَّلَمُوتْ..

وقـد اسـتخدمت الشـاعرة هنـا كلمـة "ظلمـوت" مقابـل "ملكـوت" أو نقيضـا لهـا، مثلـما اسـتخدمها بـدر شـاكر السـياب في قصيدتـه "نبـوءة ورؤيـا":
"وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظلموتِ أحلامي..
..أن للدنيا نهاية سلّمٍ يفضي إلى أبدٍ من الملكوت."
وربما أرادت بها التعبير عن شدة حلكة الظلام.

وتُجسّـد قصيدتهـا المعنونـة بــ "قصيـدة إلى شـفيق جـبري"، بلِغـة مبـاشرة، لكـن جميلـة ومؤثـرة ومحرِّضـة ، دور الأدب والفـن في مقاومـة الاحتـلال والعـدوان وقـوى الإرهـاب الظلامـي؛ فتتوجَّـه إلى الشـعراء وجهـاً لوجـه وتحثهـم عـلى المقاومـة بالشـعر والأغـاني وإشـعال الأفـق بنـيران القصائـد، وتحضُّهـم عـلى عـدم المسـاومة مـن أجـل أن تصبـح الغاليـة سـوريا مَراحـاً لليـمام لا مسرحـاً للحـروب وسـاحات للوغـى:
أطفأوا الشَّمسَ وغابُوا، ثمَّ ظَنُّوا أننا نرضى الظَّلامْ!!..
أيُّها الشَّاعرُ كم يغدُو جميلاً وطنٌ نرفعُهُ للشَّمسِ حتَّى نُشعِلَ الأفقَ قَصائدْ.
لن نُسَاومْ..
سوفَ نحيا بالأغاني.. ونقاومْ..
سوفَ نحيا لسَلامِ الأرضِ فينا ..
ليكونَ الوطنُ الأغلى مراحاً لليَمَامْ..

إن هـذه القصيـدة القصـيرة تعانـق أشـعار المقاومـة الفلسـطينية المؤسِسـة الشـهيرة، وكأنَّي بشـاعر المقاومـة الفلسـطينية سـميح القاسـم يُنشـد:
"يا عدو الشمس، لكن لن أُساوم
وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم."

وفي قصيـدة "نشـيد الفقـراء"، التـي لهـا مـن اسـمها كل نصيـب، تعلـن الشـاعرة انحيازهـا التـام إلى الفقـراء والبائسـين والجائعـين، إلى العُفـاة الحفـاة العـراة المتعبـين، وإلى أهـل الكفـاف ومسـاكين الـروح، ويـا لَهـؤلاء وأولئـك مـن مسـتحقين لهـذا الانحيـاز المـشرِّف والعـادل:

وُلِدْنَا مِنَ القَمحِ ..

آنَ اشْتِيَاقِ الحقُولِ نَدَى الخِصبِ

مِنْ أَلَمِ البائسِينْ ..

عُفَاةً .. حُفاةً ..عُرَاة ..

بِنَا تَوقُ ليلٍ إلى الشمسِ.. بحرٍ إلى المِلحِ ..

شوقُ التُّرابِ إلى جَسَدِ المُتعَبِين ..

نحنُ أهلُ الكَفافِ ..

"المَسَاكِينُ بالرُّوح"..

حُرَّاسُ مَمْلَكَةِ الجائِعِينْ ..

أَتَينَا إليكَ أيَا سيِّدَ الفقراء..

"يوميات سوري"

في الأحـداث الكـبرى، كالحـروب العدوانيـة والمقاومـة الشـعبية لهـا، يزدهـر شـكل اليوميـات في الأدب، ربمـا لأن الأحـداث تكـون مسـتمرة ومتلاحقـة وسريعـة وليـس لـدى الكاتـب الوقـت والظـرف الملائمـين للتمعـن فيهـا والتفكـير بهـا بهـدوء وبـرودة عقـل في ظـل عمليـات التدمـير والقتـل والجـوع والخـوف وانقطـاع الخدمـات الأساسـية المختلفـة، وبالتـالي يحـرص الكاتـب عـلى التقـاط اللحظـة وعـدم تفويـت التفاصيـل اليوميـة وادّخارهـا لنفسـه ولغـيره مـن الكتـاب للتعبـير عنهـا في المسـتقبل. ومـن المعـروف أن الأدب العالمـي والعـربي مـليء بمثـل هـذا الشـكل الأدبي: فأثنـاء العـدوان الإسرائيـلي عـلى لبنـان في تمـوز 2006 نحـا عـدد مـن الشـعراء والكتـاب اللبنانيـين هـذا المنحـى، بـل إن الشـاعر غسـان مطـر كتـب ديوانـاً كامـلاً ضـمّ خمسـاً وعشريـن قصيـدة، وصَفـه بأنـه قصيـدة واحـدة أسـماها "يوميـات غاضبـة". وأثنـاء مـا سُـمي بالحـرب الأهليـة الإسـبانية، توجَّـه العديـد مـن كبـار الكتـاب التقدميـين الغربيـين إلى إسـبانيا للقتـال إلى جانـب الجمهوريـة الإسـبانية ضـد الفاشـية بزعامـة الجـنرال فرانكـو. وقـد ذكـرتُ في مدخـل هـذا الكتـاب أن المـؤرخ البريطـاني دافيـد بويد

هيكوك قدَّم في كتابه " أنا إسبانيا: الحرب الأهلية الإسبانية والرجال والنساء الذين ذهبوا لقتال الفاشية"، صورة عن التأثير الكبير لتلك الحرب على حياة أولئك الكتاب وأفكارهم وحتى على كتاباتهم في خضم المعارك، وكيف كانوا يقاتلون من جامعة مدريد، وقد اتَّخذوا متراساً لهم في مكتبة كلية الفلسفة والأدب.

هذا بالطبع مع اختلاف طبيعة اليوميات: هناك، في بيروت ومدريد، تسجيل أحداث ومواقف، وهنا، في دمشق، تدوين خواطر وأحاسيس وذكريات.

ففي اليوميات (1-8) تخيِّم على الإنسان السوري مشاعر الحزن والتشاؤم والإحباط وحتى الاشتياق إلى الموت وتَمنِّيه، إذ ينوء ظهره تحت ثقل "صخرة سيزيف" صعودا وهبوطاً وعبثاً إلى ما لا نهاية:
وكيفَ .. وصخرةُ "سيزيفَ" تُرهِقُني وَأُشَذِّبُ قَسْوتَهَا بطُمُوحِي الغَبيِّ، لتتركني جثةً من تعبْ..؟
أيا قبرُ هذا حنيني إليك ...
و هأنذي حفنةٌ من ترابٍ
أعودُ إليكَ رويداً..رويدا..!!

في هذه اليوميات يسجل السوري ذكريات طفولته الجميلة المشتركة مع أقرانه الأطفال الفلسطينيين الفقراء في مخيم اليرموك للاجئين، تلك الذكريات التي مُحيتْ وحلَّ محلها أزيز الرصاص الأعمى الذي يتساقط كالمطر في "أرض الديار" بينما يُعزَف لحن الشهيد الأخير:
"خالدٌ" يا أخي .. يا ابنَ حَيِّي الفقير..
كَمْ مِنَ الوقتِ مَرَّ على ذكرياتِ طفولتِنَا في "المُخَيَّمِ"...
ألعابُنَا في ظلالِ العريشِ ..
و أمُّكَ تنشدُ لحنَ الحياة الأثيرْ ..
كلُّ شيءٍ مضَى يا صَديقِي...
وها نحنُ نُحصِي الرَّصَاصَ الضَّريرَ بأرضِ الدِّيار
على وقعِ لحنِ الشَّهيدِ الأخير..!

ويلهـج السـوري باسـم وطنـه، وطـن الفقـراء والشـهداء والبطـولات والهزائـم، الـذي سـيعود حزينـاً، لكـن جميـلاً:
أي وطني.. وطنَ الفقراءْ..
وطن الصاعدين إلى موتهم باسمينْ..
ها أنت ذا بعد كل البطولاتِ، كل الهزائم والياسمينْ..
تعود إلينا حزيناً فقيراً.. ولكن جميلاً...

والمدينـة يلفُّهـا الحـزن المطبـق، فتسـتنجد بالقـبرات، ووجـوه الأغـراب تهبـط عـلى أرض سـوريا مـنْ كل أرجـاء العـالم، والأشـباح السـوداء تطـوف فـوق المـآذنِ، واللصوص والقناصـة يتربصـون بأحـلام العابريـن:
الوجوهُ الغريبةُ منْ كلِّ صوبٍ.. وأشباحُ سوداءُ حولَ
المآذنِ..حُرَّاسُ وقتِ اللصوصِ، وقنَّاصُ حُلْمِ
العصافير..أُمٌّ بلونِ الحِدَادْ...
بائعُ الخوفِ في كل زاويةٍ للحَيَاة..
والمدينةُ صامتةٌ كالطُّغَاة..
بعد أن ماتَتِ "القُبَّرَات"...

لكـن الشـاعرة لا تستسـلم لهـذا البـلاء، بـل تسـتصرخ وطنهـا، واثقـةً بقدراتـه وبـزوغ فجـره مـن ظـلام الحـزن، وتسـتشرف مسـتقبله الواعـد بالنـصر، حيـث يبقى الياسـمين شـاهداً أبديـاً عـلى الشـهداء الخالديـن الذيـن صنعـوا ذلـك النـصر:
هذا صباحُكَ يا بلادَ الشَّمسِ..
هيَّا .. فانتفضْ من قبركَ العاري..
وهيِّئنا لفجرٍ طالعٍ من قلبِ حزنكَ ..
يااااا وطنْ..
وحدَهُ الياسَمينْ ..
شاهدٌ أبديٌّ الحَنينْ ..
على من قَضَوا شُهَداءْ..
وبأرواحنا خَالِدِينْ ...

قصائد للشهداء.. وشاعرة للشهداء

في مساحة ما من هذا الديوان يحسُّ القارئ بأن ليندا ابراهيم شاعرة الشهداء، فهل باتَ للشهداء شعراء متخصصون؟ ما أجمل التكريم وما أحقَّ المكرَّمين إذن! فجنود الجيش العربي السوري وغيرهم ممن يبذلون أرواحهم ذوداً عن وطنهم ولحماية أرواح غيرهم يستحقون ذلك وأكثر.

في هذه القصائد تُهدي الشاعرة باقة أخرى جميلة، حزينة، لكن مَهيبة وشامخة من ورود قصائدها التي لا تذبل، للشهداء وعن الشهداء، مكرَّسةً لتكريمهم وتبجيلهم. وفيها تحسُّ أطياف أرواحهم وهي تطوف فوق الحقول وتهطل أمطارَ خير وحياة، فيبزغ الفجر من قلب ظلام الحزن وتنهض العنقاء من تحت الرماد:

يطُوفونَ فوقَ الحقولِ، يهيمُونَ فوقَ قفيرٍ منَ الأمنياتِ
لعلَّ سماءً ستهطلُ حاملةً خيرَ أرواحِهِمْ فوقَ أشلائنا الفانيات..
سلامٌ عليهِمْ أضَامِيمَ منْ نُورْ.. سلامٌ على قُدسِ أرواحِهِمْ ..
سلامٌ عليهم .. وألفُ سلامْ.

ولعلَّ الشاعرة تودُّ أن تحتفظ بسجل شعري لهم، فتذكر بعضهم بالاسم: علي شاهين وغسان سليمان وثائر العجلاني.. وغيرهم، فتكتب في سجلها، مثلاً، وصية الشهيد العميد علي شاهين بلسانه:

يا رفاقي
ادفنُوني..
فِيءَ ليمُونةِ أرضِ الدَّارِ
واكتُبُوا: هذَا شهِيدُ اللهِ والرُّوحِ ، توَارَى
وَالدَّمُ المهرُوقُ ملءَ الأرضِ يبكِي وَيُنادي:
تابعُوا بعدِيَ دربي يا رفَاقي.

وفي مرثية الشهيد غسان سليمان، بل في عرسه، وعلى الرغم من الكارثة التي حلَّت بسوريا، تعلن الشاعرة عن ضرورة القيام بالتحضيرات التي تليق بزفَّة العريس إلى ثرى أرضه:

الغيمُ أقفَرَ لمَّا غادرَ المطرا..

والنَّجمُ أوحشَ لما فارقَ القمرا..
دُقُّوا الدُّفوفَ ثوى في الأرضِ عاشقُها..
كيما يُقَبِّلَ مجداً طاهراً، و ثرى..
كلُّ الذينَ لِمَجْدِ التُّربِ قد نُذِروا
تساقَطُوا شُهُباً أو أُوقِدوا شَرَرا..
خَطُّوا الخُلود بسفرِ الحُبِّ مُذ وُجِدوا
وطَاولوا القِمَمَ الأسمَى وأيَّ ذُرا...
هُمُ الميامينُ في شامِ العُلا أبداً..
هُمُ الدَّراويشُ في أرضي..
هُمُ الفُقَرا...

لقد جاءت كلماتها هذه مشابهة لكلمات للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان في مرثيته، بل زفَّته الشهيرة "الثلاثاء الحمراء" لأبطال ثورة البراق الثلاثة، محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير، الذين علَّقهم الانتداب البريطاني على فلسطين على أعواد المشانق في عام 1930:
"ناح الأذانُ وأعولَ الناقوسُ
فالليلُ أكدرُ، والنهارُ عَبوس".
وكان الشهداء الثلاثة يرددون في سجنهم قُبيل الإعدام النشيد الواسع الانتشار الذي كتبه المناضل السوري الصحفي نجيب الريس، ومطلعه:
"يا ظلام السجن خيِّمْ
إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا
فجر مجد يتسامى."

ومن "شهيد الياسمين" ثائر العجلاني تنقل الشاعرة رسالة إلى والده ووالدته، يقول فيها لوالده إن زمن الموت لا ينتهي، وإن الذين نذروا أنفسهم لسوريا خائفون عليها لأنها تحتضن القنبلة وهم ذاهبون لتفكيكها قبل أن تدمر البلاد:
زمنُ الموتِ لا ينتهي يا أبي...
ونحنُ الذينَ نُذِرْنا لهذي البلادْ..

و هيَ الآنَ خائفةٌ تحضُنُ القنبُلَهْ ...
سأمضي إليها، إلى قدَري، فوق خيطِ الحنينِ أُفكِّكُ شِرعَتَها القاتِلَهْ...

ويطلب من والدته أن تحتضنه كي يفضي إليها بسرّه الدفين وبأن العلَم السوري هو الوحيد الذي يخفق فوق القمم إيذاناً بالنصر الذي ستحققه دماء الشهداء:
احضنينيَ أمِّي...
سأنقُلُ شوقَ الشَّهيدِ إليكِ، وأُفضي بسرِّي الدَّفينْ ...
قبِّليني ولا تدمَعي... ففي خافقي كلُّ أفئدة العاشقينْ..
غمامٌ من الدَّمعِ يحجُبُني عن يمامِكِ يا شامُ ،
أشعرُ أنِّيَ لستُ وحيداً..
و أنَّ دمشقَ تعانقُني مِئْذَنَةً... مِئْذَنَهْ...
و ليس هنالكَ ما يخفقُ الآنَ فوقَ القِمَمْ
غيرُ هذا العلمْ..غيرُ هذا العلمْ.

قصيدة الديوان: "لسيدة الضوء"

في هذه القصيدة التي استعار منها هذا الديوان اسمه، تنتشل الشاعرة معظم صورها الشعرية من ينبوعيْ الدين والأسطورة كي تُثبت أن سيدة الضوء تستحق هذا اللقب بجدارة. فمَن هي سيدة الضوء؟ هي سيدة الخصب في أرض كنعان، وأم المسيح الناصري، وصاحبة الكتاب المقدس الذي نتلو آياته. وهي من ملكات الزمان التي جثا عند قدميها ألف غازٍ، وركعتْ لها القمم الشامخات، وعشاقها الأنبياء والدراويش:
هيَ في خاطرِ الله أكملُ مِن خلقِهَا ..
وأجملُ من برقِهَــا في ضميرِ الغَمَامْ..
هيَ كلُّ الجميلاتِ في الأرضِ، كلُّ الأميراتِ فوقَ العُرُوشِ
وأختُ الورودِ و أصلُ الخُزام..
إنها سوريا العظيمة.

وفي ختام القصيدة، تُطلق الشاعرة بكائية لسيدة الضوء سوريا بعد مرور سبع سنوات عجاف، مستلهمةً قصة يوسف وحُلم العزيز في النص المقدس :

تقول الرِّياحُ..
مضَى العامُ...سبعةُ أعوام ..سبعٌ شدادٌ...
ذوَتْ بسمَةُ الوردِ في مَهدِهَا ..
بكى الياسَمينُ.. بَكَى شَجَرُ القَـلبِ.. كلُّ طُيُورِ المَدائنِ ..
كلُّ الفراشَاتِ والقبَّرات ...
الآنَ أشهدُ ملءَ رُوحِي أنَّكِ الأرضُ التي شَرُفَتْ على
كُلِّ المدائنِ.. و القصَائدِ.. وَ الكَلامْ ...
يا أنتِ... يا أرضَ الشَّآمْ ..

سوريا تتحدث عن نفسها

في قصيدتها "أنا سوريا"، تستنطق الشاعرة سوريا التي تتحدث عن نفسها:
أنـا مَـن لـو انَّ اللـهَ مـا خلـقَ السَّـماواتِ العُـلا.. والعـرشَ.. والمـلأ العـليَّ لَـكَانَ في مَهْدِي..سَـوِيَّا
ثم استراحَ وقال للزَّمنِ اتَّئِدْ..
فلقد جعلتُ الكوثَر الأشهَى رحيقَ عيونها.. بَرَدَى النَّديَّا.

سـوريا المعمَّـدة بالـدم الـزكي الخالـد، سـوريا قلـب الإلـه وسِرُّه المكنـون، تعلـن عـن نفسـها وتقطـع لأبنائهـا عهـداً بإحـراز النـصر، وتطلـب منهـم أن يتهيـأوا لـه، مستلهمةً، مـرة تلـو أخـرى، قصـة يوسـف وإخوتـه الذيـن خانـوه وباعـوه وألقـوا بـه في غيابـة الجـب:
سبعٌ عجافٌ..
إخوتي باعُوا قميصِي للطُّغاةِ الغَادرينَ.. ووزَّعُوا
حُزني
على كُلِّ البِلادِ..و قطَّعُوا سُبُلي إليَّا..
سبعٌ عجافٌ...
والدَّمُ الزَّاكِي يُعَمِّدُني خُلُوداً سَرمَديَّا..
أنا سُوريا.. قلبُ الإلهِ.. وسِرُّهُ المكنُونُ فيَّا..
أنا سُوريا.. فَتهيَّؤُوا للنَّصر..
عهداً لأبنائي عَلَيَّا..
عهداً لأبنائي عَلَيَّا.

من أسفار العهد الغابر

بعد "توضيب مزهرية" من قصائد الحب المعطَّرة "حتى القوارير" على حد تعبيرها الذي يتكرر في ديوانها هذا، تُقدِّم الشاعرة ليندا إبراهيم حُزمة من "أسفار العهد الغابر": رؤيا يسوع النَّاصري، مريم المجدلية، في غيابة جب، أيا صاحبيْ روحي، أيُّ ذئب أنا، وعودة يوسف. وهي قصائد مشبعة بالرموز والأقانيم والقصص الدينية والأسطورية- لا أقول التاريخية- والشخصيات المستمدة من النصوص المقدسة، يسوع المسيح والمجدلية ويهوذا ويوسف ويعقوب والعزيز وزليخة، والتي تستلهمها الشاعرة و"توظّفها" بكثافة لتوصيل رسائلها السورية الراهنة المتمثلة في تَعرُّض وطنها سوريا وشعبها للخيانة والغدر والتآمر والتدمير والقتل، وإنكارهما قبل صياح الديك وبيعهما للأعداء بثلاثين من الفضة من قِبل الأخوة الأبناء في هذه الحرب الدولية الهمجية التي تُشن على بلادها.

غير أن الشاعرة تقدم هنا مقاربة مختلفة لقصة يوسف النبي. فيوسف السوري الذي أُلقي به في غيابة الجب، ليس يوسف المستكين الذي يسلم رقبته للذبح، بل يوسف الغاضب، المستنكر، الذي نفذَ صبره والذي يتوعد مَن غدروا به وباعوه بأوخم العواقب، واثقاً من براءته ومستنداً إلى حركة التاريخ، أو مكر التاريخ، حيث على الباغي تدور الدوائر:

في غيابَة جُبٍّ أنا..
و ما من نبيٍّ يُؤَوِّلُ رؤيايَ.. مَا مِن "إلهٍ" رحيم..
أَ أُصلبُ داخلَ "جُبِّي" و يُسلَبُ منِّي قميصي..
و تُهْدَى إليَّ الطُعون..؟
سأختُمُ آياتِ صبري..
و أُهدي نشيديَ هذا، لأوَّلِ قافلةٍ منْ جَحِيمْ..
هذا "قميصيَ" قد قُدَّ مِنْ غدرِكُمْ ..
وسيأتي زمانٌ به تستفيقُ سرائرُكم والضَّمائرْ..
فلا بدَّ من أن تدُورَ الدَّوائرْ.

بين يوسف السوري ويوسف الفلسطيني

في قصيدة "عودة يوسف" نرى يوسف المتشائم والمكروب الذي هدَّه حلم النبوَّة، وليس الرؤيا التي أفضى بها لأبيه يعقوب في النص المقدس:

"إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين."

فلم تعدْ الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر التي تسجد له هي التي تؤرِّقه، وإنما وجه أبيه الكاظم الغيظ وغدر إخوته به وخيانتهم له:

لا الشَّمْسُ..

لا القمرُ الوَضِيءُ..

وَ لا الكَواكبُ سَاجداتٌ عندَ عرشِي..

بلْ وَجْهُ "يعقوبَ الكظيم"..وإخوةٌ ضَلُّوا صِراطَ الرُّوحِ إذْ "خَلَصُوا نَجِيًّا.."

ما كانَ رُؤيا ما رأيتُ..و لكنِ السِّرَّ العليًّا...!

حلُمُ النُّبُوَّة هدَّني ..

وسنون حزنِ "أبي" تولولُ في دمي ..

وجَواهُ يهتفُ وَابُنيًّا...

لقد وظَّفت الشاعرة النص المقدس في قصيدتها "عودة يوسف" مثلما وظَّفه محمود درويش في قصيدته "أنا يوسفٌ يا أبي". هنا يوسف السوري الذي يرمز إلى سوريا، والذي غدر به إخوته العرب وخانوه واعتدوا عليه وأسلموه للقوافل الهمجية العابرة للجنسيات ومشغِّليها، وهناك يوسف الفلسطيني الذي يرمز إلى فلسطين، والذي تخلَّى عنه العرب وتآمروا عليه مع الأعداء؛ الضحية واحدة، سوريا وفلسطين، والمجرم واحد: الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، والقضية واحدة، قضية عدوان واحتلال وتدمير وتشريد ومقاومة عند ليندا إبراهيم ومحمود درويش:

"أنا يوسف يا أبي.

يا أبي إخوتي لا يحبونني،

لا يريدونني بينهم يا أبي.

فماذا فعلت أنا يا أبي، ولماذا أنا؟

أبتِ! هل جنيتُ على أحد عندما قلت إني:
رأَيتُ أَحد عشر كوكباً والشمس والقمر ،رأيتهم لي ساجدين؟"

نهاية الرحلة: حنين وعودة وغفران

يوسف في قصيدة ليندا إبراهيم يهزُّه الحنين إلى أهله، وتناديه الديار، فيتخلى عن حلم النبوَّة ويقرر العودة إليهم والغفران لهم. ومحطات رحلتة الطويلة، المريرة منها والرغيدة: محطة الرؤيا والنبوءة، محطة الغدر والخيانة والبيع والسجن، ومحطة الحب والنفوذ والحكم، التي سيعود منها، ليس إلى دياره فحسب بل إلى نفسه بعد اغترابه عنها:

أنا عائدٌ يا "إخوتي"..
دقُّوا لأجلي كلَّ أجراسِ الحنينِ.. وهيِّئوا كلَّ التكايا .. والبخورَ.. خزائنَ القمحِ النَّضير..
و نِسوةً قطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ من ولهٍ عَلَيَّا..!!
سَأقولُ يا حُلُمي وداعاً..
أنا يوسُفُ..الجبُّ ..العزيزُ..
أنا عائدٌ ملءَ الحنينِ .. وغافرٌ..
فتهيَّؤوا .. قد عدتُ من سفري إليَّا..

بيد أن هذا "اليوسف" في هذه المحطة هو يوسف اليهودي، يوسف السرديات المقدسة المنحازة إلى القبيلة اليهودية البدوية المتوحشّة وأنبيائها ضد المصريين الفراعنة المتحضرين، وليس يوسف السوري، فالأخير لا يتخلى عن حلمه أو رؤياه أو نبوءته في تحرير وطنه ودحر أعدائه، بل يجب أن يفارقه في المحطة الأخيرة للرحلة، "فالأخوة" العرب الذين خانوه وتآمروا عليه هم الذين يجب أن يعودوا إليه، وهو االذي يقرر ما إذا كان سيغفر لهم خيانتهم أم لا، وليس العكس.

لحضرة الرسولة

ما المعنى الذي تريده الشاعرة لكلمة "حضرة"؟ هل هو لقب الاحترام المعروف؟ أم الحضور المكاني الرفيع؟ أم الحضرة الصوفية؟ ومن هي هذه الرسولة التي ستغادر عالم الظلام والعفن والحب الكاذب إلى عالم النور والعطر وأنهار الخمر والعسل والحور العين اللائي يرتلن في الجنان:

"نحن المقيمات لا نظعن أبداً..

نحن الظاعنات لا نرحل أبداً..

طوبى لمن كنا له...وكان لنا."

مَن هي الرسولة؟ وماذا تفعل؟ هل هي المحبوبة؟ أم أن الشاعرة تراها مجسَّدة فيها؟ فالرسولة:

تُصلّي لإله الضياء أن يضوّئ عتمة روحها..

الرسولة تصلي لراحة روحها..!

استلهام المقدَّس والأسطوري

مرة ثانية وثالثة ودائماً، تلجأ ليندا إبراهيم إلى ملاذها الأثير، النصوص المقدسة والأسطورة والحب الإلهي الصوفي. وهي هنا تستلهم قصة يوسف إياها، ومحنة الحلاج وقصة عشتروت، إلهة الخصب والحب والحرب. فمَن هي عشتروت في قصيدة "صلاة من أجل عشتروت"؟ إنها سوريا، أُمُّ المتعبين، التي أحرق الأعداء الأخضر واليابس فيها، فضاقت أرضها بأبنائها، والتي تبتهل إليها الشاعرة ألا تُجدب:

لاااا تُجدبي

رحْمك خصبٌ، وأنت ولاَّدة الفصول..

لااا تعقُمي، فيموت رشيم الحياة في قلبِ

الحنطة..

منذ أن حاصروكِ..

أحرقوا يابسكِ الناضج..

أتلفوا أخضرك اليانع..

والأرض تضيق ببنيكِ يا أُم المتعبين.

دمشق سويداء قلب الكون..

في قصيدة "من أنت!!؟" تحار الشاعرة بدمشق، وترى فيها مدينة المتناقضات، فتتساءل عن ماهيتها، بل تسألها عن نفسها بشكل مباشر: "مَن أنتِ؟":

مَن
أنت؟
يا فقيرة البلدان.. وغنية الزمان.. يا جوهرةً مِن
عتقٍ.. وعشقٍ.. وأبدْ..!!
مَن أنت؟
ما كان لبلدٍ من قبلُ كمجدكِ.. ولا لفاتحٍ أو
مُغيرٍ من شرفٍ إلا بالمرور بك.. ما كان
لأرضٍ أن تنجب ما أنجبتِ.. أنجبتِ الانسان
الذي ظلم أخاه وقتل روحه.. فقام قتيل الروح
ليقتل قاتله..

.. ومدينة المتناقضات:

يا سيدة الفقراءِ والأغنياء.. الأسيادِ والعبيد ..
الأمراء والرعية.. الملائكة والشياطين..
الحب والحرب .. الشك واليقين .. الأمان
والخوف.. الشعراء الهائمين والفلاسفة
والمجاذيب.. الأتقياء وأولياء الله الصالحين.. يا
مدينة الله .. والعبد.. والشيطان..
لكأنما صاغكِ صانعٌ ماهرٌ مِن تبرٍ وتراب.. ِن
تُقىً وإغواء!!
أو كأنك مِن جِبلَّة ملكوتٍ آخر..
معجونة بالحب والكره.. بالكفر والإيمان،
بالوفاء والخيانة...
يا "د" ليل التائهين إلى مجدك..
يا "ق" بلة الأرواح حيث ثمَّ تهيم الأرواح..

يااااا "دِ مَ شْ قُ!"
وعن دمشق وحلب، تبكي الحبيبة كقلب دمشق النازف وتحيا كما تحيا حلب:
وجهكَ "حبيبي" يُبكيني هذا المساء
تماماً كشتاءٍ قارسٍ بين "تشرينيْن"
يُبكيني ...
كقلبِ دمشقَ النازف...
ويُحييني ...
تماماً كما تحيا "حلب"..

وكمدنفـة أضناهـا الحـب أخـذت تقطـف حبـات دمعهـا عـن شـجر الشـام العتيـق، فالشـام وحدهـا تعلـم مـا في صدرهـا، فتلهـج باسـمها:
كمدنفةٍ.. رحتُ أقطفُ حبات البكاء عن شجرها
العتيقْ.. وحدَها "الشامُ" تعلم ما بي.. وحدَها.

الأوديسة السورية -5-

بديع صقور:
لو تُرك القطا لغفا ونام

يتناول هـذا الجـزء اثنـين مـن دواويـن الشـاعر بديـع صقـور تفضَّـل الشـاعر بتوفيرهـما لي:

- دعـوا الحـمام ينـام، منشـورات الهيئـة العامـة السـورية للكتـاب، وزارة الثقافـة، دمشـق، 2014

- خواتم في أصابع الصدى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2016

دعوا الحمام ينام

استهلال

يسـتهلّ الشـاعر والأديـب بديـع صقـور في هـذا الديـوان بمقتبسـيْن مـن العظيمـيْن غارسـيا ماركيـز وبابلـو نـيرودا عـن "الكاوبـوي"، الأمريـكي الجشـع الـذي يعبـد الذهـب، وإلهـه ذهـب ومِـن ذهـب:

- "الكاوبوي عاتب على الله
لأن أبقاره تدرُّ الحليب
لا الذهب." ماركيز،

- "الكاوبوي" لا يتصور الله
إلا مُرصَّعاً بالذهب." نيرودا،

وذلـك قبـل أن يدخـل إلى قصيدتـه الأولى في ديـوان البـوح الحزيـن هـذا لوصـف القتـال والاحـتراب المسـتمر في وطنـه سـوريا بـلا نهايـة، وحتـى الفنـاء، لأنـه يسـتحيل نـزع سـهام الحقـد مـن صـدر العـدو:

نتقاتل
إلى أن يرث الحمام بندقية
نتفانى
إلى أن ترث الزهرة قنبلة
نحتربُ
إلى أن يرثَ العصفور السماء.
...
كيف سأنتزع سهام الحقد

من صدره، ما دام
مصرّاً على إفراغ رصاصاته العشر
في قلبي؟!

ثلاثية الحرب على سوريا: قصائد ثلاث لمحطات ثلاث:
"أبواب"، "أحلام مضرجة بالأنين" و"إذا ما هرمت الأنهار"

تُذكِّرنا هذه الثلاثية بالملحمة الشعرية الكبرى الشهيرة "الكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالي دانتي أليغيري، وتحمل بعض صورها وأجوائها وإيحاءاتها: الطبقات الثلاث- الجحيم، البرزخ، الفردوس- ودوائر الجحيم التسع. وقد يكون هناك خيط رفيع بين دوائر جحيم دانتي التسع في الكوميديا الإلهية وأبواب بديع صقور الثمانية في قصيدة "أبواب"، حيث يقف الشاعر على عتباتها متسائلاً، متشككاً، متردداً، حالماً، ناصحاً، خائفاً أو حائراً، ويطرقها باباً باباً، فلا يجد خلفها ضالّته الحقيقية المنشودة:

يطرق باب الأيام، فلا يجد خلفه سوى أشياء تشبه الأشياء، ومنها السيل الذي يجرف الأرواح إلى "مصبّات العدم":

على باب يوم:
شيء يشبه المطر
وشيء يشبه الغياب
شيء يشبه السيل
أبداً، لا يتوقف عن جرف أرواحنا
إلى مصبات العدم.

ويقف على باب الحرب منذ الصباح، فلا يحصل على قبس من نارها يُدفئ بها برد انتظاره:

على باب حرب:
واقف منذ صباح الحرب
أنتظر جذوة من نار
كي أدفئ بها برد انتظاري.

ثم يحطُّ على باب ثغر الحبيبة، فيجد مسافة بين ابتسامتها وشفتيها:

على باب قُبلة:
بين الابتسامة وثغرك
مسافة من حُب..
بين ثغرك والشقائق
توأمة باسقة..

وعندما يقف على باب اليقظة، يجد أنه بحاجة إلى قمر وخيط من سحاب كي يرفو تحت نوره فستان طفلة مزَّقته الحروب:

على باب اليقظة:
أعيريني قمراً، وخيطاً من سحاب..
تحت نوره الشاحب
سأرفو ثوب غيمة بعثرتْه الريح..
" فستان " طفلة ..
مزقته أشواك الحروب.

على باب "إذا"، لا يعرف الشاعر على وجه اليقين ما الذي سيوقظنا، وردة أم رصاصة؟ وفي الحالة الثانية يجب أن نكون مستعدين لحفر القبور، وألا ننتظر من الأصوات المتوحشة رغيفا أو ابتسامة:
إذا أيقظتْك الوردة
فخذْ بيدها إلى بيت عاشقة،

وإذا أيقظتك رصاصة
جهِّز مِعولك
وكن مستعداً لحفر
قبر أو أكثر.
إذا ما علتْ من حولك أصواتٌ
متوحشة، وغاضبة
فلا تنتظر منها
أن تقدم لك رغيفاً أو ابتسامة.

فيطرق باب الحلم لعلَّه يسعفه، لكنه يتساءل كيف ستشرق شمس أحلامنا مادام ليل القلق يجثم على صدورنا كصخرة؟ وكيف تنتصر الأحلام بينما يقف فوق رؤوسنا قُطاع الرؤوس بأسيافهم جاهزين لقطفها بتلذذ وكأنهم يقطفون ثمار النخيل؟

على باب الحلم:
كيف ستشرق شمس أحلامنا
مادام ليل القلق
يجثم على صدورنا كصخرة؟!
كيف لأحلامنا أن تنتصر
وأن تغرد في سماء أرواحنا
وهم، مازالوا يواصلون جزَّ رؤوسنا
كثمر النخيل؟!

فيدقُّ باب "بابا نويل" الذي يجلب للأطفال هدايا العيد، ولكن بدلاً من ترقُّب هداياه الجميلة المفرحة لهم، يقدم له نصيحة بشأن نوع الهدايا التي يتعين عليه أن يملأ صرَّته بها: بندقية وخنجر وحزام ناسف وحُزمة بارود:

على باب "بابا نويل":
سيد "بابا نويل"
إذا ما قدِمْت بلاداً كبلادنا
أنصحك لوجه الحبِّ
حين تجيء بلاداً كبلادنا
أحضرْ معك:
بندقية، وخنجراً..
تمنطقْ بحزام ناسف
واحشُ صرَّة هداياك بـ "البارود" .

وعندما يصل إلى الباب الثامن والأخير، باب الحيْرة، إلى ما يشبه البرزخ، مَطهر دانتي، ويعدو على الصراط صوب الفردوس، تتملَّكه الحيْرة ويخشى أن تكون ملائكة السماء قد تدرَّبت على الذبح مثل شياطين الأرض. فإلى أين سيعدو؟ وخلف مَن؟ خلف الملائكة أم الشياطين أم الريح؟ وأخيراً يحزم أمره:

على باب الحيْرة:
أعدو صوب غابات السماء
تتلبَّسني الحيرة؟!
وجلّ ما أخشاه
أن تكون الملائكة هي الأخرى
قد تدربت على الذبح مثلنا
نحن أهل الأرض؟!
إلى أين سأعدو؟!
وخلف من سأعدو؟!
خلف الملائكة
أم خلف الريح؟!
أم خلف الملثمين ؟!
ويقرر أنه لن يولِّي الأدبار لأمراء الحرب، بل سيولي وجهه صوب شواطئ الحب:

سأعدو إلى شواطئ الحبِّ
أرقص مع النوارس والأشرعة
أُغنِّي مع الموج والريح .

ينتقل الشاعر إلى المحطة الثانية في قصيدة "أحلام مضرَّجة بالأنين"، حيث تقاسُم الأحلام وتقسيمها، ليقول إن لكل فرد أحلامه، بعضها متشابه وبعضها الآخر متنافر. قبل انكسار الأحلام فوق شواطئ الريح كان ثمة "تقاسُم" لرغيف الأحلام، وبعد انكسارها حلَّ محله "تقسيم" الأحلام: لكم أحلامكم ولنا أحلامنا:
قبل أن ننكسر كشربة ماء...
تقاسمنا رغيفَ الأحلام
تقاسمنا صوت المطر.
أما بعد انكسارنا، فقد انقسمت أحلامنا وأصبح لكل منا أحلامه الخاصة به:
يحلم الغريب بكوخ امرأةٍ
تحلم المرأة بقلبٍ دافئ كعصفور.
يحلم المبحرون بالتلال والشواطئ
ورؤية من غابوا عنهم وراء الضفاف.
يحلم العابرون بابتسامة زهرة
يحلم الأطفال بلعبة ولفافة زعتر..

بينما:
يحلم القتَلة
بحقول مفروشة بالأشلاء والأنين.
تحلم الصبية بصهيل عاشقٍ
وسلَّة من قُبل..
تحلم الأم
برجوع أقمارها الغائبين
من ميادين الحروب.

في الوقت الذي:
حلم المشردين بيت وكسرة خبز ولحاف،
وحلم الملك عرش وصولجان
تاج وعبيد
وحلم الشعوب
وطن للرغيف والحب والسلام.

في القصيدة/المحطة الثالثة "إذا ما هرِمتْ الأنهار" يقع الفراق التام والقطيعة النهائية بين من يدافع عن وطنه وأرضة ومن يتآمر عليه مع العدو، فيصبح المبدأ: لكم دينكم ولي دين، ويصبح الصراع بيننا وبينهم، والتعبير عنه بـ "نحن" و "هم"، "لنا" و ""لهم، "هنا" و "هناك"، "تراثنا" و "تراثهم"...):
ما أكثر القتَلة
ما أكثر الذين يحلمون بالفتوحات والأمجاد
التواقون لأن تبقى أكفـُّهم مخضبةً بالدم
هُم مَن قطعوا شجر الشمس
هُم من جفَّفوا نهر القمر.
لنا ضحكاتُنا
ولهم أنيابُهم.
لنا أغانينا
ولهم مخالبهم.
لنا الهواء والشمس
ولهم الأقبية والكهوف..
تـرِكاتنا التي سنورثها لأحفادنا القادمين
أسرابٌ من الفراشات
وحقول من الأغاني
ترِكاتهم التي سيورثونها للأشرار
مزيد من الحروب
ومزيد من القبور.
هنا، فوق حجارة هذا الغيم

في صدر بيت السماء
يجلس أطفالنا
وفوق وجوههم الشاحبة
تعلو طيوفُ وصايانا كالقلاع
وهناك، فوق صهوات بلاد عجفاء
يسابقون امرأ القيس
إلى جنائن قيصر...
وعلى أكوام أجسادنا
يرقص الغزاة فرحين .

لكن، بعد أن هرمت الأنهار ونضبت ينابيعها وجفَّت مياهها ولم تعد تحمل زورقاً من ورق، رأينا نهر الحياة يتدفق من جديد من ينابيع دموع الأطفال:
ومن دموع أطفالنا
يتدفق نهر الحياة
من جديد.

"بين أصابع النار" قصيدة تحكي موجز قصة الحرب على سوريا وفي سوريا على طريقة "كان ياما كان"... لكنها ليست قصة مسلية للصغار، بل تعبِّر عن تراجيديا سورية عبثية صنَعها الكبار من أعداء سوريا: فذات يوم كان هناك طائران سوريان يغردان معاً على غصن واحد فوق أرض تنبض حقولها بالحب. وفجأةً نشب بينهما عراك حتى الموت:
ذات وقت
ذات ريح
ذات حرب
كانا يغردان سوية على غصن واحد
وفوق أرض تمور حقولها بالحب
فجأة، وقع بينهما عراك حتى الموت.

ثـم جـاء شـتاء قـارس وربيـع شـاحب- ربمـا في إشـارة إلى مـا عُـرف باسـم "الربيـع العـربي"- أقنعـوا فيـه القاتـل بـأن حريتـه تتوقـف عـلى قتـل الآخـر مـع أنهـما كانـا يقتسـمان خبـز الحيـاة:

ذات شتاء مثقل بالزمهرير
ذات ربيع شاحب
أقنعوه بأن حريته متوقفة على قتلي
مَن كنت وإياه نقتسم رغيف الحياة.

كانـا متشـابهيْن، لكـن القاتـل ظـنَّ أن القتيـل لا يشـبهه، فـأراد أن يُقصيـه عـن الينابيع والبسـاتين ويحرمـه مـن نـور الشـمس والعيـش، فطعنـه بخنجـر مسـموم وهـو لا يعلـم كيـف أقنعـوه بأنـه لا يشـبهه مـع أنهـما مـن الـتراب نفسـه والوطـن نفسـه والـدم نفسـه:

ذات غضب
ذات حقد
ظن أنني لا أشبهه
فحاول إقصائي عن الينابيع والبساتين
عن العيش والشمس ...
عن لحظة الفرح.
الذي ظن أنه لا يشبهني
طعنني بخنجره المسموم دون أن يعلم
كيف أقنعوه أنني لا أشبهه ؟..
كيف لا يشبهني وهو إنسان؟
هو أخي.. ذات التراب.. ذات الوطن..
ذات البيت .. وذات الدم.

ثم يتحدث الشاعر عن القتل العبثي:

قتلتَه؟
وماذا بعد؟

فتحت ثغرة في صدره؟؟
وماذا بعد؟
انتزعت قلبه ونهشته مثل ضبع
وماذا بعد؟
وماذا بعد؟

هجائية العرب

قصيدة "عرب..عرب" مطوَّلة هجائية مقذعة للعرب تنضح بالمرارة والغضب والقهر والازدراء والصراخ والاستصراخ ومناداة الأموات، حيث لا حياة لمن تنادي، وتعجُّ بالإدانة والاستنكار إلى حد "الكفر" بهم بسبب خيانتهم وغدرهم وعمالتهم للأعداء الأسياد والتآمر معهم والاشتراك في الحرب الدولية الوحشية على سوريا "العرب العرب" بشتى الوسائل والأشكال التي يقترفها "العرب الأعاريب" كما يسميهم الشاعر المجدِّد أبو نواس تحقيراً لهم ويصفهم بأنهم عند الله ليسوا أحداً، وإن كان قد وضع ذلك في سياق السخرية من الوقوف على الأطلال، والتجديد في الشعر:

"يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درَّ درُّك قل لي مَن بنو أسدِ
ومَن تميم ومَن قيسٌ ولفُّهما ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحدِ"

ومثلما تحدَّثوا في التاريخ عن أهجى بيت قالته العرب، فإن هذه القصيدة تُعدَّ من أهجى القصائد التي قيلت في العرب في حقبة الانحطاط العربي الراهنة. فالعرب "الأعاريب" بنظر بديع صقور ليسوا سوى لغط يتردد، وحجرٌ على ضفة الموت وقاعٌ صفصف ونهر دماء وبقايا خيام. هم عرب داحس والغبراء، عرب البسوس، مع الزير الماجن أو جساس الغادر:

لغطٌ على التلال
لغطٌ في السهول
حجرٌ على ضفة الموت
عربٌ و "الباقيات الصالحات"
قاعٌ صفصفٌ

نهر من دماء!..
وبقايا خيام!.
عربٌ مع المهلهل
عربٌ على المهلهل
عربٌ مع البسوس
عربٌ على البسوس
عربٌ "كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول".
عربٌ،
ويصيح رأس الحسين:
و "يا أُخيَةُ لو تُرك القطا لنام".

"لو تُرك القطا لغفا ونام"!

يستلهم الشاعر بديع صقور هذه العبارة، وربما عنوان الديوان أيضاً، من تاريخ الصراع العربي والإسلامي المميت. فقد قالها الإمام الحسين لشقيقته زينب عندما طلبت منه العودة مع أهل بيته إلى ديار جدهم رسول الله في اللحظات الأخيرة من معركة كربلاء التي كان كلاهما يعرفان أن نتيجتها محسومة لصالح جيش يزيد بعد انفضاض أنصاره عنه أو خيانتهم له، أي أن عدوه لن يتركه بحاله حتى لو تخلَّى عن قتاله.

ويُقال إن أول من استخدم هذه العبارة هي حذام بنت الريان حينما أحسَّت بنفور طيور القطا ليلاً. وكان قومها قد فروا من عدو يطلبهم، فحذَّرتهم بقولها:
"ألا يا قَوْمَنَا ارتَحِلوا وسِيروا فَلَو تُرِك القطا ليلاً لَنام"

ويريد الشاعر بديع صقور أن يقول في هذا المقام إن هذه هي حال سوريا، التي تتعرض لعدوان خارجي همجي وخيانة داخلية منذ مطلع عام 2011، مثلما تعرَّض له الحسين، فلو لم يُعتدى عليها لنامت مطمئنة ولما اضطرت لخوض هذه الحرب المدمرة دفاعاً عن نفسها.

ويمضي الشاعر في هجائية العرب المقذعة، فيشبِّههم بقطعان الذئاب وممالكهم بالعواء، ويقول إن عرب أمريكا يشتمون إسرائيل ويتركون القدس لليهود:

عربٌ وقطعان من ذئاب
ممالك من ذئاب
وممالك من عواء..
قوافل من ملوك
وقطعانٌ من عبيد
يشتُمون إسرائيل
ويتركون القدس لليهود..

ويصفهم بأنهم ظاهرة خطابية لا يجيدون سوى الجعجعة الجوفاء، يرطنون فيها عن تحرير فلسطين، بينما هم في الحقيقة ليسوا سوى عرب الهزائم والجواري والفتاوى وجهاد االنكاح:

عربُ المنابر والخطابات:
سنعيد فلسطين..
سنعيد فلسطين..
القدس قبلتنا
وباريس ملعب خيلنا.
عربٌ..عرب..
عرب الهزائم
عرب الجواري
عرب الفتاوى وجهاد النكاح.

ويختم الشاعر هجائيته المُرة بالصراخ من شدة الألم على الذبيحة سوريا، فبمن يستجير؟ بأهله الأعاريب؟ هؤلاء هم الذين يقطر دمه من نصول خناجرهم، ولم يعودوا أهله، ولم يعد يعرف بمن يثق فيلجأ إلى أبيات من قصيدة الشاعر العراقي عبدالرزاق عبدالواحد "شكراً دمشق"، عندما لم يجد مَن يقف مع بلاده ضد الاحتلال الأمريكي سوى دمشق، فخاطبها طالباً منها النُصح:

"كلما صحتُ يا أهلي.. رأيت دمي
على سكاكين أهلي كيف يندلق
لو أنَ أهليَ..أهلي لاستجرت بهم
أنتِ أنصحيني بمن من أهلنا أثق؟!"

رحلة الحياة والموت في أفلاك الحرب

في قصيدة "قُبيل الحرب بقليل" يصف الشاعر بديع صقور رحلة الحياة والموت الأليمة بين أفلاك الحرب، قبل الحرب وأثناءها وبعدها:

قبل الحرب كانت الحبيبة تسافر في خلايا الموج وترتدُّ باقة من رذاذ. كانت تنام على صدر حبيبها كفجر وتصحو على تغريدة قُبله. ولم تكن تغلق باب ضحكتها، بل ترفرف في حديقة روحه كنسمة:

فيما مضى
قبيل الحرب بقليل
كانت تنام على صدره كفجر
وتصحو على تغريدة قبله..

أما بعد الحرب، فقد صارت زهرةً على صدر قبر، ولم يعد هناك فرق بين من كان رقيقاً كالندى وبين الذئب، ولا فرق بين أن يكون بيدك ضُمة حبَق وبيده سيف.. الحرب هي الحرب، أمس واليوم وغداً. ويواصل السوريون دفن موتاهم يوما بيوم، لكن السؤال الرهيب الذي يطرحه الأحياء على الموتى هو: "هل سيبقى هناك أحياء يتولون دفننا نحن أحياء اليوم وقتلى الغد؟":

وبعد أن وقعت الحرب
صارت زهرةً على صدر قبر.
بُعيد الحرب بقليل
لا فرق بين من كان رقيقاً كالندى
وبين ذئب
لا فرق بين أن تسقط ببهاء كنجم
أو كحجر
والحرب هي الحرب

يوماً بيوم ندفن قتلانا
ويوماً بيوم نسأل الموتى:
من سيبقى ليدفننا نحن قتلى الغد القادم؟

في المقطع الأول من قصيدته "من أعالي هضبة عمري" المؤلفة من خمسة عشر مقطعاً، والتي تنضح أسى وحسرة، يطلُّ الشاعر من أعالي هضبة عمره فيرى أن كل شيء في بلاده أصبح نصفه: الترنيمة، القمر، الغيمة الحائرة، الخريف المبعثر، الحكاية، وحتى البلاد، التي يتصدع نصفها بينما يقع نصفها الآخر في قبضة أمراء الظلام والإرهاب:

نصفُ ترنيمة
ونصفُ قمر
نصفُ بلاد على وشك التصدُّع
ونصفها الآخر لأمراء الظلام
وللسائبين على تخوم القتل.
نصف غيمة حائرة
ونصف خريف مبعثر
ونصف الحكاية.

وفي مقطع "رسائل متأخرة" ينشر الشاعر مضمون رسائل تراجيدية عظيمة ثلاث، أو رسالتين وتتمَّة، أُرسلت عبر الهاتف الخليوي، الأولى من الشهيد إلى والده قبل أن يقتله الإرهابيون، يطمئنه فيها عن حالته، ووصلت الرسالة بعد استشهاده:

قبل أن يقتلوه
كتب على جوَّاله:
أبي أنا بخير..
وبعد أن قتلوه
وصلت الرسالة.

والرسالة الثانية من الإرهابيين إلى والد الشهيد بعد خطفه، قالوا فيها إن ابنه ذبح الحمام وإنه جاهل في البسملة، ووصلت بعد خطف روحه:

بعد أن خطفوا روحه
بعثوا برسالة لوالده..
ولدُك هو من ذبح الحمام
ولدك جاهلٌ في البسملة.

أما الرسالة الثالثة أو تتمة الرسالة الأولى، التي وجَّهها الشهيد إلى عائلته، فرداً فرداً وبالاسم، إلى إخوته وأخواته: باسم ومريم وعلي ومحمد وحلا وبسمة ويوسف ومحمود، فقد وصلت بعد ذبحه. وفي رسالته أوصاهم بوضع زهرة على قبر أُمهم وقراءة الفاتحة لروحها. ولم ينسَ أن يطلب منهم رسم خريطة الوطن الكاملة، وإعراب جملة "بلاد العرب أوطاني". ولعل في ذلك أسطع تعبير عن حرص الوطنيين السوريين على التمسك بالعرب والعروبة على الرغم مما فعله "الأعاريب" بسوريا من فظائع وارتكبوه من خيانات:

وبعد أن ذبحوه
وصلت تتمة الرسالة:
قريباً نلتقي يا أخي باسم..
رحم الله أمي يا أختي مريم..
أخي علي، لا تتقاعس عن رسم خارطة الوطن..
أخي محمد، لا تتكاسل في الحساب.
حلا، ساعدي أختك بسمة
في إعراب "بلادُ العرب أوطاني "
ويا يوسف الصغير، احفظ
"خير المطالع تسليم على الشهدا".
محمود، قبل أن تعود إلى البيت
عرِّج على المقبرة
وضعْ زهرة على قبر أمي،
واقرأ لروحها الفاتحة.

وفي مقطع آخر بعنوان "لن"، يعلن الشاعر أن الأرض التي يسرح فوقها المرتزقة واللصوص ويمرحون لن تكون أرضاً للسلام، وأن البلاد التي أضحت مقاصل لجزِّ الرؤوس، لن تكون وطناً أو أرضاً أو بيتاً:

لن تكون أرضاً للسلام
تلك التي يسرح فوقها المرتزقة واللصوص..
كقطعان الماعز الداشرة
لن تكون بلاداً
أو وطناً
أو أرضاً
أو بيتاً
تلك التي غدت أعمدة مشانق للحب
ومقاصل لفصل الرؤوس المتقاعسة
عن الانحناء للملائكة ..

وكذلك الأمر مع العالم "المذأبة" في قصيدة "مهابط"، حيث أصبحت الأرض والبلاد والوطن والمدينة والقرية، وحتى الروح، بنظر الشاعر "مذأبة":

الروح المذأبة
لا تجيد الحب
ولا تجيد الغناء..
ما أوحش الحب في الغابة المذأبة
ما أسهل القتل في الوطن المذأبة.

بيد أنه، بعد كل هذه "المذئبات" التي اجتاحت كل شيء حتى وصلت إلى الروح، يعطينا الشاعر قبساً من أمل، "فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل" كما قال الطغرائي في لامية العجم:

عندما قتلوه
وطارت روحه فوق البراري
أيقنتُ أن الروح

يمكن أن تصير غيمة..
عند أول إطلالة للعطش
تفرغ جيوبها الملأى بالمطر
وعند أول بزوغ الفجر
تغرّد بعذوبة لصباح جديد..

خواتم في أصابع الصدى

"خواتم في أصابع الصدى" ديوان في قصيدة، أو قصيدة مجنَّحة تحمل ديواناً، و يضعها الشاعر في أصابع الصدى على شكل خواتم - 106 خواتم – تطوِّقها، بل تزيِّنها، ويمثِّل كل خاتم منها قصيدة. وهي مرفقة برسالة إلى الغَيارى على وطنهم مفادها: لا تتيحوا للغرباء واللصوص فرصة التسلل إليه وتخريبه:

بين صوتي وأنين الموج رسالة..
لا تدعْ فرصةً للغرباء واللصوص
يتسللون بها إلى "رأس شمرا"
كي يغرزوا خناجرهم في رحم ترابها المقدس..
اسكبْ دموعك في جوف التراب
ولتُنبت المحبة زهوراً
تنشر عطرها على عنق السماء.

ويحذر الشاعر من أن القتَلة هم مَن يطفئون شموع أرواحنا. ولذا لا يمكننا معرفة عدد الشموع التي أطفأناها إلا بعد أن نعدَّ الرصاصات المتبقية في جعبتنا وبعد أن تضع الحرب أوزارها، فقد ترك لنا القتَلة:

الكثير.. الكثير .. من القبور
والكثير.. الكثير من اليتامى والثكالى
والأزهار الذابلة..
وفي مهب الحروب
يبست أيامنا
وجرَّدنا الموت

حتى من قبورنا.

ويشـدد الشـاعر عـلى أن الدفـاع عـن الوطـن عندمـا يتعـرض لخطـر وجـودي، كـما يحـدث في سـوريا اليـوم، ليـس "فـرض كفايـة" بـل فـرض عـين وواجـبٌ يتعـين عـلى كل سـوري غيـور أن ينـبري لتأديتـه:
العمر ليس عُشباً..
كلما حصدْتَه، نبت من جديد.
عندما يحترق البيت..
على الجميع أن يحمل الماء لإطفاء الحريق.

ويسـتخدم الشـاعر في بعـض قصائـده عبـارات تتقاطـع مـع أو تقتبـس مـن عـدد مـن الشـعراء الثوريـين، ولـذا فإنـه يحـضُّ عـلى مقاومـة العـدو بعبـارات مبـاشرة، مسـتلهماً عنـوان قصيدتـه "قـاوم عـدوك" مـن قصيـدة الشـاعر سـميح القاسـم الشـهيرة:
"يا عدو الشمس لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم
سأقاوم."
ومن قصيدة محمود درويش "سقط القناع":
"حاصر حصارك لا مفرّ
اضرب عدوَّك لا مفرُّ."

كـما يقتبـس عنـوان قصيدتـه "احتمـى أبـوك باللصـوص.. فدخـل اللصـوص" مـن بيـت محمـود درويـش: "وأبـوك احتمـى بالنصـوص، وجـاء اللصـوص" في قصيـدة "سرحـان يـشرب القهـوة في الكافيتيريـا"، ليقـول: إن الحـراس المكلفـين بحمايتنـا هـم اللصـوص الذيـن خانونـا وطعنونـا في الظهـر:
احتميتَ بالنخيل فغافلك حرّاسه
وغرزوا خناجرهم في عنقك ..
وبعد أن نفر دمك كينبوع
صاحوا : الله أكبر ..

بعد أن أحرقوا بيتك
رقصوا على وقع الله أكبر ..
وبعد أن قتلوا طفلتك
هللوا: الله أكبر ..

وفي قصيدة "نهر والروح تجري" يستلهم الشاعر السوري صقور قصة الشاعر الإسباني الثوري العظيم فيديريكو غارسيا لوركا، الذي قبض عليه جنود الفاشية الإسبانية في 16 أغسطس/آب 1936 واقتادوه إلى منطقة وادي غرناطة وأعدموه رمياً بالرصاص وأخفوا جثته ولم يُعثر عليها حتى اليوم مثلما كان قد تنبَّأ هو نفسه بذلكً:

"وعرفتُ أنني قُتلت
وبحثوا عن جثتي في المقاهي والمدافن والكنائس
فتحوا البراميل والخزائن
سرقوا ثلاث جثثٍ ونزعوا أسنانها الذهبية
ولكنهم لم يجدوني قط."

أي أن لوركا لم يمتْ عندما أعدمه الفاشيون القدامى واقفاً بأنَفَه و تحدٍ لقاتليه وهو يقدم روحه دفاعاً عن الجمهورية الإسبانية. كذلك لم يمتْ الحب الذي اغتاله الفاشيون الجدد وأتباعهم الإرهابيون الوهابيون في حربهم الغاشمة على الجمهورية العربية السورية في قصيدة بديع صقور، يحدوه الأمل، بل الثقة، في أن هذه الحرب الوحشية ستنتهي بانتصار سوريا مهما طال الزمن، تماماً مثلما كان لوركا مؤمنا إيماناً لا يتزعزع بأن حبيبته ماريانا ستجده ولو بعد ألف سنة منهمكاً في كتابة قصائد حب جديدة عنها وعن إسبانيا:

انتظريني بعد مئة سنة
ألف سنة .. آلاف السنين
وستجدينني هناك ...
منهمكاً بكتابة قصيدة جديدة
عن الحب الذي اغتالته أيدي الحروب."

مناجاة مع الله والأُم ورسول السلام

يتوجـه الشـاعر بأسـئلة أو شـكاوى أو عتـاب أو مناجـاة إلى اللـه والمسـيح والأمهـات الراحـلات. فيسـأل اللـه عـن سـبب تكبـيرات الإرهابيـين باسـمه كلـما قتلـوا نفسـاً أو أغنيـة:

لماذا يا سيدي الله
تشرق وجوههم
كلما علتْ تكبيراتهم باسمك
كلما قتلوا طفلاً
أو أغنية
أو غيمة
أو امرأة
أو عابر سبيل؟

ويسـأل الأمهـات الراحـلات، إذا مـا عـدن إلى الحيـاة: هـل لهـذه الحـرب نهايـة، أم ستسـتمر رحاهـا بالـدوران إلى مـا لا نهايـة؟:

افترضْ أن أمك أو أمي
قد عادتا من الموت
عن ماذا ستُسألان؟
هل تتوقف هذه الحرب غداً
أم ؟
إلى أن تحمل الحمامة بندقية
وإلى أن تصير التفاحة قنبلة؟

ثـم يسـأل السـيد المسـيح، إذا مـا عـاد إلى الأرض، عـمَّ إذا كان سـيجد عـلى بـاب السـماء مـلاكاً بيـده سـاطور يقطـر دمـاً؟:

سيدي ... رسول السلام
إذا ما رجعت إلى الأرض
ذات غفلة

أما تخشى من العودة
بأن يكون من ينتظرك هناك..
على باب السماء ..
ملاك وبيده ساطور
يقطر دماً؟

سواد وتشاؤم ويأس وعبث، هذه هي الحالة التي يصل إليها المواطن السوري في ما يسميه "تغريبة الموت" السورية، ولا أعرف ما إذا كان في ذهن الشاعر الإشارة إلى "التغريبة الفلسطينية" أو الربط بينهما. ويصف إحساس الإنسان السوري بعبثية الموت إلى الحد الذي لا يكون ثمة معنى لأن يكون له قبر أو كفن بعد قطع رأسه أو تفجيره بحزام ناسف:

ما جدوى أن يكون لك قبر؟
إن خاطت لك أمك كفناً
أو كنت بلا كفن ...
ماذا يعني ، كفنٌ بقبعة تقي الرأس
مادام الرأس قد فصل عن الجسد ؟
ما جدوى أن يكون للكفن زنار
بعد أن فجروك بحزام ناسف ؟

وفي هذا الصراع الدموي، تصل العلاقة مع الإرهابيين الظلاميين وأنصارهم إلى حد القطيعة التامة، فلا يراهم ولا يرونه، ما داموا يعيشون في كهوف الماضي الغابر وينفذون أوامر أمراء الحرب ومشغِّليهم ويحيطونهم بهالة من القداسة الدينية:

هيهات أن تبصرني، طالما
أنت من أطفأ الشمعة التي كانت
تنير المكان الذي مازلنا نستوطنه
منذ الأزل،
هيهات أن أراك

هيهات أن تراني..
ما دمتَ تحيا في كهوف الماضي البعيد
منفِّذاً - بقداسة - تعاليم أمراء
سادة الحروب المقدسين كما يدَّعون.

ختام الخواتم

يرسم الشاعر بديع صقور نهاية هذه الخواتم على صورة بدايتها، من خواتم في أصابع الصدى إلى خواتم في أصابع الموج والريح. ويضع افتراضات المستقبل البعيد إذا ما حلَّ الخريف في السماء ودبَّ الصقيع في الأرواح واتَّسعت ساحات القتل، فإنه لن يبق أحد على قيد الحياة أو بذرة في قلب التراب:

إذا ما حلَّ بالسماء خريف ..
كيف ستنبت في الأرض السنابل ؟
- إذا ما دبَّ في أرواحنا صقيع
كيف ستختلج القلوب بالحب؟
عندما تقتلني ..
ستكون الشواطئ موحشة
لا أحد سيبقى، هناك ..
سوى مزق من فصول غاربة
آثار أقدام مطر قديم
خواتم في أصابع الموج
خواتم في أصابع الريح.

وعلى مشارف نهاية الديوان يحرص الشاعر بديع صقور على تكريم شهداء الجيش العربي السوري، ويسجل في قصيدته ألف مليون "حمل سلام" التي حمَّلتها أم الشهيد شرف لابنها كي يوصلها إلى شقيقه الشهيد الذي سبقه، أم الشهيدَيْن التي وصفها ابنها بأنها ريحانة الدار وشمسها التي لا تغيب، والتي علمته أن الشهادة فجر عطاء:

هي التي رَجعتُ إليها مكلَّلاً

بعطر الشهادة، وبرق الفصول
وهمس الينابيع ..
هي التي علَّمتني أن الشهادة فجرُ عطاءٍ
يباركها الصباح
تباركها النجوم
يباركها النسيم..

خاتمة: بين عيديْن

في قصيدة "كطائرة من ورق"، يرسم الشاعر صورتين للعيد في عيون الصغار وعلى ألسنتهم، عيد ما قبل الحرب وعيد ما بعد الحرب:

أمس:
يجيء العيد، وأرواحنا مثقلة بالحزن
" عيد مبارك عليكم" ..
ذابلة، تموت على شفاهنا
حيْرى، تدور في مهب الحرب.
" عيد مبارك عليكم"
سرقتْها الأيام منَّا
وبدَّدتها الحرب..
صغاراً كنَّا ندور
على بيوت أهلنا
وجيراننا الفقراء مثلنا ..
صغاراً ، قبل طلوع الشمس
ندور عليهم، لنصبِّحهم
بـ " عيد مبارك عليكم"

أما اليوم:
يجيء العيد، وقد غصَّت الدروب
بحاملي النعوش
ولم يعد العيد كمثله.

"عيد مبارك عليكم"
لمن سنقولها صبيحة هذا العيد؟؟
للنعوش أم للغائبين؟؟
للذين رحلوا، أو رُحِّلوا؟
للذين غيَّبتهم ظلمات الحروب؟
للذين قضوا تحت ركام بيوتهم؟
لمن طوتْ أجسادَهم أمواج المحيطات
والبحار ..
لمن ؟؟
للذئاب التي جاءت إلينا..
بالسواطير، وأنياب الدم
من جمهوريات الكهوف
وممالك الرمل؟؟
لمن؟؟
للذين فُصلتْ رؤوسهم
تحت صيحات "الله أكبر"
لمن؟؟
جاء العيد ..
وسيمضي العيد
وأبصارنا ماتزال معلقةً
بـ " عيد مبارك عليكم "
نطيِّرها كطائرة من ورق.
في يوم شديد الريح ..
يجيء العيد..
وقبل أن يمضي العيد
اسمحوا لي..
أن أهمس لأرواحكم:
" عيد مبارك عليكم".

الأوديسة السورية - 6 -

عدرا: برزخ الحصار وسِفر الخروج

يتناول هذا الفصل كتاب "عدرا: من يوميات الحصار في عدرا العمالية وسفر الخروج"، محمد خالد رمضان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2017.

تمهيد

يقسِّم المؤلف محمد خالد رمضان "كتاب التسجيلات" هذا المعنون باسم "من يوميات الحصار في عدرا العمالية وسفر الخروج" إلى قسمين: اليوميات، والمشاهدات، أو ما يشبه دراسة الحالات. ويبدو أن ما يُسمى بأدب الحرب- إن صح التعبير- أو الأدب الذي يُكتب عن الحرب في زمن الحرب كثيراً ما يتخذ شكل اليوميات، وكأن الحرب تصنع من الأدب لوناً/جنساً إبداعياً جديداً.

فعلى سبيل المثال، في حرب الثلاثة وثلاثين يوماً العدوانية التي شنَّتها إسرائيل على لبنان والمقاومة اللبنانية في تموز/يوليو 2006، نجد العديد من الكتابات التي صدرت في تلك الأيام قد اتخذت شكل اليوميات، وكأن الحرب تفرض تجلِّياتها التعبيرية - أقصد شكلها أو لونها/جنسها الأدبي أو أسلوبها أو طبيعتها، أي كونها "يوميات"- على النصوص التي كُتبت خلالها، بدءاً بيوميات المقاتلين على أرض المعركة وانتهاءً بالشعر، حتى كاد معظم تلك النصوص يرتدي طابع "اليوميات":[9]

ففي مقدمة ديوانه " لمجدك هذا القليل"، الذي يضمُّ خمساً وعشرين قصيدة كتبها أثناء العدوان الإسرائيلي، يصف الشاعر غسان مطر بأن الديوان عبارة عن قصيدة واحدة أسماها " يوميات غاضبة" لأنها بالنسبة له عصارة انفعالات ثلاثين يوماً من الحرب الإسرائيلية على لبنان، بدأت في اليوم الثالث لشن العدوان وانتهت صبيحة وقف إطلاق النار، معلنةً انتصار المقاومة ومجيبةً عن السؤال النار الذي هبَّ في هشيم بعض الأوساط السياسية اللبنانية في حينه ولم يكن بريئاً من الخبث والخوف والتخويف: "لمن سيُهدي حسن نصرالله النصر؟"

9- أنظر مقالي بعنوان " عناقيد الأدب: يوميات الحرب و المقاومة، الموقف الأدبي، العدد 579، تموز / يوليو 2019

- وتحت عنوان "صيف بين المطر والرعد- يوميات الحرب" سجَّلت كريستين شايد في مجلة الآداب اللبنانية حياتها اليومية ومشاهداتها وانطباعاتها وانفعالاتها ومعاناتها أثناء الحرب مع أفراد أسرتها خلال الفترة من السبت، 16 تموز/ يوليو 2006 حتى الثلاثاء، 15 آب/أغسطس 2006.

- وفي كتاب "الوعد الصادق- يوميات الحرب السادسة" الذي يضم مقالات ويوميات ومقابلات، سجَّل بعضُها يوميات المقاتلين على أرض المعركة، ونُشرت في عدد من الصحف أيام الحرب، ثم جُمعت في الكتاب المذكور آنفاً.

- وفي قصيدة "خمسة وعشرون يوماً" للشاعر أدونيس أرخت يوميات الحرب رداءها على شكل وعنوان القصيدة التي كتبها أثناء الحرب، فأسماها: "خمسة وعشرون يوماً" وقسَّمها إلى خمسة وعشرين مقطعاً من 1 إلى 25.

- وحتى نصوص مسرحية "ضحك تحت القصف" للمخرج شريف عبدالنور التي قُدمت إلى الأطفال النازحين الذين هجَّرهم العدوان الإسرائيلي، فقد ارتُجلت من قِبل الممثلين والجمهور على خشبة مسرح المدينة في بيروت في كل ليلة على نحو مختلف طوال أيام العدوان الثلاثة والثلاثين.

مقدمة المؤلف

يستهلُّ محمد خالد رمضان مقدمة كتابه بالتأكيد على أن هذه اليوميات والمشاهدات ليست واقعية فحسب، بل حقيقية، وأن أحداثها كذلك، فسواء كانت "صحيحة أو شبه صحيحة، فإنها حوادث تُبكي وتجرح الإنسان جرحاً إنسانياً كبيراً". كما أن شخوص الكتاب ليسوا شخصيات "قصصية" صمَّمها الكاتب كي تلائم حبكته وسرديته، بل هم أشخاص طبيعيون لهم وجوه وأسماء وسِمات وسلوكيات، ويعيشون على أرض طبيعية وفي بيئة اجتماعية واقعية تجعل القارئ يشعر بأنه يعيش بينهم أو يعيشون معهم. وإن من بين أهم سمات أولئك الأشخاص الذين يرزحون تحت سلطة جبهة النصرة – القاعدة سابقاً- القروسطية، ويتعرضون لصنوف القتل والترويع والتنكيل على أيدي إرهابييها، وعلى الرغم من معاناتهم الرهيبة تلك، فإن سكان مدينة عدرا

العمالية يُظهرون أفضل ما في النفس البشرية من خصال، بينما يُظهر الغزاة والإرهابيون ومشغِّلوهم أبشع ما في النفس البشرية من مكامن. ويُبدي أهالي عدرا المدنيون العزَّل والمحاصَرون أعلى درجات الصمود والإصرار على الحياة في مواجهة معاناتهم التي لا مثيل لها، كما يصفها الكاتب:
"لا هروب، لا نزوح من أرض عدرا العمالية، لا بكاء، لا جروح، لا آلام، لا قهر مثل ذلك، لا جراح مثل ذلك. لا موت مثل ذلك."

القسم الأول: اليوميات

في "اليوميات" يروي الكاتب محمد خالد رمضان تفاصيل الأحدا ث والوقائع التي عاشها أهالي عدرا طوال واحد وعشرين يوماً في البرزخ بين الحياة والموت، وهي أيام الحصار الذي ضربته جبهة النصرة على مدينة عدرا العمالية، وامتد من "صباح أربعاء مرعب"- وهو اليوم الأول، في 2013/12/11، حتى "الخروج... مشاهدات" في اليوم الحادي والعشرين في 2013/12/31.

اليوم الأول، 2013/12/12: "صباح أربعاء مرعب"
تحتل جبهة النصرة مدينة عدرا العمالية وتقتحم مجموعة منها منزل الكاتب وفيه بناته رؤى وهديل ونايا وزوجته أُم عبدو. يبدأ قائد المجموعة باستجوابه للتحقُّق من دينه ومن وجود غير مسلمين في المبنى، ممن يسميهم "أنجاس وخنازير":
- ما دينك؟
- مسلم
- هل يوجد في مبناكم خنازير أو أنجاس؟
- (مصدوماً من السؤال) لا..لا
- هيا إلى القبو.

اليوم الثاني، 2013/12/12: "لا ندري ماذا يحصل خارج القبو"
نسمع صوتاً عالياً ونشمُّ رائحة شواء لحم آدمي. فالمبنى كله يحترق، وإرهابيو جبهة النصرة يسرحون ويمرحون ويرقصون، يرفعون سيوفهم عالياً وترتفع عقائرهم بتكبيرات النصر على "الكفار"..الله أكبر..الله أكبر. ينفد الخبز من

المنـزل، والجـوع يعـضُّ أمعـاء هديـل ونايـا، اللتـين تطلبـان خبـزاً.. لا يوجـد خبـز.. تـأكلان برغـلاً وعدسـاً. لا كهربـاء ولا حتـى ضـوء.

اليوم الثالث، 2013/12/13: "جثة أولى.. جثة ثانية!"

جُثـث مقطوعـة الـرؤوس تُرمـى في سـاحة المركـز السـكني وتُـترك للـكلاب والقطـط لتنهشـها، والمسـلحون يلعبـون بالـرؤوس. يـصرخ الأطفـال والنسـاء مـن بشـاعة مـا يـروْن. تحـترق المشـاعر وتتمـزَّق الأعصـاب، فيسـقط أبـو الوليـد مغشـياً عليـه. المزيـد مـن الـرؤوس تتدحـرج في االسـاحة، والمزيـد مـن المسـلحين يلعبـون بهـا. تظـل بقايـا الجثـث المنهوشـة في السـاحة.. مشـهد يقطِّـع القلـوب، فتجيـش مشـاعر النسـاء ويتوسـلن إلى أحـد حملَـة السـيوف بـأن يرحمـوا الجثـث الآدميـة ويواروهـا الـثرى، فيجيبهـن بـأن أصحابهـا أنجـاس وخنازيـر. وعندمـا تلـحُّ إحداهـن بالرجـاء، يطلـق صليـة مـن رشاشـه فـوق رؤوسـهن، فيهربـن إلى القبـو. ألم يتعلـم المجاهـدون في سـبيل اللـه شـيئاً مـن الطائـر الـذي دفـن أخـاه؟

ويرسم الكاتب المشهد الفاجر والمثير للرعب:

"اللعـب بالـرؤوس مسـتمر والضحـك الفاجـر مسـتمر والتهكـم مسـتمر. السـيوف تلمـع عـلى الجوانـب، واللحـى تتطايـر في الهـواء، والوجـوه المرعبـة تمـلأ الفـراغ، عيونهـم تنـثر الـشرر السـام، ووجـوه السـاكنين صفـراء تكتنـز الغضـب والخـوف .. الـرأس تتناولـه الأرجـل، والعينـان منتزعتـان مـن محجريهـما..."

وعندمـا يتسـلل أبـو معـروف إلى السـاحة في اليـوم السـادس، فإنـه لا يـرى بقايـا الجثـث، باسـتثناء كـفِّ إنسـان- بـل كـفٍّ كانـت لإنسـان- عـلى الرصيـف "ترتفـع عاليـاً في وجـه كل شيء، في الوجـوه الوحشـية، في الكلـمات المخـدَّرة، في مرتسـمات الأسـئلة وخريطـة الـكلام" رمـزاً للتحـدي والمقاومـة في أحلـك الظـروف ومـن قلـب الهزيمـة.

اليوم الرابع، 2013/12/14: "مشاهد.. مقارنات.. أسئلة"

القائـد الشيشـاني للمسـلحين يقـوم بالتفقُّـد اليومـي واسـتجواب الأهـالي بطـرح الأسـئلة نفسـها: مـا اسـمك؟ مـن أنـت ؟ مـا دينـك؟ ينظـر إلى الكاتـب ويخاطبـه

بـازدراء معلقـاً عـلى لحيتـه، ويأمـره إمـا بإطلاقهـا أو حلقهـا لأنهـا تُذكِّـره باليهـود. لكنهـا لا تذكِّـره بتعـاون جبهتـه الوثيـق والمسـتمر والمتعـدد الوجـوه، ولا سـيما العسـكري، مـع اليهـود في الجـولان المحتـل عـلى الإطـلاق!

يُرعـد التكبـير في عنـان السـماء عـشرات المـرات يوميـاً، فمـع كل تكبـيرة يتدحـرج رأس أو تُزهـق روح إنسـان بالرصـاص. يتذكـر الكاتـب بيـت الزبـداني، شـقاء العمـر الـذي أصبـح أثـراً بعـد عـين، ومكتبتـه التـي التهمتهـا النـيران والتـي كانـت تضـم نحـو ثمانيـة آلاف كتـاب. وينظـر إلى مكتبتـه الحاليـة في بيـت عـدرا التـي تضـم عـدداً مشـابها مـن الكتـب والدوريـات الثقافيـة في مختلـف حقـول الأدب والفـن والتاريـخ والفلسـفة، ويتسـاءل عـمَّ سـيحل بهـا. هـل سـيحرقها التكفيريـون كـما فعـل أبـو يوسـف يعقـوب المنصـور بمكتبـة ابـن رشـد ومؤلفاتـه في عـام 1194 بتحريـض مـن أسـلافهم في الأندلـس، أم يلقونهـا في نهـر بـردى كـما فعـل هولاكـو بمكتبـات بغـداد عندمـا ألقوهـا في نهـر دجلـة عـام 1258؟ أم سـينهبونها ويقذفونهـا عـلى قارعـة الطرقـات؟ أم يبيعونهـا أو يسـلمونها لمشـغليهم كـما فعـل تنظيـم داعـش وقبلـه لصـوص أمريـكا وإسرائيـل بكنـوز العراق؟ ومـا دام الظلاميـون والتكفيريـون لا يؤمنون إلا بالثقافـة الوهابيـة الصحراويـة، وكل مـا عداهـا كفـر وتجديـف وشِرك، فـإن مـن المرجـح أن يختـاروا طريقـة الحـرق تيمُّنـاً بمـا فعـل أسـلافهم بمكتبـة الفيلسـوف ابـن رشـد ومؤلفـات الحـلاج وغيرهـما. ولأن جهنـم، وبئـس المصـير أُعـدَّت لمثـل هـؤلاء المثقفـين "الكفَـرة" ووقودهـا النـاس والحجـارة، فإنهـم سـيضيفون نوعـاً ثالثـاً مـن الوقـود، وهـو الكتـب، حيـث سيشـكِّل مشـهد ألسـنة النـيران وهـي تـأكل الصحائـف وتـشرب الحـبر مـن شرايينهـا كرنفـالاً للتكبـير ومعراجـاً نحـو مخـادع الحـور العـين.

اليوم الخامس، 2013/12/15: الشيشاني و "الأجدب"
البحث عن مفتاح باب الجنة

الـصراخ يعلـو، جولـة التفتيـش اليوميـة تبـدأ. أمـام أحـد المبـاني يقـف شـخص يسـميه أهـل الحـارة "الأجـدب"، وهـو في الحقيقـة ليـس أجدبـاً بـل رجـل سـاذج ومسـكين يعيـش مـع زوجتـه بهـدوء. يذهـب إليـه القائـد الشيشـاني، ويديـر معـه هـذا الحـوار القصير:

- أين مفتاح باب الجنة؟
- (بسذاجة): المفتاح ليس معي يا أخي!

يضربه الشيشاني بأخمص البندقية على رأسه، فينفر الدم منه، ويعيد السؤال:

- أقول لك أين مفتاح باب الجنة؟
- (مرعوباً) المفتاح ليس معي!

ينهال عليه أفراد مجموعة الشيشاني بالضرب والركل، فتتوجه إليهم زوجته بطلب الرحمة والرأفة بحاله، لكنهم يأمرونها بالذهاب إلى بيتها. وبعد أن يداوي جروحه الصيدلي الذي يزاول مختلف التخصصات الطبية، يخرج "الأجدب" ليقول للجيران: يا ناس من أين لي أن اعرف أين مفتاح باب الجنة، من أين؟ وما لا يعرفه المسكين أيضاً هو أن مفتاح الأبواب الثمانية للفردوس المنشود معلَّق بحد سيف الشيشاني أو فوهة رشاشه.

اليوم السادس، 2013/12/16: "ميسون.. نزار.. بِشر.. كريم.. في الموت!"
القُبلة الأخيرة ..القنبلة الأخيرة

ميسون تسمع وقع أقدام الإرهابيين الذين يقتحمون البيت من جهة البراندا، وتقول لنزار إن اليوم يومهم، تحتضن بِشر وتُقبِّله، تحتضن كريم وتُقبله، تبكي ويبكي كريم. تُقبل نزار القبلة الأخيرة، وبحوزتها القنبلة الأخيرة، فتقرر مقاومتهم بها لأنها تنشد الشهادة الثمينة، لا الموت الرخيص. تقذفهم بها وتقتل خمسة منهم قبل أن تموت. يطلقون رصاص رشاشاتهم على العائلة، فيستشهد نزار وكريم وتُصاب ميسون ولا تموت، تُقطع رجلها، ثم يسحلونها في الشارع حتى يهترئ لحمها الحي، لكنها تسخر منهم، وهي "مثل الكلمات الصادقة الملتزمة تبقى حيَّة فينا، لا تموت"!

اليوم السابع، 2013/12/17: "الدكتور فراس سلامي.. والإيثار والنبالة"

فراس سلامي الصيدلي وطبيب الأسنان والجرَّاح بجميع التخصصات يعمل دون مقابل، وهو مثال الإيثار والطيبة والشجاعة والنبل والإنسان الرائع صاحب القلب الكبير. يعمل حتى الساعة الرابعة في الصيدلية، ثم يتولى مهمات طبيب الحي الذي يداوي الجميع مجاناً.. لا تهمُّه النقود، لا يخيفه الموت. فراس سلامي ينجو من الموت، فراس سلامي يستحق الحياة مثل سوريا، التي تستحق الحياة وتستحق أن نموت من أجلها.

اليوم الثامن، 2013/12/18: "أبو علي الستيني وعائلته"
أبـو عـلي عامـل كادح لم يتلـوَّث ضمـيره، ولا يملـك سـوى هـذا البيـت، تحويشـة العمـر، الـذي يقـع في الجزيـرة التاسـعة. وهـو أب لولديْـن وبنتـين يدرسـون في الجامعـة. وعندمـا عـرف أن الـدور سـيصله عـمًّا قريـب، صمَّـم عـلى الهـرب وخطـط لـه بدقـة. في منتصـف الليـل خرجـوا جميعـاً، كتمـوا أصواتهـم وسـاروا ببـطء وهـم لا يحملـون سـوى الأوراق الثبوتيـة إلى أن وصلـوا إلى الأوتوسـتراد، عندمـا اكتشـف أبـو عـلي أنـه نـسي إحضـار بقيـة راتبـه، وأصرَّ عـلى العـودة إلى منزلـه لإحضـاره. غـير أن المسـلحين كانـوا لـه بالمرصـاد. طـرق أحدهـم بابـه، فعـرف أن منيَّتـه حانـت، وقـرر ألا يسـتكين للدنيَّـة. حمـلَ سـكين المطبـخ وكمـنَ وراء االبـاب، وعندمـا أطـلَّ المسـلح برأسـه عاجَلـه بطعنـة بـكل قوتـه، فانهمـر عليـه رصـاص المسـلحين. فاضـت روح أبي عـلي، لكنهـا لم تكـن رخيصـة.

اليوم التاسع، 2013/12/19: "أُم سامي وابنتها"
أبـو سـامي، عامـل مـن جبـل العـرب، يسـكن مـع زوجتـه وابنتـه الصبيـة في عـدرا، بينـما يسـكن ابنـاه في دمشـق، ورقابهـم جميعـاً مطلوبـة للسـيوف المتعطشـة للـدم عـلى المذهـب. يـأتي المسـلحون بعـد العـصر، وينتزعونـه مـن أيـدي زوجتـه وابنتـه. أم سـامي عرفـت أنهـم سـيعودون إليهـما، فقـررت الهـرب مـع ابنتهـا. انطلقتـا تحـت وابـل مـن الرصـاص حتـى وصلتـا إلى الطريـق العـام، وأصبـح لديهما فسـحة للتسـاؤل: "لمـاذا يحـدث هـذا لنـا؟ هـل لأننـا موحِّـدون؟ لأننـا مـن أهـل العقـل؟ لمـن التوحيـد والعقـل؟ أليسـت الأديـان لـكل النـاس؟" انظـروا كيـف يثـير العقـل والتوحيـد شـهية قتـل صاحبهـما ويُسـيلان لعـاب القاتـل عـلى الهويـة الفرعيـة!

اليوم العاشر، 2013/12/20: "أبو وليد يكاد يموت على سيجارة"
أبـو وليـد متقاعـد في الخامسـة والسـتين مـن العمـر، أولاده مهاجـرون وزوجتـه عنـد أولادهـا، فبقـي لوحـده في البيـت، وكان يخطـط لرؤيتهـم في الربيـع. وهـو عـلى أي حـال لا يبتغـي مـن هـذه الدنيـا سـوى راحـة البـال. أبـو وليـد مدخـن شرِه ومدمـن عـلى التدخـين، وعندمـا "ينقطـع" مـن الدخـان يذهـب إلى العـمارة المجـاورة ليطلـب سـيجارة. في ذلـك اليـوم جـاء الوحـوش، وسـألوا الواقفـين هنـاك عـن أماكـن سـكناهم، فيجيـب أبـو وليـد أن بنايتـه هنـاك وأنـه جـاء كي يتسـلَّى، فصفَعـه أحـد المسـلحين

صفعـة قويـة أخـذ يترنَّـح مـن جرَّائهـا وكاد يسـقط أرضـاً. أبـو وليـد يجهـش بالبـكاء بصـوت عـال، بينـما ينفجـر المسـلحون بالضحـك. يُهـان أبـو وليـد، يُسـتفز أبـو وليـد، فيعلـن بأعـلى صوتـه عـلى الملأ تركـه كل مـا يمـتُّ بصلـه للأديـان، ويحلـم بسـيكارة وكأس شـاي عـلى رابيـة قريتـه بالجـولان.

اليوم الحادي عشر،2013/12/21: "ماذا تفعل أيها الشيح الهرم؟"

القائـد الشيشـاني هـو الـذي يتسـلىَّ بـإدارة التحقيقـات مـع أهـالي عـدرا، و مـن بينهـم أبـو عبـدو:

- ماذا تفعل أيها الشيخ الهرم ؟
- أنتظر!
- ماذا تنتظر؟
- عمري ست وسبعون سنة..
- تنتظر النهاية؟
- نعم!

الأرض كلها تَسبُّ وتلعن.. وتُسمع لعناتها الأبدية في السماء السابعة.

اليوم الثاني عشر، 2013/12/22: "أبو عمار.. أم عمار ... عمار"

يلجـأ أبـو عـمار وأم عـمار وابنهـما عـمار إلى بيـت يوسـف لأنـه يقـع في الطابـق الأول وأكـثر أمانـاً ويلجـأ إليـه بقيـة الجـيران، لكـن أبـا عـمار وزوجتـه وابنـه يأتـون لسـبب آخـر، لأنهـم مطلوبـون للمسـلحين عـلى الهويـة. في اليـوم الخامـس يصعـد أبـو عـمار إلى بيتـه لتفقُّـده، فـيراه المسـلحون ويقبضـون عليـه. وبعـد يومـين تصعـد أم عـمار إلى بيتهـا فيقبضـون عليهـا كذلـك. يبقـى عـمار مـع يوسـف إلى أن تحـين رحلـة الخـروج الأليمـة في اليـوم العشريـن، إلا أن مصـير أبي عـمار وأم عـمار لا يُعـرف حتـى الآن.

اليـوم الثالـث عـشر، 2013/12/23: "أبـو إبـاء.. وعـشرون شـخصاً في الطابـق الأول.. ومأسـاة البنـاء 179"

شـبلي إليـاس يسـتيقظ اليـوم باكـراً وهـو يفكـر بمـا سـيفعل. أبـو إبـاء مهنـدس في الإسـكان مـن سـكان المبنـى رقـم 179 في الجزيـرة الثامنـة، يـؤوي في منزلـه ثـلاث عائـلات مؤلفـة مـن عشريـن شـخصاً، بينهـم الطفلـة غـروب جمعـة التـي تركهـا أهلهـا

في عهدته حتى يأتي فرَج الخروج. شبلي رجل شهم وإنساني وكريم ونظيف اليد، يحب جميع الناس ويحبونه. وهو لا يزال يؤمن في داخله بأن الحياة جميلة وأنها تستحق أن تُعاش على الرغم مما يرزحون تحته من أهوال. المهندس أبو إباء يتسم بصلابة الموقف ولا يرتعد أمام المسلحين المتوحشين، لكن حين يضجُّ الطابق الأول في المبنى 179 بالأنفاس الإنسانية والجميع ينتظر الفرج من الله، يتساءل في نفسه: إلى متى؟ فتقفز من بين جفنيه دمعة، يمسحها بكبرياء، ويقول مواسياً نفسه: "قد يمسح البكاء بعض الحزن"، ويجهش بالبكاء.

قصص نجاح الإنسان: منظومة القيم النبيلة تحت النار

***القصة الأولى: اليوم الرابع عشر 2013/12/24، "أبو أحمد .. أبو يامن .. والموت":**

أبو أحمد يحمي جاره "أبو يامن" لمدة تسعة أيام. في اليوم العاشر يأتي المسلحون. يحسُّ أبو يامن بالخوف، لكن أبا أحمد يطمئنه بالقول إنه إذا جاء الموت فإنه سيكون معه. وها هو الموت يأتي مجسَّداً بقائد المجموعة المسلحة، الذي يقف أبو أحمد أمامه ويضع جاره خلفه، ولسان حاله يقول: "على جثتي".

- دعه وإلا قتلناك معه!
- إنه يستجير بي ولن أدعه. ألا تعرفون أخلاق العرب؟
- سأعدُّ حتى الثلاثة فقط، وإلا..

لا يأبه "المجاهد" المغوار بأية أخلاق، لا عربية ولا إسلامية ولا بطيخية. يبدأ العد ويصل إلى العدد "ثلاثة"، لكن أبا أحمد لا يترك جاره. يُسمع رعد التكبيرات وينهمر مطر الرصاص على كليهما. قبل أن يسقط أبو أحمد يبصق على المسلح بصقة تملأ وجهه ويغطي رذاذها وجه هذا الكون.

***القصة الثانية: اليوم الخامس عشر، 2013/12/25، "البنتان المودَعتان وآه من يوم كهذا" :**

في اليوم الثالث للحصار تعتزم أم رهف الهرب مع زوجها الذي يرصد المكان ويخطط لكيفية الهرب ويحدد زمانه. لكن تبقى مشكلة الطفلتين رهف، وهي

في السابعة من العمر، وسامية في الثالثة. تبادر الجارة الوفية أم محمد بإعلان استعدادها لإبقاء الطفلتين عندها، فهما مثل أولادها. وهكذا كان، فقد هرب الزوجان ومكثت الطفلتان حتى يوم الخروج. أم محمد تبدأ المسير حاملةً الوديعة/الأمانة- رهف وسامية- مع أولادها، ولن تتركهما. لكنها لم تعد تستطيع الحمل، وفي الوقت نفسه لن تتخلى عن حمل الأمانة، فتجلس على الأرض وتلوذ بالبكاء ويبكي الأطفال. ثم تقف على قدميها وتستأنف المسير، وكلما سقطت عل الأرض، نهضت من جديد. "ينتخي" رجل متطوع، يحمل أحد الأولاد والطفلة سامية، ويغذُّون الخطى إلى أن يصلوا إلى مقبرة السيارات، حيث يظهر والدا رهف، فينخرط الجميع في بكاء الفرح، لكن بطعم مُر.

***القصة الثالثة: اليوم السادس عشر 2013/12/26، "أسئلة سلمى":**
الزوج غائب، ولذا فإن سلمى وابنها سليمان يبيتان عند الجيران، ينتقلان من بيت إلى بيت، بكل طيبة وترحيب، حيث يؤكد لها أحد الجيران: "بسواك ما بسوانا، أيتها الجارة النبيلة، وابنك ابننا.." الأكل واحد والبسمة واحدة والتوجس واحد والقلق واحد، وهكذا إلى أن أتى يوم الخروج.

خرج الجميع بعد أن غرز الجوع أنيابه الأشد فتكاً من سيوف الإرهابيين في أجسادهم. لم يبق لديهم شيء يخافون عليه، فتحرروا من خوفهم.. كفروا، فالجوع كافر، اقتلعَوا مُضغة الخوف من قلوبهم فظهرت شجاعتهم المكبوتة. خرجت جموع السكان العزّل اليائسين، لكنْ الغاضبين والمصممين، إلى الشارع بصدورهم، بجوعهم، بآخر "سهم" في جعبتهم: الحياة أو الموت، الطعام أو الخروج أو الموت، يواجهون الرصاص الحي والسيوف القواطع، فكانت النتيجة العظيمة المدهشة: خافَ المسلحون! فقالوا لهم: "غداً ستخرجون":

"وهكذا خرج الجميع بأيديهم، بدون أي شيء سوى الملابس التي على أبدانهم.. هكذا مشينا.. كل الجيران معاً، كل المدينة العمالية، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وبعضهم شبه مقعدين، هكذا خرجنا من الجحيم وتركنا تحويشة العمر وذكريات العمر وصور العمر."

*** القصـة الرابعـة: اليـوم السـابع عـشر2013/12/27، "أبـو سـلطان لا يسـتطيع إكـمال البسـملة:**

بـرْد وخـوف وصـوت مرعـب يأمـر جميـع الرجـال بالخـروج مـن الأقبيـة، وجوههـم إلى الجـدار وأيديهـم إلى أعـلى، ويسـأل: أيـن أبـو شـادي؟ لا أحـد يـردُّ. يُعيـد السـؤال بنـبرة أعـلى. أبـو شـادي لا يـزال مختبئـاً في القبـو، لكنهـم جميعـاً متضامنـون معـه، ومتفقـون عـلى ألا يـشي بـه أحـد. أبـو سـلطان يرتعـد خوفـاً، سـاقاه، يـداه، شـفتاه، جسـمه كلـه يرتعـد. يحـاول البسـملة، لكنـه لا يسـتطيع إكمالها، يبسـبس: بسـ..بسـ.. بسـ يـصرخ أحـد المسـلحين بجـاره محمـود الـذي يقـف بجانبـه:

- ما هي فرائض الوضوء؟

بصعوبـة بالغـة يجيبـه أبـو محمـود.، فيأمـره بالعـودة إلى الجـدار. تـزداد رجفـة أبي سـلطان، وتُنسـيه كل شيء. بـات يخـاف مـن التكبـير، يخـاف مـن كل شيء. أبـو سـلطان يسـقط أرضـاً وهـو يبسـبس، لا يسـتطيع أن يكمـل البسـملة مـن الخـوف، لكنـه لا يـشي بـأبي شـادي.

*** القصة الخامسة: اليوم الثامن عشر، 2013/12/28 "بندر تبقى هناك":**

منـذ الصبـاح الباكـر تبـدأ عائلـة أبي أسـعد بجمـع الوثائـق الضروريـة، كالهويـات ودفـتر العائلـة وسـندات البيـت، استعداداً للرحيـل. أمـا بنـدر، خالـة أم أسـعد التـي تعيـش مـع العائلـة، فإنهـا تبـكي وتنـوح بصـوت خافـت.. فكيـف تذهـب وهـي شبه مُقعـدة؟ أصبـح الجميـع جاهزيـن للمسـير، وأبـو أسـعد مسـتعد لحمـل الخالـة بنـدر، ولكـن مَـن سيحمل الأولاد؟ تُقـرر الخالـة بنـدر المكـوث هنـا كي يتسـنى لـلأب والأم حمـل الأطفـال. ترفـض أم أسـعد ويرفـض أبـو أسـعد، لكنهـا تـصر عـلى ذلـك. عندمـا أزفـت السـاعة، ودَّعتهـم الخالـة بنـدر وهـي تجهـش بالبـكاء وتلـوِّح بيدهـا "وتسـتدعي الكـون في دعـوات لا تنتهـي.." الخالـة بنـدر تبقـى هنـاك تحـت رحمـة المسـلحين الذيـن لا يرحمـون كي يصبـح بالإمـكان إنقـاذ الأطفـال.

اليوم التاسع عشر، 2013/12/29، "المواجهة" :

سـكان الجزيـرة السـابعة.. الطعـام ينفـد، الصـبر ينفـد.. الـروح تنفـد، كل شيء ينفـد. الكيـل طفـح، ولم يعـد يتسـع لقطـرة واحـدة، والسـيل بلـغ الـزبى، وسيُغرق الجميـع حتـى لـو كانـوا عـلى ظهـر سـفينة نـوح. ولـذا فقـد اتفقـوا عـلى الخـروج، أطفـالاً

وشيوخاً، رجالاً ونساءً. تسقط قذيفة.. تتطاير الأشلاء البشرية وتختلط بالتراب والحجارة. يجتمع السكان ويبحثون عن ذويهم ويجمعون أشلاءهم، يحفرون حفرة في الحديقة ويدفنون فيها موتاهم- ست جثث تُوارى التراب، وهم محظوظون لأنهم وجدوا من يدفنهم. يُفتي الإرهابيون بأن موتاهم في الجنة وموتى عائلات عدرا العمالية في النار، ولذا فقد شبَّهوها بمعركة أُحد. بعد ساعة يجتمع الآلاف في هذا الشارع وفي شارع آخر، ويبدأون بصراخ هستيري، ويا له من مشهد عظيم وحاسم وبليغ! فقد قال الناس الكلمة الفصل ومارسوا الفعل الفصل:

"نصرخ، نريد الطعام، نريد..نريد.. نريد.. يحاول المسلحون التهدئة، يهددوننا بالرصاص، ويطلقون النار فوق رؤوسنا.. لا نهرب، يطلقون النار مرة أخرى، يحاولون إرهابنا.. لا نسكت.. يمسك الشباب بأحد المسلحين، يضربونه بالأيدي العارية حتى يلفظ أنفاسه.. ونستمر في الصراخ، حتى قالوا: غداً ستخرجون، ونظل نصرخ لساعات حتى بدا أنهم خافوا من المواجهة" مع أهالي عدرا الجسورين المتكاتفين.

اليوم العشرون، 2013/12/30: "فُسحة الخزانة المغلقة"

تصدر الأوامر عن المسلحين بنزول السكان إلى الأقبية، فيحتار أبو علي أين يتوارى لأنه مطلوب بالاسم، ويهددون الأهالي بالرشاشات والبلطات إذا تستروا عليه. يفكر أبو سليمان صاحب الطابق الأول بحل، ويهتدي إلى مكان خلف خزانة، يغطي سقفها وجوانبها "بكراكيب" البيت، حيث يُمضي فيه أبو علي كل وقته ولا يخرج منه إلا لقضاء الحاجة. وفي صبيحة اليوم قبل الأخير تسقط "الكراكيب" على رأس أبي علي، فيصاب بالرعب ويأخذ بالصراخ بأعلى صوته.. يهدِّئ أبو سليمان من روعه ويعود أبو علي إلى مخبئه حتى يخرج مع الأهالي تاركاً خلفه كل شيء، وينجو بالأغلى من كل شيء، ينجو بروحه.

القسم الثاني: سفر الخروج.. مشاهدات أم دراسة حالات؟

يضم القسم الثاني من كتاب التسجيلات هذا مشاهدات الكاتب محمد خالد رمضان منذ لحظة انطلاق رحلة الخروج المحفوفة بالمخاطر والمليئة بالأهوال لكن المفعمة بالمشاعر الإنسانية والقيم النبيلة، من مدينة عدرا العمالية

بعـد حصـار خانـق ومتوحـش دام واحـداً وعشريـن يومـاً تحـت سـيطرة مسـلحي "جبهـة النـصرة". وقـد سـجَّل هـذه المشـاهدات تحـت عنـوان "سـفر الخـروج"، في اسـتعارة شـائعة بـين الكتـاب العـرب في الأدبيـات العربيـة لسرديـة أسـطورية توراتيـة منحـازة لقبيلـة بدويـة يهوديـة متوحشـة ضـد دولـة مـصر الفرعونيـة ذات الحضـارة العريقـة- بـدون أن يكـون ذلـك مقصدهـم طبعـاً- حيـث تخـرج تلـك القبيلـة مـن "أرض الأعـداء الكفـار" مـصر إلى "أرض الميعـاد" الإلهـي فلسـطين. واسـتعارة الروايـة هنـا أمـر لا يسـتقيم لأن عـدرا أرض سـورية وأهلهـا مواطنـون سـوريون خارجـون مـن أرض سـورية محتلـة مـن قبـل إرهابيـين مـن شـتى بقـاع العـالم إلى أرض سـورية محـررة.

إنَ هـذه المشـاهدات أشـبه مـا تكـون بدراسـة حـالات أنثروبولوجيـة case studies ، وكأن مَـن كتبهـا باحـث أنثروبولوجـي عـاش في المـكان والزمـان الواقعيـيْن وفي قلـب الحـدث المأسـاوي البطـولي بـكل تفاصيلـه وبـين شـخوصه، ودرسَ أوضاعهـم الاجتماعيـة والاقتصاديـة وسـبرَ أعماقهـم النفسـية والعاطفيـة:

الحالة 1

أبـو يونـس حائـر بـين والدتـه وزوجتـه وولديـه؛ فوالدتـه شـبه مُقعـدة، لا تسـتطيع السـير عـلى قدميهـا.. فـماذا يفعـل؟ الجميـع تقريبـاً قـرر المسـير! هـل يـترك والدتـه، وهـي التـي حُبُّهـا عبـادة والجنـة تحـت قدميهـا ويخـرج بدونهـا؟ لا! هـل يبقـى في عـدرا وهـو لا يعـرف مـا سـيحدث؟ لا أيضـاً! إذن يقـرر أبـو يونـس المسـير عـلى عجـل.. تحمـل زوجتـه بعـض الأكيـاس ويحمـل الأولاد بعضهـا الآخـر، جسـم والدتـه ثقيـل والمشـوار طويـل. يحمـل أبـو يونـس والدتـه عـلى ظهـره، ينظـر إلى البيـت نظـرة أخـيرة، يبـكي بـكاء مكتومـاً، والوالـدة والزوجـة تبكيـان.. يتذكـر تعبـه وشـقاءه ومـا سـكبَ فيـه مـن عرَقـه وكـدّه. يحمـل ابـو يونـس أمـه ويسـير بهـا بهمَّـة كبـيرة عـلى أرض موحلـة ومثلجـة. وكلـما قطـع بضـع عـشرات مـن الأمتـار وقـفَ ليلثـم يديهـا، إلى أن وصلـوا إلى مقـبرة السـيارات بأمـان.

الحالة 2

يقضي يعقوب الليل بطوله وهو يحضِّر حقيبته المدرسية. يبدأ بكتب الصف السادس وبعض المجلات الغالية عليه والصور ودفتر الذكريات.. "يضبضب" أغراضه ويبكي .. يلاحظ أبوه يوسف فيبكي على ابنه، تلاحظ أمه وائلة فيُبكيها المشهد. ينتهي يعقوب من جمع كل الأشياء التي يحبها، ويضعها في حقيبته المدرسية.

في الصباح يبدأ الخروج، يحمل يعقوب حقيبته على ظهره، وملابس أمه في كيس بيده اليمنى وملابس أبيه في كيس آخر بيده اليسرى، ويسير في الوحل والثلج. يتعب يعقوب، يسقط بحمله على الوحل والثلج مرة.. مرتين.. ثلاثاً، يساعده أبوه على الوقوف ويأمره بحزم:

- ضع حقيبتك المدرسية على الأرض.

- لا يا أبي! يصرخ يعقوب. لكن الوالد يصرُّ، فالصغير لا يستطيع حملها، وينصاع لأوامر أبيه، يضعها أرضاً ويلوِّح لها مودعاً!

"أنظر.. فأرى الأرض تبكي والسماء تبكي، وينخرط الجميع في بكاء مُر".. لكنهم نجوا!

الحالة 3

توفيق يسير مع أولاده مسرعين متأبِّطين أغراضهم القليلة الضرورية. على الطريق العام يلتقي بشاب يحمل على ظهره رجلاً ثمانينياً يصرخ بحامله أن انزلني، والآخر لا يستجيب، بل يتابع حمله على ظهره، بينما يحمل في يده ولداً صغيراً، حتى يصل الجميع إلى شبه تلة يضطر فيها الحامل الابن أن يُنزل المحمول الأب عن ظهره وهو لا يزال يصرخ:

- ضعْني هنا ضعني هنا، فأنا أرى مقدار تعبك!

يرتاح توفيق قليلاً مع الناس، ثم يواصل حمل أبيه وابنه، بعد أن يربطه على جسمه ربطاً محكماً.

وهكذا حملَ توفيق أباه وابنه وبعض أغراضه وسار بهما حتى وصلوا جميعاً قريباً من التلة.

الحالة 4

كان همُّ فراس الأكبر، منذ علمَ بموعد الخروج من عدرا، كيف يمكنه أن يخرج بوالدته شبه المُقعدة "فلك الطير"، فأخذ يدبر الوسائل ويتساءل: هل يحملها، وهي من الوزن المتوسط ومريضة بالقلب وهو من الوزن الثقيل جداً؟ هل يستأجر أحداً لحملها معه؟! هل أخته أم زينب قادرة على ذلك، بالإضافة إلى أعباء أولادها وعائلتها؟ أخذ "يضرب أخماساً بأسداس" متسائلاً حائراً. غير أنه لم يستطع إيجاد حل، وقليلاً ما وجد النوم إلى عينيه سبيلاً. حضَّر بعض الأشياء الضرورية كالأوراق الثبوتية، واهتمَّ بأخته. حملَ أمه على ظهره وسار حوالي مئة متر، ثم أعياه الحِمل فتوقف ووضع أمه على التراب، وأخذ يبكي.. بكى فراس حتى شهَق، وبكت زينب حتى شهَقت... لكنهم خرجوا!

الحالة 5

منذ علم أبو أنس بأن موعد الخروج غداً وهو يوضِّب أغراضه البسيطة ويتحضَّر للسفر.. أبو أنس يعيل خمسة أولاد، أحدهم مريض بالقلب وبحاجة إلى عناية فائقة، بالإضافة إلى والدته التي تعيش معه أيضاً.

حضَّر الثبوتيات اللازمة وبعض الثياب. كان من المفترض ألا يحمل الكثير من الأغراض لأن ذلك سيستغرق وقتاً أطول. أبو أنس ظلَّ حائراً طوال الليل، وظلَّ "يحوص" في الغرفة حتى الشروق.

الجميع مستعد. زكريا يمسك بيد أمه، إضافةً إلى بعض الأغراض، الوالدة تمسك بيد أبي أنس مع بعض أغراضه على صدره وظهره وبعضها في يده. أبو أنس يكدّس الأغراض، وبالكاد يستطيع التحرك. تنطلق "القافلة" من أمام البناية، فتُطلق رشقة رصاص فوق رأس أبي أنس وأولاده المحمَّلين بالأغراض، تضطرهم إلى العودة أدراجهم إلى باب البناية. وكلما حاولوا المرور، قابلَهم وابل من الرصاص. وأخيراً يقرر أبو أنس أن يعبروا دفعة واحدة وبأقصى سرعة، ويصلون إلى الطرف الآخر من الشارع كومةً بشرية، وقد أُصيب أكثرهم بجروح.. لكنهم عبروا..

الحالة 6

الطريق طويل والناس يسيرون بهمَّة، وقلَّما يلتفت بعضهم إلى بعض، فالمسير يبتلع أقدامهم وانتباههم. مِن بين السائرين يُرى رجل خمسيني طويل القامة يحمل على ظهره والدته فارعة الطول ويسير بها بهمَّة قوية كذلك. تُقابلهم تلة صغيره، لا يأبه بها، لكن الطقس الفظيع يصنع من كل عثرة خطورة. التلة ملأى بالحجارة الصغيرة ومفروشة بالصقيع والثلج الذي لم يكن قد ذاب.. وفجأة يتزحلق الرجل ويسقط بقوة على ظهره، فيصرخ من قلب مجروح "آخ آخ يا أمي" ماذا أفعل؟ ليس لي غيرك، فقد تركتُ ورائي كل شيء، كل شيء، لا تموتي أرجوك، فقط رفرفي بعينيك كي أعرف أنك ما زلت على قيد الحياة."في هذه اللحظة يرى رموش عينيها ترفرف بثِقلْ.

الحالة 7

أُم فداء تذرع البيت جيئةً وذهاباً، يلتهمها وحش القلق والخوف وتقول: "سيكتشفونني"، فهي مسيحية. يطمْئنها توفيق: "سَكِّري بيتك وأبقِ عندنا، أنت أمي ولن يعرف أحد غير ذلك." وهكذا صار.. أغلقت أم فداء بيتها المستأجَر ونزلت في بيت أبي توفيق. أتى المسلحون وسألوا عن الجميع فرداً فرداً.. فقدَّمت أم فداء نفسها على أنها أم توفيق، ولم يلاحظوا ذلك بالفعل.

في يوم الخروج سارت هذه المرأة الثمانينية على مهل، وتوفيق لا يترك يدها. سارت إلى جانبه بعزم وكيسُه على ظهره، وهو يحثها على متابعة السير:

- هيا يا أمي .. هيا يا أمي ... سنصل.

أصبح المكان قريباً فعلاً.. بينما كانت أم فداء ترتِّل تراتيل العذراء أثناء السير.. وتراتيل الصباح.

الحالة 8

أبو خالد، ابن الحارة، الرجل الطيب المعشر، يعيش مع زوجته ووالدته الثمانينية وأبنائه الأربعة، أصغرهم هيفاء. ومنذ أن علم بأن الخروج الرهيب من عدرا سيكون غداً، بدأ يلملم أوراقه الثبوتية ومستنداته الهامة وبعض الملابس والنقود. ينبلج فجر اليوم الموعود، يوقظ أبو خالد الأولاد. أم خالد لا

تنسى أن تزيِّن شعر هيفاء بشريط زهري اللون، سيمكِّن أهلها من التعرف عليها عندما تضيع في طابور الخارجين.

يقترب دور أبو خالد على حاجز المسلحين، يلقي نظرة على الأولاد ووالدته وزوجته، هل يستطيعون حمل الجميع، إضافة إلى الأغراض والثياب؟ يقترب الدور، تنهمر الدموع من عيني أم خالد وأبي خالد، فتقول الوالدة، ودموعها تسقي أرض عدرا: "سأبقى هنا يا بني"، لكن الإبن يستحيل أن يتركها هناك، فيحملها على ظهره، يجول بعينيه بين الطوابير بحثاً عن هيفاء، فيرى طرف شريط شعرها الزهري من بعيد.

الحالة 9

عشيَّة الخروج حضَّر أبو ولاء وزوجته وأولاده أنفسهم للرحيل وجهَّزوا أوارقهم الشخصية وذاتياتهم وبعض الأغراض. في الوقت المحدد صباحاً ساروا على الطريق المؤدي إلى الأوتوستراد، هناك توقفوا بلا حراك، وكلما حاولوا التحرك هطلت عليهم زخات الرصاص كزخات المطر من كل اتجاه. صنعَ أبو ولاء من قماش الملابس نوعاً من الخيمة آوت إليها العائلة. هذا ممتاز، لكنهم جوعى وعطشى، يريدون ماءً، ولا ماء، يريدون خبزاً ولا خبز. وفي اليوم التالي وصلوا إلى درجة الهلاك. صمدوا حتى اليوم السابع، عندما أغاثهم الله بابن حلال يقود بك أب، وافقَ صاحبه على تحميلهم فيه، فعادوا إلى الحياة من الموت.. هذا ما قالوه.

الحالة 10

أبو عدنان لحام الحي، رجل طيب، إنساني، يحب الخير لجميع أبناء حيِّه. زوجته تعاني من مرض عُضال، ولديها عدد كبير من الأطفال. عندما علموا بأن الخروج غداً فرحوا جميعاً على أمل الخلاص من كابوس الإرهابيين. جمعَ أبو عدنان بعض مقتنياته وأعدَّ نفسه وعائلته للمسير.. لكن مشكلة أم عدنان تكسر القلب قبل الظَهر.. هل يُمسك بيدها وهي لا تقوى على المشي؟ هل يحملها وهو لا يستطع الحمل؟ مَن يعتني بالأولاد؟ طلب من ابنته التي لا تتجاوز الخامسة عشرة من العمر أن تعتني بالأولاد، وحمَل زوجته المريضة

حتـى أوصلهـا إلى مـكان سَـهل، حيـث وضعهـا عـلى الأرض، ليجدهـا أُصيبـت بنوبـة "كومـا" سـكري. فكَّـر بالحـل وهـداه تفكـيره إلى ربطهـا بلـوح خشـب، مدَّدهـا فوقـه وحمَلهـا مـع أحـد المتطوعـين الخارجـين.

الحالة 11

أم يوسـف موظفـة فقـدتْ زوجهـا قبـل خمـس سـنوات، وهـي أرملـة عـلى ثلاثـة أولاد تكـدُّ وتشـقى لـكي تطعمهـم وتسـقيهم. وبالـكاد تؤمِّـن خبزهـم كفـاف يومهـم. اشـتركت في الجمعيـة العماليـة بعـدرا مـن خـلال عملهـا في الجمعيـة الاسـتهلاكية للحصـول عـلى بيـت. وفجـأةً حـلَّ البـلاء الأعظـم. أرادوا منهـا أن تـترك البيـت مـع أولادهـا، فصـارت تولـول وتلطـم، تنـدب حظهـا وتلعنـه عندمـا أيقنـت أنهـا وأولادهـا سـيصبحون عـلى الحصـير، بـلا مُعـين أو مُعيـل.

الحالة 12

أم ديـاب مـن إحـدى قـرى الغوطـة الفقـيرة، عملـتْ في مؤسسـة حكوميـة بعـد أن نالـت شـهادة البكالوريـا. تزوجـت وأنجبـت أطفـالاً، ثـم استشـهد زوجهـا "فترمَّلـت عـلى أربعـة أطفـال". كابـدتْ في سـبيل توفـير حيـاة كريمـة لهـم. اشـتركت في جمعيـة عـدرا العماليـة السـكنية وصـارت توفـر أقسـاط المنـزل مـن راتبهـا المحـدود كي تعيـش مـع أطفالهـا في نعمـة الدفـئ، لا في وفـرة العيـش.

وذات يـوم أغـبر مـن غوامـض علـم اللـه جـاء عـلى أسـنَّة الرمـاح وحـدِّ السـيوف مَـن يُخرجهـم مـن مأواهـم الحلـم. اقتلعهـم مـن عشـهم وقـذف بهـم عـلى قارعـة الطريـق، فسـاروا تائهـين هائمـين عـلى وجوهـم المكفهـرَّة لا يلـوون عـلى شيء.

الحالة 13

أبـو عـماد مـن أفقـر النـاس في المدينـة العماليـة، ظـل يجمـع أقسـاط البيـت "لـيرة فـوق لـيرة"، وهـو يعيـش مـع أولاده معيشـة ضنْـكا، ولا يملكـون مـن حطـام الدنيـا شـيئاً. وعندمـا حانـت سـاعة الخـروج مـن البيـوت العماليـة، بـدأ أبـو عـماد بالـصراخ والعويـل، ولم يـرَ في ذلـك الصبـاح البهيـم إلا نهـاراً أسـودا، فأخـذ يخطـو خطـوة إلى الأمـام وأخـرى إلى الخلـف، وهـو ينظـر بـألم وحسـرة إلى بيتـه، بـل بيتـه الـذي كان.

شعرَ بصعود روحه من جسده.. لا يريد مغادرة المكان، تسمَّرت عيناه عليه، وسقط على الأرض بلا حراك لولا أولاد الحلال أيقظوه.

الحالة 14

عبد العظيم (أبو در) موظف بسيط وربٌّ عائلة كبيرة تتألف من ثمانية أفراد ويتقاضى راتباً متواضعاً. يسكن في بيت مستأجَر بمدينة عدرا العمالية على جمر انتظار دخول فردوسه المنشود، الذي بقي على استلامه بعض الوقت. ويوم سلَّمته مؤسسة الإسكان بيته، فرحَ عبد العظيم فرحاً عظيماً ورقصَ وغنَّى وراح يتلمَّس جدرانه وأبوابه ونوافذه بكفِّه.. صار يعشق كل ما فيه.

وعندما نادى المنادي "الغُراب" وأزفَت ساعة الرحيل، طفقَ كالمجنون يبكي وينوح ويتشبَّث بأرض البيت ويسقط على بلاطه. فإلى أين يذهب مع عائلته، ليس لهم مكان آخر ولا يملكون شروى نقير.. أيقطعون الدروب أم تتقطَّع بهم السبل؟ وفي نقطة معينة يتشبثون بالتراب ويُهيلونه على رؤوسهم ويقبعون هناك.

الحالة 15

قبل الخروج الكبير كان أبو يامن يعاني من آلام في مختلف أعضاء جسمه، ولا يستطيع السير إلا بشقِّ النفس. لذا يصعب عليه أن يحمل أولاده الثلاثة عبر المسالك الشاقة. يتطلع يميناً ويساراً وهو يحمل الأولاد، وأُمهم تنادي عليهم: فاطمة، مصطفى، حسن.. الصراخ يملأ الفضاء وأصواتهم المرتفعة تتداخل مع بعضها بعضاً، وأحياناً مع غيرها لشدة الآلام وكثرة المتألمين.

أبو يامن يتَّكئ على يديه وينادي على من يعرفه أحياناً، ويستمر في المسير، وعينه ترنو إلى الدرب الطويل. وسرعان ما يتعثر بالأرض ويسقط. أبو يامن يلعن الأرض والحياة والشتات، ويصبح كتلة من الألم والصراخ والبحث عن الأولاد، عن فاطمة ومصطفى وحسن و...

الحالة 16

سيل من البشر يتدفق في طريق الخروج، ستصبُّ فيه روافد عائلات بأكملها، ومنها عائلة أبي تمام، التي تتألف من سبعة عشر فرداً بين كبير وصغير. اندفعوا وهم يحملون أغراضهم القليلة، من أوراق ثبوتية ومقتنيات ضرورية، التي اتفقوا عليها ليلاً. يقف أبو تمام في أول الطابور وزوجته في وسطه والولد الأكبر في نهايته، فكانوا بمثابة شواخص العائلة. تبدأ المناداة على الأولاد: يا أحمد، يا حسين، يا هاشم، يا فاطمة... ثم يبدأ المسير في مجرى السيل البشري، ولا يدري أبو تمام نفسه إلى أين يتجه، يساراً أم يميناً. قيل له إن هناك معملاً للإسمنت ينبغي التوجه إليه. يعثر على المكان، فماذا يفعل؟ يقوم بصنع خيمة من الثياب والبطانيات التي يحملونها، ويأوي إليها الجميع، لكن بلا ماء ولا زاد. الصغار يجوعون ويعطشون ويخافون الظلام.. الصغار يبكون والكبار يحزنون، أما الإرهابيون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

هكذا استطاع أهالي عدرا العمالية كسر الحصار، وخرجوا منها غارقين بالدموع، مثخنين بالجراح، محمَّلين بالهموم ومعتَصرين بالآلام، مكبَّلين بالحيرة والضياع، لكن مجلَّلين بالغار وهازمين الموت بعشقهم للحياة وحبهم لوطنهم.

الأوديسة السورية -٦-
الجزء الأول

جرح الوطن
ديوان الجرح السوري والشعراء المجروحين

يغطِّـي هـذا الفصـل مجموعـة المختـارات الشـعرية "جـرح الوطـن"، مـن إعـداد وتقديـم الشـاعر محمـد حديفـي، سلسـلة الكتـاب الشـهري "كتـاب الجيـب"، العـدد 122، منشـورات اتحـاد الكتـاب العـرب، دمشـق 2017.

ويضـم هـذا الكتـاب قصائـد ملتزمـة لعـدد كبـير مـن الشـعراء السـوريين الذيـن وقفـوا مـع وطنهـم في محنتـه الممتـدة التـي بلغـت العشريـة الحالكـة في آذار مـارس مـن هـذا العـام، في سـبيل "الـذود عـن حياضـه وترابـه، وكي يعلـم القـاصي والـداني أن شـعراء الوطـن ومبدعيـه قالـوا كلمتهـم، وأن جـراح الوطـن النازفـة قـد شـكلت لديهـم الحافـز الوطنـي، فكانـت القصيـدة." وفي تقديمـه لهـذه المجموعـة الشـعرية بعنـوان "مـن ديـوان الجـرح السـوري" يقـول الشـاعر محمـد حديفـي إن هـذه القصائـد التـي جمَعهـا ويقدمهـا "تُغنِّـي أمجـاد الوطـن وتسـلط الأضـواء عـلى بطـولات جيشـه التـي وصلـت حـد الأسـاطير.. وإن هـؤلاء الشـعراء كانـوا في قلـب المعركـة ولم يكتفـوا بالكتابـة عـن صمـوده فحسـب، وإنمـا دفـع كثـيرون منهـم حياتهـم فـداء لـه ودفاعـا عـن ترابـه الوطنـي."

وفي ختـام تقديمـه يشـير الشـاعر حديفـي إلى أن القصائـد المدرجـة في هـذا الكتـاب تنتمـي إلى مـدارس عـدة، وأن بـين قصائدهـا فـوارق واضحـة مـن حيـث سـوِّيتها الفنيـة، وهـذا أمـر طبيعـي، خاصـةً "أننـا في هـذه المجموعـة نقـرأ قصائـد لشـعراء نهَلـوا مـن مناهـل عـدة، مختلفـة ومتمايـزة، مـما يـؤدي إلى الاختـلاف في التعامـل مـع اللغـة أو الصـورة الشـعرية أو طريقـة تنـاول الموضـوع."

وأنـا في هـذا المقـام أتفهَّـم مـا ذهـب إليـه الشـاعر محمـد حديفـي، فلسـتُ بصـدد مقاربـة مثـل تلـك الاختلافـات ولا ولـوج بـاب النقـد الأدبي، فهـذا مقـام آخـر ولـه وقـت آخـر بعـد أن تخـرس طبـول الحـرب عـلى سـوريا. وكنـت قـد أشرت الى هـذا h الأمـر في فصـل آخـر مـن هـذا الكتـاب.

المختارات

الشعر ليس حمامات نطيّرها نحو السماء ولا ناياً ريح صبا
لكنه غضب طالت أظافره ما أجبن الشعر إن لم يركب الغضبا

(تنويـه: ترتيـب أسـماء الشعراء/الشـاعرات وقصائدهم/قصائدهـن يتَّبـع الترتيـب نفسـه الـذي اتَّبعـه مُعـدُّ الكتـاب الأسـتاذ محمـد حديفـي).
وتضـم مختـارات "جـرح الوطـن" باقـة كبـيرة ومتنوعـة الألـوان والأشـكال والروائـح مـن القصائـد في عشـق سـوريا و الشـام رمزهـا في العديـد منهـا، والدفـاع عنهـا والمـوت في سـبيلها:

أحلام غانم: بسملة التراب

- في فاتحـة المجموعـة، قصيـدة "بسـملة الـتراب"، تتغنـى الشـاعرة أحـلام غانـم بالشـام وجمالهـا الأخّـاذ والفريـد الـذي يسـلب الألبـاب إلى حـد أن الإلـه جُـنَّ بسـحر عينيهـا وانتفـض الجـن مـن نومـه لينـزع الخـمار عـن محاسـنها، بـل إن الشـاعرة تُقدسـها وتعتبرهـا قِبلتهـا الأولى وبيـت نبوءتهـا:

أُنثى لها في كل
فاتحة دعاء
كالشمس في رأد
الضحى سمراء
جُنَّ الإله بمُقلتيها
واستفاق الجنُّ ينزع عن
محاسنها الخمار
هي فطرة الورق المحنَّى
بالتراب وبالغمام
أنجو بها
من لعنة الضوضاء
هي قبلتي الأولى

وبيت نبوءتي...

والشام بالنسبة للشاعرة أحلام غانم حاضرة السلام وربة الشهداء. وعلى الرغم من عقوق الزمان وانتهاك الغوغاء لحرماتها، فإن مريم السورية ستعود نجمة سورية كبرى وتُرضع طفلتها عشتار:

الشام حاضرة السلام
تخضَّبت
وتخضَّب المعراج
والإسراء
لا تحزني يا ربة الشهداء
عقَّ الزمان
وبرّك الصحراء
وسطَتْ على
حرماتها الغوغاء
ستعود مريم السورية
نجمةً سوريةً كُبرى
وتُرضع طفلها عشتار
هيهات تغمض جفنك العلياء
والداء في لغة
القريض دواء.

أحمد أسعد الحارة: قليلاً من الحياة أيها الموتى؟!

في هذه القصيدة يناجي الشاعر دمشق الشام ويناديها باسم ابنة الشمس والعمر والغمر التي جُنَّت مختلف الأزمنة إعجاباً بغوطتيها لفرط جمالهما. ويقول إنها حاضرة في الوجدان حتى في الغياب، ويعرب عن استعداده للتضحية بالروح، ويحضُّ على الموت في سبيلها لأنه لا يعتبر الموت في حبها موتاً، فالموت الحقيقي بنظره هو موت الضمير الوطني والإنساني:

يا ابنة الشمس يا ابنة العمر والغمر ... وجُنّت بغوطتيك العصور
أتقولين لا أطيق غياباً ... كيف هذا، وفي الغياب الحضور؟
ليس موتي يا شام في الحب موتاً ... إنما الموت أن يموت الضمير.

ويصـف الشـاعر الكارثـة الرهيبـة التـي حلَّـت ببـلاده، بـلاد البعـث والنشـور. ويخاطبهـا بأنهـا أمـه، ولا يسـتطيع ذكـر الفظائـع التـي كابدتْهـا والتـي لا مثيـل لهـا لفـرط هولهـا:

كلَّ يوم والشام تُذبح في الشام   وفيها لو يعلمون النشور
لست أقوى ولن أثيرك "يا أمُّ"   بالذي صار، الذي لا يصير.

لكـن عـلى الرغـم مـن ذلـك، يؤمـن الشـاعر أحمـد أسـعد الحـارة بـأن سـوريا لا تـزال هــي هــي، ســوريا العظيمــة كــما كانــت، ولا يــزال نهــر العــاصي هــو هــو، يصــبُّ في رومـا كـما وصفـه أحـد شـعراء رومـا قديمـاً. ولـن تُسـلّم رقبتهـا للذبـح، ويهيـب بشـعبها أن يهـبَّ لنجدتهـا والـذود عنهـا بمقاومـة الغـزاة، فالوطـن هـو الصبـاح والضـوء والـسراج المنـير:

لا يزال العاصي يصب بروما   فيه شام وقادش وغدير
كتب الله نقطة الشرق والخلق   دمشقاً وقالها المأثور...
فهلمُّوا الشام يا ناس طلقاً   إن وجه الشام طلق بهير
وطني والصباح أيهما الضوء   وأيٌّ هو السراج المنير؟!

اسماعيل ركاب: قافية المجد

يــردُّ الشــاعر اســماعيل ركاب عــلى الذيــن يتوعــدون بتدمــير الشــام بأنهــا عصيَّــة عــلى الكــسر، وهــي درَّة تــاج التاريــخ، هــي الأزهــران وقلعــة الأحــرار الشــامخة التــي لا تهزُّهــا الريــاح، هــي صامــدة باقيــة ورايــات النــصر ترفــرف عــلى ذُراهــا. ويمجِّــد الشــاعر جيــش ســوريا البطــل الــذي يتزنَّــر بعشــق أرضــه ووطنــه، وســيهزم المعتديــن ويزلــزل عــروش البغْــي:

قالوا: ندمرها، فقلت لهم   هيهات .. غصن الشام ينهصر
هي درة التاريخ، جوهرة   والأزهران الشمس والقمر
هي قلعة الأحرار شامخةٌ   ما هزَّها عصفٌ ولا عُهر
مُرُّوا منكسةً بيارقكم   خُسرانُ، أو تتفوَّه القبْرُ
فالشام صامدة وباقيةٌ   وعلى ذراها الحق ينتصرُ
والشام شعب طبعه كرم   ما همَّه جوع ولا قتَر
حرية الأوطان هاجسه   وكرامة الإنسان والفخَر

والشام جيش بالفدا عبقٌ حطَم الجناة ومكر من مكروا
قد أذهل الدنيا وأدهشها جيش بعشق الأرض يأتزر
فترى عروش الظالمين هوتْ أو زلزت والبغي ينحسر
وترى دمشق تخط قافية ما خطّها جنٌ ولا بشرُ.

جابر خير بك: وداعاً مغاني الشام

يودِّع الشاعر جابر خير بك مختلف ربوع وطنه الحبيب سوريا ويسجل قائمة بأسماء بعضها وصفاتها: فالشام عنده واحة العطر وقِبلة العشاق والشعر؛ وروابي الغوطتين ودُمَّر تثير في نفسه الشوق والقهر؛ وذُرى بلودان جمال الأمسيات وسَكينة الفجر؛ وقاسيون الوفاء والحب لأهل الشام والعين الساهرة على كل شبر منها. والشام أميرة أحلامه وحبه الأزلي، الذي سيعتنقه ديناً وسيظل غايته المنشودة في الحياة وفي الممات، ويضيء له ظلام الصمت وعتمة القبر:

وداعاً مغاني الشام يا واحة العطر ويا قبلة العشاق للحب والشعر
وداعاً فقد هيأت للسير ناقتي وحمّلتها فيض الدموع التي تجري
فشالت وظل القلب للشام شاخصاً أبى أن يغض الطرف عن حسنها العذري
فغابت عن العينين لكن طيفها تربَّع بين الجفن والقلب والصدر
وداعاً روابي الغوطتين ودُمّر ففي النفس ما فيها من الشوق والقهر
وداعاً ذُرا بلودان كم ضمَّني بها جمال الأماسي والسكينة للفجر
وكم راقني من قاسيون وفاؤه يبادل أهل الشام حباً مدى الدهر
تنام ويبقى ساهر العين حارساً على كل شبر من أوابدها البكر
...
ويبقى هواك السمح ديني وغايتي يرافقني بعد الرحيل إلى الحشر
فأغفو وإياه سعيداً بوحدتي يضيء ظلام الصمت في عتمة القبر.

جابر ابراهيم سلمان: وطن الخلود

قصيدة ترسم أطلس سوريا والوطن العربي، يبدأها الشاعر بإعلان أن وطنَه أبوه ودمشقَ أمه وحلب هواه. ثم يقوم برحلة عشق وشوق وفقْد وحنين في سائر ربوع سوريا، حيث ينزل في كل محطة ويقف على ذكراها- وليس على أطلالها- فيرسم خريطةً لمختلف المواقع السورية، مدناً وقرى وأنهاراً وشواطئ،

فيذكرهـا واحـداً واحـداً، أو شـجرةً جميلـة وارفـة لسـوريا، فيطـير مـن غصـن إلى غصـن: مـن بانيـاس إلى إدلـب ومـن السـويداء إلى حـماة ومـن العـاصي وتدمـر إلى طرطـوس وأرواد، ومـن حـوران إلى الجـولان المحتـل الـذي لا ينسـاه، ومـن الغوطـة إلى الفـرات والخابـور واللاذقيـة...:

وطني أبي وإليه أنتسبُ — ودمشقُ أمي والهوى حلبُ
في/ بانياس/ صُغتُ أشرعتي — وإلى حماها اليوم أنتسب
وبــــ/ إدلب/ الخضراء يأسرني — سحرٌ إليه القلبُ ينجذبُ
وإلى/ سويداء/ القلوب هوىً — يغريك فيه الحسنُ والحسبُ
و/حماة عاصيها وعاصمها — وبــــ/ تدمر تاريخها الأشِبُ
طرطوس.. أروادٌ وشطهما — والغادة السمراء إن نسبوا
جولانُ.. "حورانٌ" وما انفصما — في لحمة تنأى وتقتربُ
والغوطةُ الغنّاء ما برحت — يحبُو إليها الشعر والأدبُ
...
وإلى الفرات المنُتمى وبه — من خافقي ما يبلغُ الأربُ
ولنا على الخابور حاضرةٌ — دانت لها الأيام والحقبُ
واللاذقية في الهوى نسبي — وعلى ذراها سادة نُجبُ..

ثـم يعـرِّج عـلى العـرب وبلدانهـم ومقدسـاتهم: بنـو يمـن وبنـو عـدن والمغـرب العـربي وعبـد القـادر الجزائـري والمسـجد الأقـصى والصخـرة وكنيسـة القيامـة والقـدس والنقـب وجبـل المكـبر والجزائـر والعـراق وبغـداد والصنـوان وهـران الجزائريـة وكسَـب السـورية:

أوَ ليس من نسلي بنو يمن — والمغرب العربي والعرب؟
أو ليس من نسلي بنو عدن — وعليهم أبكي وأنتحب
والمسجد الأقصى وصخرته — و"قيامة" في القدس والنقبُ؟
هذي الجزائر.. إن تسلْ فهنا — صوت الشآم وسيفها القشب
بغداد جرح نزفه جسدي — فإلامَ هذا النزف يا عربُ؟!

ويختتم الشاعر سلمان قصيدته متألماً غاضباً متحسّراً ومستنكراً لما تعرَّضت له سوريا من عدوان الغريب وخيانة القريب ولكثرة ما طعنها الغاصبون والذين انقلبوا على أوجاعها:

ماذا أُحدِّث عنك يا وطني؟! في كل يوم غاصب يثبُ
وفي كل يوم طعنةٌ بيدٍ ممن على أوجاعه انقلبوا
هذا أبي، وإليه انتسبُ ودمشق أمي والهوى حلبُ.

جميل حداد- حلب

يُعرب الشاعر جميل حداد عن مشاعر الحزن والألم على حلب، مسقط رأسه وحضن طفولته، وعن حُرقة فراقها ولوعة الحنين إليها:

حلبٌ ذقتُ لوعة بلقاك بين قلبٍ دامٍ وحزنٍ باكِ
أنتِ حبي وأنت توءم عشقي كان عشقي للشام بعد لقاك
حلبٌ أختها دمشق فقولٌ قاله الكل حين طلّ عُلاك
عشتِ شهباء في حنايا ضلوعي قاتل الله كل من أبكاك.

ويتحدث عن أمجادها الغابرة عندما كان يهابها الغزاة، وكيف هزمت الذل في كل العصور وكانت، وستبقى، حاملة لراية الحق لأن أهلها نذروا أنفسهم للذود عن أرضها وسمائها:

كنتِ مجداً يهابه كل غاز كنت دوماً في حضن من يرعاك
أنت أم الجهاد في كل عصر هزم الذل حاملاً للواك
وستبقين مدية الحق دوماً في طريق الهدى بلا أشواك
أنا حاكٍ والشعب كله حاك نحن نُذر لأرضك، لسماكِ.

جهاد الأحمدية: بين مقبوسين

يتحدث الشاعر جهاد الأحمدية عن الأمهات السوريات اللائي لا نكاد نجد منهن من لم تودع قطعة من قلبها، شهيداً أو ذاهباً إلى ساحة المعركة للذود عن حياض وطنه الذي تتناهشه الذئاب والغيلان البشرية، أو مسافراً إلى المجهول:

مَن مِن نساء مدينتي
ما ودَّعت ولداً

على درب السفر؟
أو ذاهباً
ليذود عن وطن
تناهشه الذئابُ
وكل غيلان البشر؟

ويتساءل الشاعر: هل ثمة امرأة من نساء سوريا لم تُخبِّئ آلامها خلف ابتسامتها الرقيقة، أو لم تُدارِ حزنها تحت ستار الكبرياء المر، أو لم تغطِّ دموعها وخوفها بمنديل شفيف طرَّزته بنبضات قلبها قبل أن يصل خبر استشهاد الحبيب في رسالة مقتضبة مفادها أنه كان شجاعاً فعانقَ الشهادة:
مَن مِن نساء مدينتي
ما خبأت آلامها
خلف ابتسامتها الرقيقية
أو توارت
عن عيون الحزن
خلف الكبرياء المرّ
أو غطت مخاوفها
بمنديل شفيف
طرزته بخافقيها
للمسافر قبل وجه الصبح
نحو الـ لست أدري.
كم.. وكم
رسمت على
جدران خافقها اليتيم
ملامحاً لحفيدها
المنسوج من قمرين
في برج الخيال
لكنها..
حين استحمَّت مرتين

بماء دهشتها
استفاقت من حنين
على حلم تلاشى
بين مقبوسين
في نص الرسالة:
"كان مقداماً...
فوافتْه الشهادة".

د. جهاد طاهر بكفلوني: يا عماد العقيدة الحق

في رثاء الشهيد الضابط في الجيش العربي السوري حسين إسحق، يمجِّد الشاعر بكفلوني الشهيد ويفخر ببطولته ويذكر بعض خصاله: فهو مقاتل مقدام لا يتراجع، بل يرى في التراجع عاراً لا يرضاه الإنسان النبيل لنفسه؛ ولا يعنيه الكلام المنمق والبلاغة الجوفاء، بل يذهب مباشرة إلى الفعل. كما يشيد ببطولات رفاق الشهيد من جنود الجيش العربي السوري الذين سيواصلون الدرب في الذود عن وطنهم، ولن يخذلوه ولن يهون:

بحسين الفداء يفخرُ شعبٌ	أكؤس العزّ في ذراهُ مِلاء
بطل قد رأى التراجع عاراً	ليس يرضى ابتذاله النبلاءُ

...

لم يقل، بل تقدَّم الصف نسراً	رابط الجأش واستحرَّ البلاء
موعد للنصر المؤزر دانٍ	تتهادى قطوفه الآلاءُ

...

لم يهنْ شعبي الأبي وفيه	من حسين رفاقه الأصلاء
لا سلمْنا إن دنَّس الأرضَ يوماً	هؤلاء الأذلّة الدخلاءُ

...

يا شهيد الإباء أعلتْك أرضي	رمز كبْرٍ فزغرد الإعلاء
في طروس الخلود أملتك نجماً	خضِل النور فازدهى الإملاء.

جودي العربيد: سماء الرياح

يقـرر الشـاعر جـودي العربيـد أنـه مهـما حصـل لبـلاده مـن تدمـير ولشـعبه مـن تقتيـل، وحتـى لـو أُغلـق الكـون كلـه وهُـدَّت الجبـال الـرواسي، وتفشَّـت كل الدنايـا، فـإن سـوريا لـن تستسـلم ولـن تـكلَّ أو تمـلَّ وسـتنهض مـن جديـد مـن تحـت الـركام، لا للبيـع بالطبـع، بـل لتشـييد المنـارات للعـالم:

لا تنادي..
اتركي الأهداب في
الريح يصحِّيها الصدى
أيُّ شمس خلف قضبان ظلامٍ
عاهرٍ؟!
هو نشرٌ لبلادٍ
تغسلُ الأشجار بالضوء
لتمضي بالجهاد
كل ما في الحقل أضحى
من رماد...
أيتها الأختُ التي تبكي
على الأبواب
إن آذان البوادي صممٌ فيها
وقد كنا نياماً
غير أن النحل يأبى
أن يكلاّ
زغردي.. هذي بلاد
أرضها ريح
وفي أنهارها مسٌّ
وفي تاريخها الأعلى سماء
دونها أفق رحيب
ربما ينغلق الكون
وتنهدُّ الجبال الراسيات
ربما تحكُم في ملعبها

كل الدنايا الهابطات
حينها نادي إلى نشر
جديد
بيتُنا ينهض لا
للبيع
من تحت الركامات
لكي يبني منارة.

خالد أبو خالد: الشآم

بالإضافة إلى ما تتحلى به قصيدة "الشآم" للشاعر خالد أبو خالد من عمق وجمال وفن رفيع، فإن أهم ما يتميز به مضمونها هو الربط العضوي والوجودي بين سوريا وفلسطين والعرب. فالمعركة التي تخوضها سوريا هي نفسها تلك التي تخوضها فلسطين، من عكا إلى جسر الشغور. ويناجي الشاعر أبو خالد وطنه.. بلاده..فلسطين/سوريا لا فرق، معبراً عن شوقه الجارف لها، الذي يصفه بزهر الرمان وجرح الناي وشوق البنادق للمعارك:

شوقي لصوتك..جلّنار.. في الأغاني..
زهر نار.. في رمادي
جرح ناي.. في غبار القصف..
من دار.. لدار..
شوق البياض الى المحابر..
والحصار الى المعابر..
شوق البنادق للمعارك..

ولعل أهم وأجمل وأعمق ما في هذه المطوّلة من روائع الشعر الذي كُتب عن محنة سوريا في "العشرية الحالكة" هو الوحدة الفنية التي نسَجها الشاعر في سجادة نفيسة واحدة متعددة الألوان والرسومات والزخارف والأشكال والرموز، وتعبِّر عن وحدة القضية والمصير والوجود والمعركة والمقاتلين بين سوريا وفلسطين والوطن العربي بأسره. إنها سجادة رسم عليها الشاعر الفلسطيني-السوري- العربي خالد أبو خالد خريطة العالم العربي من حواري القدس إلى

الغوطتين وبردى، ومن عكا إلى جسر الشغور إلى حلب. ليصل إلى بغداد وصنعاء والبيت العتيق وحقول النفط، ومنها إلى دلتا النيل وبنغازي وجبال الأوراس، "حيث يتكاثر الشهداء في الشعراء، والشعراء في الشهداء". وهذا هو الدور الذي يرى الشاعر أبو خالد أنه منوط بالشعراء، ويجب أن يضطلعوا به: الدفاع عن الوطن حتى الشهادة.

وينادي الشاعر بوحدة المقاتلين، من الشام إلى نجد إلى سيناء وبئر السبع إلى شطآن تطوان، لأن العرب، من المحيط إلى الخليج، من روح الشام. ويطلب من سوريا العروبة أن تحملهم إلى الخرائط وتخطفهم من كوارثهم؛ فسوريا هي المؤهلة لأن "تصل المحارب بالمحارب وتضم الحراب إلى الحراب والجناح إلى الجناح" لأنها هي التي "تلظم" جميع الخرزات العربية بخيطها الحرير الرفيع المتين:

شوقي لمجدك ساطعٌ كجبين أمي..
في البهاء..
شوقي لكونشيرتو الرباب
شوقي لكونشيرتو سكاكين الشباب
على حواري القدس..
عند مفارق الطرقات..
من نار لنار..
ضمي الحراب.. إلى الحراب..
ورتِّلي نقش الجداريات.. في روحي..
ومن عكا.. إلى جسر الشغور.. إلى حلب..
ضمِّي الجناح.. إلى الجناح..
إلى احتمالات الصباح..
...
بغداد في دمنا.. وأجنحة الغراب
تطوف من صنعا.. إلى البيت العتيق
إلى الخليج.. إلى حقول النفط..
لدلتا..

لبنغازي..
إلى الأوراس
للموت الأليف..
يتكاثر الشهداء في الشعراء والشعراء في الشهداء...
يا أنتِ يا بيت القصيد.. لكِ النشيد
فجمِّعينا.. واحملينا
ازرعينا.. في شواطئنا القصية..
والقريبة..
كي نكون..
فاحملينا
إلى مناخات الغضار..
إلى الخرائط.. من صبا نجدٍ..
إلى سينا.. وبئر السبع
للشطآن في تطوان..
كي نصل المحارب بالمحارب..
بالشآم..
فنحن من روح الشآم
من المحيط.. إلى عُمان..

ويستمسك الشاعر أبو خالد بأهداب العروة الوثقى، سوريا، معلقاً عليها الأمل وملتمساً الخلاص على يديها مما حلَّ بأمتنا من كارثة وجودية:
خذي يدي..
وناولينا كسرة الخبز الأخيرة..
اخطفينا من كوارثنا وردِّيني إليّ
فكلهم أكلوك في لحمي
وسيفُهم عليَّ..
- أهي الثريا لا تضيء..؟
موت يثابر يا شآم
فخلِّصينا..

نبِّهي فينا الأوابد
واحملينا خلف نكبتنا..
لنكتب نصّنا.. فنكون..
هل أحوالنا انكسرت..
كأحوال الشعوب..من الشمال
إلى الجنوب
وأين نحن..
وقد ندهنا ألف عام..

لا صوت في صوت القصيدة.

ويختتم خالد أبو خالد مطوّلته الجميلة بالطلب من الشام تبديد ليله بضيائها واسترداد يقينه الذي فُقد، وأن تعشِّقه بالحصون وبالجهات وتدخله في رحابها وتدثِّره بالشواهد والحمام:

جدِّلي.. ليلي بصبحك..يا شآم..
وعانقيني..
استردي لي يقيني..
يا شآم
وعشِّقينا.. بالحصون..
وبالجهات..
ودثريني.. في كتابك.. وادخليني في رحابك
عبر حزنك
عاشقاً.. كالسنديان
فأنت عشقي.. يا شآم
ودثريني بالشواهد..
والحمام.

ربيعة نجم غانم: شعور

تُعبِّر الشاعرة ربيعة نجم غانم عن عشقها لسوريا وتتغنى بوطنها الذي يعرِّش في رؤاها ويفترش دمها، وتَعتَّق فيه حبها، فلا يمكن أن يزول عبق الطيب من هوائها الذي تستنشقه. وقد تمدد وطنها في الضياء وتعلَّق في هواها حتى صارت غصناً على صليبه الذي يباركه يسوع على الرغم من نشوة الغدر والخيانة التي يزهو بها الغادرون والخونة :

وطني...
تُعرِّش في رؤاي
وياسمين الروح
يفترش المطارح
في دمي
لتهبَّ نحوك صبوتي
في مركب للعشق
يبحر في العيون
تحثُّه نحو المرافئ
صحوتي..
والعاديات تغطرست
في نشوة الغدر المسمَّر
في فجور الغادرين.
...
وطني تعتَّق في هواي
ما زلتُ منشغلاً بنفح
الطيب من زمن ترامى
حين أحسست
مراسيه الحزينة
لا تملُّ
تحط دوماً
في شواطئ غربتي
وتديم دورة عمرها

الغافي على رمل
الوفاء.
وطني تمدد في الضياء
وتناثرت أصداء حلم
في خشوع.
وطني تعلَّق في هواي
فغدوتُ فوق صليبه
غصناً يُباركني يسوع.

رجب كامل عثمان: موطن الياسمين

يخاطب الشاعر رجب كامل عثمان وطنه الجريح سوريا ويطلب منه أن يلملم جراحه وينثر عبيره فوق هامات الرجال وفي السهول وعلى التلال، وأن يكتب على الدروب وفي الميادين: "مِن هنا مرَّ الغزاة والطغاة، ومن هنا بدأ صخب الحياة من جديد، فلا حياة بلا ثمن". أما هو فإنه تائه لا يعرف مَن يكون ولم يعد يعرف مَن هو، كما أنه لا يفرِّق بين الفرح والحزن، فالجميع يدرك معنى أن يموت الإنسان بدون أن يكون له كفن يلفُّه أو قبر يضمُّه:

لملمْ جراحك يا وطن
وانثر عبيرك
فوق هامات الرجال
وفي السهول- وفي التلال..
بلا وهن.
لملمم جراحك يا وطن
واكتب على كل الدروب..
وفي الميادين القريبة ..
والبعيدة..
وارسم حروفك..
في ارتعاشات القصيدة
من هنا مرَّ الغزاة
من هنا مرَّ الطغاة

ومن هنا
بدأت تضجُّ بنا الحياة..
فلا حياة بلا ثمن
لملمْ جراحك يا وطن
كفكفْ دموع العاشقين المتعبين..
واجعل لنا
في كل ركن..موطئاً للياسمين
آهٍ.. أنا..
ما عدتُ أعرف.. من أنا..
ما عدتُ أدركُ..
أو أفرِّق.. بين شدو- أو شجن
وأكاد أصرخ من هنا
من خلف أسوار الزمن
لملم جراحك يا وطن
لملم جراحك يا وطن
فالكل يدرك..
ما الذي يعنيه موتٌ
دون قبر- أو كفن.

سلمى جميل حداد: سكاكين القصابين تجزُّ رأس السنة

في رأس السنة الجديدة "ثمِلَ العام من شرب الدماء وغفا على كتف الذبيحة"، فأحسَّت الشاعرة سلمى جميل حداد بالخجل من تاريخ مجيد أنارَ درب الإنسانية بالأبجدية الأولى ثم أرديناه ظلاماً في غياهب الجهل وعتمة الأمية. وتُعدِّد الشاعرة سوآتنا وموبقاتنا وجرائمنا بحق سوريا، وتطلب منها العفو وتلتمس الغفران:

ثملَ العام من شرب الدماء وغفا على كتف الذبيحة،
في دنان العتمة المعتَّقة بكهوف النبيذ سكبَ حكايته القبيحة..
كم خجلى من فضاء الياسمين
زكمْنا أنفه بزنخ الشواء في أفران الجاهلية،

كم خجلى من تاريخٍ
نوَّرَنا جبينهُ بأول حرف من حُروف الأبجدية
ثم أردیناه ظلاماً في أقبية الجهل وعتمة الأمية.
سامحينا يا شآم!
يا خجلتي منك وممَّن سمعَنا
يا خجلتي منك وممَّن رآنا
نجزّ بسكاكين القصابين رقاب الضحايا
ونكنس الشوراع ومصابيح الطرقات من مِزَق قتلانا
ونسوق كقطيع النعاج السبايا
سامحينا يا شآم!

سليمان السلمان: قاتلٌ هواك

يعرب الشاعر سليمان السلمان عن عشقه لسوريا ووجعه عليها، ويقول إن عشقها قاتل. ويتحسّر السلمان على ضياعها ودمارها وبيعها بالمزادات وعلى قارعة الطرقات بلا حياء، وكيف جعلها هؤلاء الباعة المتجولون كاليتيم على مأدبة اللئيم:

أيا وطني..!
رعشة في المفاصل
شوق وجيع
وأغنية
تعزف الآه فيها.. شفاه قتيلة.
***
أيا وطني!
ما أزال فداك
أدور وخبزي ثقيل
يغص بحلقي
أيا هيكلاً لشقائي..!
يدور به الأدعياء
وسكيِّنهم في جبيني

تنزُّ الدماء..

***

أيا وطني..!
استسلمَ الصيف للنار
ماتت زهور الربيع
وغطى عيون الخريف الغبار
وراح كأنه ما جاء يوماً رسول الشتاء..
عرفتك يا وطني!
كاليتيم بدار اللئيم رماه الشقاء
توزَّعك البائعون..
على كل درب ينادون باسمك
دون حياء
وباعوك – واخجل القوم-
باسم السياحة دون رداء.

وهكذا، بعد أن رأى الفاجعة التي ضربت وطنه الحبيب، وكيف يُباع ويُشترى على قارعة الطريق عارياً مُذَلاً مُهاناً، جفَّت عروقه وفاضت روحه. وقد حرص على ذكر بعض أسباب موته رسالةً وعبرةً لمن يأتي بعده، ومفادها أنه يحب في الدنيا ثلاثاً، الفداء والرجال والوطن، وهي نفسها أسباب موته، وأن بطاقته الشخصية التي سُرقت منه لا تحتوي على أية بيانات سوى كلمة "الوطن":

وعُلّقتُ مثلك عشقاً
على غصن من شجون
وجفَّت عروقي..
وحيداً تدليتُ كالبرتقال
وأسباب موتي:
- يحب الفداء
- يحب الرجال
- يحب الوطن
- بطاقته سُرقت من زمن

وقد خطَّ فيه اسمه، عمره، والسكن
فكانت جميع الخطوط:
وطن..
وطن..
وطن.

صالح هواري: بالسيف قد لا نلتقي أبداً

يكتشف الشاعر صالح هواري خرافة "الربيع العربي" التي انطلتْ على العرب فظنوا أن الربيع العربي هو قطار الشمس الذي جاء محمَّلاً بالهدايا والورود، وعندما وصل وألقى علينا عصا موسى السحرية تبيَّن أنه قطار دموي يحمل حيّة تسعى بيننا، وإذا به شجر شائك يُدمي غارسيه ورياح عاتية تعصف بما حصدناه:

هبَّ "الربيع" وما انتظرناه يا ليت أنا ما رأيناه
قلنا: قطار الشمس عاد لنا والورد بعضٌ من هداياه
لكن ويا أسفي أتى قمراً دامي المحيّا ما عهدناه
ألقى عصاه ببينا فإذا النيران تسعى في جناياه
شجر يحارب ضد غارسه والريح تبلع ما حصدناه.

ويفضح الشاعر حكام محميات النفط الذين يشترون الأسلحة من أسيادهم لاستخدامها ضد شعوبنا، معتقدين أن بوسعهم شراء كل شيء وكل شخص، الشعوب والأنظمة والأوطان، بالمال النفطي الذي يعتبرونه دينهم ومعبودهم وكتابهم المقدس:

كل المطايا طوع إمرتنا إن ينطق العاصي سجنَّاه
النفط يجري في عباءتنا شجراً.. بشهوتنا حرقناه
وإلهنا الكرسي نعبُدُه لو كان من تمر أكلناه

لكنه يرفض ذلك الهوان والدمار والدماء، ويعرب عن ثقته الراسخة بأن سوريا التاريخ والأبجدية، التي دحرت الغزاة بالأمس ستنتفض وتدحر الغزاة والمعتدين والظلاميين اليوم، فهي ملح السوريين وخبزهم وبيتهم الدافئ:

سورية البحر الذي اندحرت | في بابه ظلمات من تاهوا
العبقرية شيخ حكمتها | في قاسيون بنى مصلاَّه
قف عند "شمرا" أبجديتُها | فيها رمى التاريخ مرساه
هي بيتنا الدافي نلوذ به | بشذى محبتنا ملأناه
هي ملحُنا ورغيف عزتنا | خبزُ المحبة كيف ننساه
بالسيف قد لا نلتقي أبداً | بالحب نقطف ما زرعناه.

عباس حيروقة: لعلَّ يرانا قمر الخالق ولعلَّ نراه

تجتاح الشاعر عباس حيروقة مشاعر حزن عميق على ما يحدث في سوريا من أهوال وعذابات، فالأنهار جفَّت والآبار نضبت والتلال تكسوها الحرقة والآهات، وطوفان الدموع يغمر عيون الأمهات الثكالى، والدرب طويل والظلمة حالكة. ويبتهل الشاعر إلى الخالق من أجل أن يرانا قمره ونراه في زاوية ما من هذا الكون، ويتأوَّه من طول الدرب وحلكة الظلام:

في زاوية من
هذا العالم
في سورية
وقت المغرب
من نيسان
طافت روحي
سرب حمام
فرأت أنهاراً قد جفَّت
والآبار سلاها
الماء
وتلالاً تغمرها الحرقة والآهات
أرهقها الدمع الواقف
في كل عيون
الآ باء
.. ونساء ثكلى
يألفن دروب المقبرة التطفح

آهاتٍ..حسرات.
آهٍ..آه
نحن على درب
ما أطولها..!!
والظلمة حالكة
نتسلق كلّ
شبابيك الفجر
لعل يرانا
قمر الخالق
في وحشتنا
ولعل نراه.

ومن فرط حزنه وفجيعته يناجي الشاعر ربَّه معاتباً:
هل تسمعني
يا رباه..؟
يرجف قلبي
كل مساء
حين تهب
رياح الله..
أتأمل هذي الأرض
تضيق.. تضيق
أيليق بروحك أن تتهشم بين
يديك وأنت رقيق..؟
في زاوية من
هذا العالم
يرجف قلبي
حين تهب رياح الله.

عصام ترشحاني: الحرب

يصف الشاعر عصام ترشحاني الحرب التي تُشن على سوريا بأنها وحشية الفكر والجسم والاسم والروح والذاكرة، جوهرها البغْي والخراب، وتحتل الدم والعقل والقلب:

هي الحرب يا شام
وحشية الفكر
وحشية الجسم والاسم
وحشية الروح والذاكرة
هي الحرب في عمقها البغْي.. أو قُل.. رموز
الخراب بصورتها الجائرة
هي الحرب تمكث في الدم
والعقل والأفئدة.

ويسأل الشاعر ترشحاني سادة الظلام مستنكراً لماذا جاءوا بكل هذا السواد والبلاء إلى بلاده؟ ويردُّ عليهم بثقة مطلقة بأن سوريا ستقاوم وستنتصر على أعدائها بجذور ترابها ونبض صمودها وبرعدها ومائها ونارها، وسيأتي زمانها الذي سيدحر فيه شجر الشهداء أعداءها وعبيد أعدائها في احتفال مهيب يليق بها وبانتصارها:

فيا سادة عصر الظلام لماذا.. أتيتم بهذا السواد
الخرافي.. هذا البلاء الرجيم.. لسوريَّتي..؟
فهل تدركون بأنا..
جذور التراب ونبض الصمود.. وأسطورة الآزفة؟
أحبك يا شام.. وها نحن نخلق من هيبة الرعد والماء والنار
وجه التحدي
أحبك إن السماء تقول:
زمانك يأتي..
فها شجر الشهداء يدحر أعداءه.. ومن ثم تسكنه
المعجزة ..
...

فهذي وفود السعادة والسلم
والحلم.. هذي خيول من الورد والكبرياء.. تراهن
أن احتفالاً "مهيباً" على الأرض.. يمضي إليك ...
هو الحب والشعب ينتصران
وهذي السماء.. الجبال.. الرياح ..
ستودي بكل عبيد العدو ..
اللدود. ستودي بهم ..
أو بما يحلمون، إلى التهلكة .

عبد الكريم يحيى عبد الكريم: حلم الشعر

في قصيدة الشعر والشعراء هذه يذكر الشاعر عبد الكريم يحي عبد الكريم خمسة أصناف بهيَّة من الشعر: النبيل، البديل، الجميل، الجديد، والشهيد، ويقول إن لهذه الأصناف شعراءها. ويسأل بماذا يحلم كل صنف منها، وبماذا يحلم شعراؤه، ثم يطرح السؤال العام: بماذا يحلم الشعر الذي ملأ الدنيا شجراً وملأ المدى زهراً، وبماذا يحلم شعراؤه؟ لعل الشعر الحقيقي بالنسبة للشاعر عبد الكريم أشبه بزهرة اللوتس الفرعونية المقدسة- بتلات عديدة في زهرة واحدة- تزيِّن القصائد مثلما تتوج أعمدة معبد الكرنك العظيم.

يبدأ الشاعر عبد الكريم بطرح الأسئلة الخمسة عن الأصناف الخمسة، واحداً واحداً، ويجيب عن كل سؤال:

- **الشعر النبيل** وشعراؤه يحلمون بالأغاني والموسيقى والضوء والفرح:
بماذا يحلم الشعر النبيل
ويحلم الشعراء؟!
بأغنية على قيثارة زرقاء
زاهرة بحب الضوء والأفراح
والنشوة.

- **الشعر البديل** وشعراؤه يحلمون بأطفال كالزهور والأحلام الوردية وبأسراب الحجل والقناديل التي تبدد عتمة الليل وصمته وتنشر الضياء:

بماذا يحلم الشعر البديل
ويحلم الشعراء؟!
بأطفال كزهر القلب.. ورد الحُلم..
أسراب من الحجل المسافر في غدير ضياء
بقنديل يزيح الليل..
ينثر في فضاء الصمت إشعاعاته البيضاء
طيور غناء
وعطر عزاء.

- **الشعر الجميل** وشعراؤه يحلمون بالأفضل والأجمل والأصفى والأسمى، بأرض غير هذه الأرض وكوخ غير هذا الكوخ وحبر غير هذا الحبر وماء غير هذا الماء:

بماذا يحلم الشعر الجميل
ويحلم الشعراء؟!
بأرض فوق هذي الأرض
كوخ غير هذا الكوخ
حبرٍ غير هذا الحبر
ماء غير هذا الماء
بأبيات تزغرد في لهاة الروح
أصوات تزقزق في رؤى الأسماء.

- **الشعر الجديد** وشعراؤه يحلمون بكل شيء حقيقي، الألوان والأزهار والأقمار لأنهم تعبوا من الزيف والمزيفين الذين يطمسون الحقيقة:

بماذا يحلم الشعر الجديد
ويفرح الشعراء؟!
بألوان حقيقية
وأزهار حقيقية
وأقمار حقيقية

تعبتُ- يقول- من زيف
يغطي صفحة الأشياء.

- **الشعر الشهيد** وشعراؤه يحلمون بكل شيء نظيف: أرض نظيفة، خالية من القتل والدم، وهواء نقي غير ملوث بالدخان، وعطر مصفَّى، وجوٌ خالٍ من الحديد وحبر غير ممزوج بالدموع، وماء زلال لا تشوبه شائبة. بل إنهم في جحيم هذه الحرب الطاحنة يحلمون بأكفان وقبور وأزهار لها أسماء:

بماذا يحلم الشعر الشهيد
ويحلم الشعراء ؟!
بأرض دونما قتلى ولا جرحى
هواء لا دخان به
وعطر لا غبار به
وجو لا حديد به
وحبر لا دموع به
وماء لا دماء به
بأكفان لها أسماء
وأجداث لها أسماء
وأزهار لها أسماء.

- **أما الشعر الذي ملأ الدنيا شجراً والمدى زهراً وشعراؤه** فإنهم يحلمون بالأغاني والأماني، بالأقمار والغيوم، بالأنهار والأنوار، بالأعراس والأجراس، بانبلاج فجر جديد يبدد الظلمة التي خيَّمت على سوريا ويزيل الكابوس الرهيب الذي جثم على صدرها طوال العشرية الحالكة التي مضت:

بماذا يحلم الشعر الذي ملأ الدنى شجرا
بماذا يحلم الشعرا؟!
بأغنية تعانق في المدى قمرا
بأمنية تلامس غيمة.. مطرا
بماذا يحلم الشعر الذي ملأ المدى زهرا؟
بماذا يحلم الشعرا؟!

بأنهار.. وأنوار
وأعراس.. وأجراس
تفوح وتمنح الثمرا..
لعل وراءها الأصداء
لعل وراءها السحرا
لعل وراءها الفجر الذي انفجرا
وفينا ضاءْ
بهذا يحلم الشعراء!

عبدو سليمان الخالد- كل الشآم لنا مهد

يتغنى الشاعر عبدو سليمان الخالد بحوران والشام معاً بالتناوب والتداخل، وينقِّل فؤاده وكلماته بينهما على اتساع مساحة القصيدة؛ فحوران بالنسبة له أيقونة التاريخ، والشام لا مثيل لها في الدنيا. حوران، يا طيب حوران! هي التي تجمع الأحبة والخلان. وكلما ساورته هواجس البلاء، يسمِّي باسم الله في السر والعلن. وإن لم تكن حوران أحلامه وأغنيته، فإن الشام أولى بها، يا ريم حوران!:

ودَّعتُ عمري وما ودعت حورانا — إلاّ إلى عودة يا طيب لقيانا
بنت الشآم على رمح وسارية — تزيد في وافر الإحسان إحسانا
لو لم تكن أمها العنقاء غالبة — لأصبحت في ذرا المعروف عنواناً
حوران أيقونة التاريخ في دمها — وحي تنزَّل إنجيلا وقرآنا
والشام آمنتُ لا أرضاً تماثلها — تعتز بالله إيماناً وسلطانا
يا من يبشِّرني أن الطريق إلى — خلاصها بات بالآمال مزدانا
يا طيب حوران!! كم في موسم جمعتْ — على المواعيد أحباباً وخلانا.
وكلما عادت البلوى تساورني — سميتُ بالشام إسراراً وإعلانا..
كل الشآم لنا مهد نقدسه — فيها على العهد مسرانا ومرسانا..
ولا أرى جنة الفردوس أمنيتي — إن لم تكوني على البابين رضوانا
إن لم تكن فيك أحلامي وأغنيتي — فالشام أولى بها يا ريم حورانا.

في هذه القصيدة يذكِّرني الشاعر عبدو سليمان الخالد بشاعر الأردن "الحوراني" مصطفى وهبي التل "عرار" في أكثر من موقف: في عشق عرار للأردن وإربد

وحـوران والتغنـي بهـا، وفي لغتـه ومفرداتـه وصـوره ومقاربتـه لعشـق بـلاده. ذلـك أن حـوران سـوريا وحـوران الأردن هـما حـوران واحـدة عـلى مـدى التاريـخ، منـذ حكـم الامبراطوريـة الرومانيـة، حيـث كانـت توصـف بأنهـا "إهـراءات رومـا". وقـد كان عـرار يحـب دمشـق، ولفـرط تعلُّقـه بهـا وحبـه للإقامـة فيهـا، عتـب عليـه الأردنيـون لأنـه بنظرهـم "تدمْشـقَ"- أي أصبـح دمشـقياً- فأجابهـم شـعراً:

"قالوا تدمْشقَ، قولوا ما يزال على عِلاَّته إربديَّ اللون حوراني
قالوا يحب أَجَلْ إِنى أُحب متى كان الهوى سُبَّةً يا أهل عمانِ؟"

علي جمعة الكعود: الظل

الشـاعر عـلي جمعـة الكعـود، الـذي تطغـى عـلى معظـم قصائـده القديمـة العديـدة التـي أطّلعـت عليهـا أجـواء الحـب والمـوت والحـزن والتشـاؤم والوحـدة، يضيـف في هـذه القصيـدة جـواً آخـر، هـو الظـل. وتحـت أجنحـة الظـلال يعيـش ويمـشي في الطريـق ويبـدع الشـعر بـين ظلـيْن: المـدى والـروح. وفي النهايـة يصبـح هـو نفسـه مجـرد ظـل، بينـما الأمنيـات هـي الحقيقـة، حتـى غـدتْ قصيدتـه هـذه قصيـدة ظـل مُبهمـة بحـق:

الظلُّ يرقبُ في الدروب خُطايا وأناه زادت عن حدود أنايا
لكأن ظلي مستبدٌّ خطوتي ومداه أوسع من محيط مدايا
للظل أنحو حين يجتاح الأسى مدُني فما من ساكنٍ إلاّيا
ما بين ظلّيْن التمستُ قريحة والشمس تلثم في الخفاء مرايا
بين المدى والروح ظلٌ آخرٌ للشعر تفضح بوْحه شفتايا
فأفرٌ منه إلى عوالم تختفي منها الظلال وكم تثور خفايا
والشعرُ ظل الروح كم حمّلتُه عبر السنين الآبقات خَطايا
في ظله الإبداع يسبق ظله وغدتْ شياطين القصيد سبايا
والظل مرآةٌ لكلّ قصيدة غسلتْ ضفائرها بماء أسايا
ظلٌ أنا والأمنيات حقيقتي أبكي ويبحث عن صداه بُكايا.

علي سليمان: نسيج الحجر

تتعلق هذه القصيدة بالانتفاضة الفلسطينية في الأرض المحتلة ومهداة إلى ثوارها، ولذا فهي ليست ضمن نطاق البحث الموضَّح في التمهيد، وهو الأدب السوري في فترة الحرب العدوانية على سوريا وعنها منذ إشعالها حتى يومنا هذا. وأرجو أن أشير هنا إلى أن هذا الأمر لا ينتقص مطلقا من أهمية القصيدة ومستواها الفني أو من الشاعر علي سليمان. بيد أن للقصيدة ارتباطاً كبيراً بالعدوان على سوريا، فقضية الشعبين السوري والفلسطيني واحدة والعدو واحد والضحية واحدة. فكل منهما ينهض من موته، ومن الآلام يشق دربه، ومن احتضار الضوء يتوهج، ويُبعث من الموت إلى الحياة، وكلاهما يولدان من الأشلاء والرماد:

-1-

من موتنا
خرجوا
ومن حجر التذكر ينبتون
من زهرة الألم المشعة
ينسجون دروبهم
ومن احتضار الضوء في آفاقهم
يتوهجون
الموت يبعثهم
ومن أشلائه ورماده
يتوالدون

-4-

منذ أكثر من ألف عام
ونحن نعيش التقيّه
ونسكن خارج أرواحنا
وخارج أحلامنا
وخارج تاريخنا
وخارج أوطاننا
نجرجر أوجهنا خلفنا
ونمشي بعكس اتجاه الحياة

ويخرج من وجهنا
خصمنا
ويخرج من خصبنا عُقمنا
ويخرج من حيِّنا
ميتنا
ونمشي وراء الدروب
ونمشي عراة، إلى الله
يركلنا الأدعياء
ونبدِّل ذلاً وقهراً
بوهم القضية...!

الأوديسة السورية - 8 -
الجزء الثاني

جرح الوطن
ديوان الجرح السوري والشعراء المجروحين

غسان كامل ونوس: حداءات

حَدَّاء وستة حداءات:

في الحداء الأول من هذه الحداءات الوجدانية الستة الموشَّحة بخيط من حرير الغموض، يُنشئ الحدَّاء/الشاعر يقول: إن كل شيء قد تغيَّر إلى الأسوأ: الدروب والقلوب، المواقف والاتجاهات، الأفكار والعواطف والأفعال. ويعلن أنه ليس عراب الجهات الست وليس من شيَمه الغدر، وأنه يقبل بحكم التاريخ. وهو ليس بوقاً للأدعياء والأوصياء، ولا يفتخر بوشم القبيلة التي تعيث فساداً وتهلل للغزاة المحتلين. كما أنه ليس شاهد زور ولا ناكراً للجميل ولكنه يُقر بأنه لم يدرك أنه شريك في إشعال النار بثوبه:

الدرب غير الدرب
والخطو المشوك
ورعشة الخطر الوشيك
وسحنة العكر المباغت
والمدى المقلوب
والآهُ العنيدة
واحتشاد التمتمات!!
القلب
أين القلب؟!
عابَثه شقيٌ
أشعث الرؤيا
وحاصَره دخيل.
أنا لست عرّاب الجهات الست
ما من شيمتي غدرٌ
ولا رجم الُمسفّ
ولا أُقيم الحد بالند-
أنا لست مزهواً بوشم قبيلةٍ
عاثت
وتضحكُ للغزاة..
أو شاهداً متنكراً

أو ناكراً ما كان من وصْلٍ..
لم أدر أن السهم في كبد البتول
يخصني
وبأنني أتقنت إشعال السِّمال
بجبتي.

في الحـداء الثـاني يهيـب الحـدَّاء ببنـي قومـه وأهلـه، نسـاءً ورجـالاً، أن يسـتقبلوا الضيـوف مـن اليتامـى والمسـاكين والعابريـن الذيـن تشرذمـوا، وأن يوفـوا بالنـذور:
طافت زغاريد الثغور
فهل عروس الزفة الكبرى
تفي
والديرة اتَّسعت؟!
فقوموا يا بني عمّي
ويا أهلي
ويا ربات حسن النبّع..
أولموا للضيف
أوفوا النذر
آتو لليتامى
للمساكين
الذين تشرذموا
والعابرين.

في الحـداء الثالـث يتسـاءل الحـدَّاء عـن النبـأ العظيـم، عـمَّ حـدث في بـلاده مـن أهـوال لا تُصـدَّق، ويعـبِّر عنـه بعبـارات موشَّـاة بالغمـوض، فيتسـاءل عـمَّا إذا كان قـد انشـطر المـدى وانشـقَّ الضحـى ليلـيْن أو اكتـظَّ الثقـلان بالمُقـل الرميـدة ، وعـن الـصراخ المبهـم وأزيـز النصـال الصدئـة:
خبرٌ
أم انشطر المدى
وتورَّد الأفقان

وانعكر المسيل؟
خبر
أم انشقَّ الضحى
ليليْن
واكتظت كوى الثقليْن
بالمُقل الرميدة..
تتململ الخطوات في الدرب المُساسة
عاجَلها صراخ مبهم
وأزيز نصل قُدّ
من صدأ عتيق .

في الحداء الرابع يواصل الحدّاء تساؤلاته بشأن الخيارات: هل يتخلى المرء عن القلق المبرح، أم يلوم الصحو المخاتل، أم يترك الأمر للأقدار تفعل ما تشاء، أم يكون اليوم خمر ونشوة وغداً يشاء الله ما يرضى به، أم لا بد من أمر وجمر؟ فلا عذر لأحد عندما يذوق مرارة الدفلى وترتعُ الديدان في حياضه:
هل كنت
- لو خُيِّرت-
في حلٍّ من الأرق المبرح
أم تلوم مفاتن الصحو المخاتل
أم هي الأقدار تفعل ما تشاء؟
اليوم خمر وانتشاء
وغداً يشاء الله ما نرضى
وقد جلَّ القضاء..
لا عُذر حين تسومك الدفلى
وترتع في حياضك
نزوة الديدان..

أما الحداء الخامس فيضجُّ بالعتب والحسرة، عتب على الندى المحروق والندم المقيم، وحسرة على العين المحرومة من البصر. ويبحث الحدَّاء فيه عمَّن

يستطيع أن يخلخل عجزه المراوغ، وعن توقه للتحرر وإطلاق النفَس المخنوق ونثر ما تبقى لديه من رحيق أو شهيق في الفضاء الرحب:

عتب على قدر الندى المحروق
والندم المقيم
وحسرة في البؤبؤ المحروم
من ولع التبصر
أو هنيهات الرقاد..
أفمن يخلخل
ربضة العجز المراوغ
عن مدى لهفي
لأنفث توقي المخنوق
أنثر ما تبقى
من رحيق أو شهيق؟!

وفي الحداء السادس يطرح الحدَّاء على المخاطَب تساؤله الأخير: هل تحنُّ إلى الماضي، أم تُجَنُّ في استدعاء الذين قضوا نحبهم في المهد أو في الأرحام أو في غفلة الحراس أو في غبش الدنيا. ويصل إلى نتيجة مفادها أن لا حول ولا قول له، وينحبس المطر الهتون.

أتحنُّ
أم تستذكر الأعطاف
أقرب من رجوع الطرف
أم تستدفئ الصدر الهجير؟
وتُجنُّ في طلب
الذين ترجلوا
في المهد
أو في قلقلات الصحو
والأرحام
أو في غفلة الحراس
في غبش الدنى

لا حول
أو لا قول يستهدي
ويستعصي الهتون!

فادية غيبور: احتمالات الجنون

تحلـم الشـاعرة فادية غيبـور بوعـد صغـير يهـدِّئ بالَـها ويمنحها الصفـاء والأمـان، كما تحلـم بزمـن أجمـل وبحـار أبهـى، أي بسـوريا أجمـل وأبهـى، تنتهـي فيهـا الحـرب الوحشـية ويسـودها السـلام ويعمُّـها الخصـب ويزدهـر الأدب والفـن في القـادم مـن الأيـام:

على شرفة من رفيف اليمام..
سأنثر قمح حروفي
أحاول وعداً صغيراً يهدِّئ بال القصيدة
ويمنح قلبي ظلال أمان..
بأن زماناً يجيء سُيصبح أجمل
وأن "بحاراً تناءت عن العين في البال
أبهى وأجمل".

إن حلـم الشـاعرة فادية غيبـور هـذا هـو نفسـه حلـم الشـاعر الكبـير ناظـم حكمـت في قصيدتـه "أجمـل البحـار" في إحـدى ترجماتهـا:

" أجمل البحار هو البحر الذي لم نذهب إليه بعد،
وأجمل الأيام هي تلك التي تنتظرنا،
وأجمل القصائد هي تلك التي لم أكتبها بعد."

لكـن الشـاعرة في الواقـع باتـت وحيـدة، لا تـرى سـوى الخـراب والوجـوه الكئيبـة التـي تظهـر عليهـا الأمنيـات البسـيطة كرغيـف حنـان وثـوب جديـد وأغنيـة للأطفـال، لا أكـثر:

أنا الآن وحدي..
ألملم ما ضاع من نبضات دمي
في خراب الحضارة..

حيث الوجوه الكئيبة تركض بين الوجوه
وحيث الجهات تضجُّ
بما يتخلق من الأمنيات
رغيف حنان لطفل
وثوباً جديداً لعيد وأغنية للصغار..
ولا شيء أكثر.. لا شيء أكثر..

تعود الشاعرة إلى الحلم فلا ترى شيئاً سواه، فتنادي وتنادي، ولا مَن يلبي النداء، ولا حياة لمن تنادي، ولا يجيبها سوى الواقع المرير:
ولا شيء فيما أراه سوى الحلم ..
لا شيء إلا..
سقوط المدائن في حمأة الخوف والدم والموت
لا شيء إلا الضياع الجديد
فمن ذا الـ ينادي..
ومن ذا الـ يلبي؟!

لكنها تلحُّ على الخلاص من هذا الواقع، فتلجأ إلى الاستغاثة بكل المدائن، بدمائها وغنائها وبكائها، لعلها تغيثها بابتسامة طفل لمواجهة احتمالَيْن لا ثالث لهما، الجنون أو الجنون، أو بالأحرى احتمال واحد، الجنون:
تلفَّتُ نحوي
وناديت: يا كل هذي المدائن؛
يا باسقات الدماء..الغناء..البكاء
أغيثي دمي ببريق ابتسامة طفل
أضيئي رماد حروفي بنصف اشتعال
فقد أهتدي مرة لحريق القصيدة
أو أبتدي طقسها المتأرجح
بين احتمال الجنون و..
بين احتمال الجنون.

د. فايز عز الدين: الجرح

في المقطع الأول من قصيدته "الجرح" التي تتألف من تسعة مقاطع، وربما توحي بعنوان الديوان الذي يضمُّها، "جرح الوطن"، يبدأ الشاعر فايز عز الدين بالحديث عن الجرح الذي أصاب جسد سوريا كله وأثخَنه:

جرحٌ..
يحرك ظله المعجون بالقهر
يفجر صرخة الزمن الأخير
ويزف أسراب النوارس
صوب بحر من دم
والنورس البحري ينثر ريشه
في خفقة الموج المدمَّى..
وسكرة المد على خد
الرمال.

وفي المقطعين السادس والسابع يخاطب الشاعر عز الدين دمشق التي تشعل قناديل الصبر على نهر الملاحم كي تحرر جمالها العربي ممن باعوا كرامتهم في أسواق النخاسة، دمشق التي يعرفها ترنيمةً من ترانيم الزمان وروضةً من رياض الأنبياء:

إيه دمشقُ..
وقد رأيتك تشعلين الصبر قنديلاً
على نهر الملاحم
تحررين جمالك العربي
ممَّن باع عزَّته بأسواق
النخاسة سادراً..
والشمعة الثكلى توزع نورها
الأموي نجماً لا يُطال.
إيه دمشق..
وقد عرفتك في ترانيم الدهور
في رياض المرسلين

عرفت توق القادمين إلى الحياة
على الثرى الحر الأمين.

وفي المقطعين الثامن والتاسع يختتم الشاعر عز الدين القصيدة بفتح كوَّة أمل في جدار الواقع، فيقول إنه على الرغم من الجرح الغائر في جسد سوريا الذي لم يلتئم بعد، ومن أن البلاد عالقة بين أمرَّين، غدر القريب وغزو العدو، فإن لها سراً لا يمكن الوصول إليه وتفكيك خيوطه من قبل الأعداء:

جرحٌ..
والشام في بوابة الفجر
وفي الأسرار
سر لا يُنال..
ما زال في الجرح أنين غائر
والشام بين مرارتين..

فرحان الخطيب: للشام أجنحة المدى

يتغنى الشاعر فرحان الخطيب بالشام التي يحرس ليلها السيف الدمشقي، و يقول إن للشام أجنحة المدى، وأية أجنحة؟ للشام لهفة الشاعر التي تفتح كوَّة أمل تُدخل ما تبقى من ضياء، ولها أشجار البكاء التي يعلّق على أغصانها دموعه، ولها شهقتها التي شلَّها احتباس المطر، ورونقها إذ يتهادى بردى بغرور كسلطان قديم والرعية ضفَّتاه:

للشام..
تفتح لهفتي- أملاً- مشاريق القصيدة..
كي تُراكم فوق غوطتها ضياءً..
ما تبقى من ضياء.
للشام..
أشجار البكاء وأدمعي..
علقتُها نذراً على شجر..
البكاء.
للشام..

شهقتها التعالت من خواب..
شلَّها طول احتباس ..
ليس من غيم وماء.
للشام..
رونقها إذا بردى تهادى..
في تثنّيِه الغرور
يمشي..
كسلطان قديم والرعية ضفتاه..

وللشام ليل خارج لغة الزمان والمكان والحكايات القديمة، وفي الليل تظهر صورة لا تزال في القلب شاهدةً عيان:
للشام ليل..
ليس في لغة الزمان..
وليس في قصص الحكايات القديمة..
في تعاريج المكان.

وللشام أجنحة المدى في الليل، وفي ليلها تبزغ زنابق الكلمات، وينسدل المساء على فساتين البنات، وينساب فيه نهر العشاق بردى الذي لا يأبه بزعيق التكفيريين وسموم كراهيتهم، ولا بمشاهد المجازر الدموية وأصوات الانفجارات ودخانها، لأن الشام تصنع عشقها بأريجها، ولأنها تنام ليلها بحراسة السيف الدمشقي الذي تمرَّس باجتراح البطولات على ثراها:
في الليل..
تظهر صورة لمَّا تزل في القلب..
شاهدةً عيان ..
للشام..
أجنحة المدى في الليل..
كالحلم المهاجر
كالطفل..
من دون القراءة والكتابة والدفاتر..

في الليل..
ليل (الصالحية)
تشرئّب زنابق الكلمات
من روض المودة والحنان..
في الليل..
يندلق المساء على فساتين البنات
كأنهن المهرجان..
في الليل..
ليل الصالحية
نهر عشاق يسيل على نشيد الاقحوان..
ما همَّه التكفير يزعق
بالضغائن..
والمذابح ..
والقنابل..
والدخان..
فالشام..
تصنع عشقها بأريجها..
والشام وُجهتها الندى والأرجوان
والشام..
يحرس ليلها سيف دمشقي..
تمرّس بالبطولة والطّعان
سيفٌ..
كسيف (العظمة) المسلول..
من غمد الزمان.

لينا حمدان: ارتعاشات

تخاطب الشاعرة لينا حمدان الشام لتعرب عن إعجابها بها لأنها ما زالت قادرة على الابتسام على الرغم مما يعصف بها من ويلات، ولكنها ترتعش من وهَنٍ كالأمواج. وتسألها عمَّ إذا كانت تتذكر اليوم الذي حلَّ فيه الظلام واجتاح

كل شيء واستباحه، وطغى الغدر والخيانة على المشهد، والتَهم الحريق والدخان الحناجر حتى صار طعمها أسودا:

ما زلتِ تبتسمين من شغف لحبات الندى...!
ما زلت رغم العصف.. والموت العنيد..
... تقطِّرين الضوء.. ينبض نوره
...ليحزَّ هاتيك المُدى..!؟
أرأيتِ يوم العتم أوغل.. يستبيح الدرب
... يجتث الملامح.. ينهب الذكرى...
...ويضحك كلما أنَّ الصدى...!
أرأيت كم ضاق الطريق بخطونا..
... يوم استحلَّ الغدر أرصفةً..
...وهدَّ.. وهدَّدا...!
وتجرَّعتْ غصص الحريق لهاثنا .. حتى غدا
... طعم الحناجر أسودا..!

وتعود الشاعرة لمخاطبة الشام، أختِ النهار وكلِّ المدائن وتراب الأحبَّة وشرفة النور والنار لتبشِّرها بأنها أعادت إليها الروح والطفولة والقدرة على كتابة الشعر:

واليوم.. يا أخت النهار
يا شامُ.. يا كل المدائن.. يا تراب أحبتي..
يا شرفة خضراء من نور ونار
اليوم.. في قلب الدوار
.... سكبتِ بي حبراً يفيض على شفاه دفاتري
وتراً.. صداهُ يلمُّ فيَّ تناثري...
وحروفه احترفت حريقاً كالخرافة ماردا..
فأنا على كفيْك.. رفرف جانحي
وعبرتُ نهر العمر باسمك وارتديت طفولةً...

وتذهب الشاعرة إلى البوح بأنها ترى الله في عينيْ الشام، فتسألها مغفرة الكبائر التي اقتُرفت بحقها: العمى والمرارة والتيه والجنون:

الله في عينيكِ حطَّ رحاله
وارتاح يوم سألتِه غفرانه..
...!! وأراك تبتسمين من غُصصٍ.. فهلا تغفرين...!؟
ثكلى .. ودامية الجبين..
أفتغفرين عمىً.. وطعم مرارة..
...ستفيض.. يخجلها رضاك إذا بدا
أفتغفرين التيه حطَّ رحاله.. ما بيننا
... ومن الجنون تزوَّدَ...!؟...!!؟

وتنتهي القصيدة بدمعة تسكبها لينا حمدان بين يدي الشام لأن ثراها وعد بالحياة ومولد لها، والشاعرة لا تنكث الوعد، والعمر مهما تاهَ لا يخون المولدا:

إنا لديكِ اليوم نسكبُ دمعةً..
وثراك وعدٌ بالحياة ومولدٌ..
الوعد ما ضيّعتُهُ..
... والعمر.. مهما العمر تاه..
... فلن يخون المولدَ.

محمد حسن العلي: أنا العربي

معارضة هجائية

في ما يسمى بالمعارضات الشعرية و التناص "يردُّ" الشاعر محمد حسن العلي بهذه القصيدة على الشاعر الراحل محمود درويش في قصيدته الشهيرة "أنا عربي"، التي يقول فيها :

"سجِّل أنا عربي
ورقم بطاقتي خمسون ألف
وأولادي ثمانية
وتاسعهم سيأتي بعد صيف..."

وفي قصيدة "أنا العربي" هذه يرجو الشاعر محمد حسن العلي الشاعر الراحل محمود درويش ألاَّ يردد هذه العبارة لأنه يخجل منها ومن كل ماهو عربي، من التاريخ العربي والأدب العربي ومن إخوته العرب الذين ألقوا به في غيابة جب يوسف غدراً وخِسةً وخيانة:

أنا أرجوك لا تكتب أنا عربي
انا خجلٌ من التاريخ والأدب
ورقم بطاقتي صفر وفاصلة من التعب...
أنا تاريخ ميلادي بعمر القحط والنُّوَب
وفارقة علاماتي من الطعنات والندبِ
رماني أخوتي في الجب
وما رحموا لضعف أبي..

وعلى الرغم من أن سوريا كانت بيتهم العربي، فقد خانوها وتواطأوا مع أعدائها ضدها واستخدموا التكفيريين الإرهابيين لتدميرها وقتل أطفالها ونسائها وشيوخها:

وبيتي كان موئلهم
وكم ناديتُ في الجلى ضمائرهم ولم تُجب
وخانوا إرث أجدادي
وعهدي دونما سبب
نبتْ جبناً سيوفهمُ
وغيل النصل بالقُرَب..
لحى التكفير تقتلنا
تصلي وهي في جُنب
وتربة كعبة الإسلام
رهن العرض والطلب
وكل بلادنا بيعت
غدتْ نهباً لمغتصب.

لكنـه يؤمـن بـأن السـوري طائـر فينيـق لا يمـوت ولا يخـاف ولا يستسـلم، بل سـينهض مـن تحـت الأنقـاض ثـورةً وعاصفة ولهبـاً يحـرق الغادريـن ويسـحق المغتصبين:

أنا السوري ذاك الطائر الفينيق
لم أخشَ ولم أهب
ولست مهادناً عمري
أنا جبل من الثورات واللهب
سأحرق كل غدار
وأسحق كل مغتصب.

ولفـرط غضبـه مـن خيانـة "الإخـوة" العـرب لأخيهـم السـوري يعلـن الشـاعر عـلى الملأ أنـه يريـد أن يشـطب اسـمه العـربي مـن التاريـخ وأن يسـجل اسـمه السـوري فقـط بـدلاً منـه:

أنا من أرض سوريا
سلوا عن قلبها الحدِب
أنا من جنة بالحبّ تجمعهم
وكلٌ رامَ نجدتها ولم يخب
أنا السوري سجِّلْني
يشرفهم غداً نسبي
وبعد النصر والتحرير في وطني
ألا سجِّل أنا السوري في شممِ.

محمد حديفي: من مقام الوجد

قصيدة مَن ومَن ومَن

يتحسَّر الشـاعر محمـد حديفـي عـلى بلـده سـوريا، ويعـبِّر عـن ألمـه بسـبب هجـرة السـوريين مـن ديارهـم وفقـدان كثيريـن منهـم في الغيـاب. ويخاطـب الذيـن هاجـروا والذيـن يعتزمـون الهجـرة مـن شـغاف قلبـه إلى شـغاف قلوبهـم في مقـام الوجـد، ملتمسـاً عـودة مـن غـادروا البـلاد وبقـاء مـن ينـوون المغـادرة، لأنـه بدونهـم لـن يتبقـى لـه مـا يربطـه بالحيـاة. ويتسـاءل: مَـن سـيطفئ نـار الحرائـق في دمـه، ومَـن سـيذكي المشـاعل إن اختطفتـه يـد المنـون، ومَـن ومَـن ومَـن؟:

وترحلون!!
قلبي يرتّل ما تيسر
من مقام الصبر
في زمن الجنون
هذي الحرائق في دمي
مَن سوف يطفئ نارها؟..
مَن بعدكم يُذكي المشاعل في دمي
إن لوّحت كفُّ المنون؟

ويتساءل الشاعر حديفي عمَّن يؤنس وحشته إذا غاب القمر، ومَن يملأ البيت اخضراراً في زمان القحط، ومَن يشعل وردة في الروح إن ناح القصب، ومَن يفتح الأبواب للشمس؟ ومَن يلقي البنفسج في دمه ويزيل الملح من مطر العيون؟:
وترحلون..!!
من سوف يؤنس وحشتي
في الليل إذا غاب القمر؟!!
مَن يملأ البيت اخضراراً
في زمان القحط
والكرم حطب؟..
مَن يفتح الأبواب نحو الشمس؟..
مَن سوف يسرق شهقة للروح
من حقل الغضب؟..
من غيركم يُقصي حقول الملح
من مطر العيون؟

ثم يسألهم إلى أين يرحلون وإلى أي أرض في الشتات يذهبون، وهي التي لا تهدهد نومهم ولا تحنو عليهم؟ ويقارن بين الأمس، عندما كانوا في ديارهم وعلى أرضهم ومع أحبائهم آمنين، وبين اليوم وهم في بلاد التيه وأرض الغربة وبين الغرباء:
وترحلون؟!!..

فلأي أرض لا تهدهد نومكم
في الليل
أو تحنو عليكم
ترحلون؟..

وبعـد أن رحلـوا لم يعـد الشـاعر يملـك مـن مقـام الوجـد سـوى قصيـدة حفـرت في جبـين المجـد دربـاً للضيـاع:

ما عدتُ أملك من مقام الوجد
غير قصيدة
حفرت حروفاً في جبين الموج
درباً.. للضياع.

ويختتـم الشـاعر محمـد حديفـي قصيدتـه بالمقارنة بين الأمـس، عندما كان السـوريون يمـلأوون البيـت ألحانـاً وحيـاة وضيـاء، وبـين اليـوم، حيـث صـاروا في بـلاد التيـه مثـل الغربـاء. ويبـث زفراتـه وحسراتـه عـلى وطنـه سـوريا الغارقـة في المحـن:

بالأمس كنتم تملؤون البيت ألحاناً
وشدواً للضياء
يا لسحر النغمة الجذلى
على حبل الغناء!!!
واليوم صرتم في بلاد التيه مثل
الغرباء!
وطن يكابد وهو يرسف
بالمحن
آهٍ و آهٍ ثم آهٍ
يا وطن.

محمد خالد الخضر: لقاء على باب المدينة، حب زمن الحرب

في قصيـدة الحـرب والحـب هـذه يعقـد الشـاعر محمـد خالـد الخـضر حـواراً بـين حبيبتـه وبـين الشـام، حيـث تتبـادل الحبيبتـان كلامـاً في الحـب والحـرب أو في الحـب

في زمـن الحـرب. فتطلـب الشـام مـن حبيبتـه أن تتمهـل ولا تتعجـل لأن ذلـك مـن مقتضيـات الحـب في زمـن الحـرب:

بستان نخل للقوام الأجمل
لبهاء حسنك في الحضور الأمثل
شمس على باب المدينة قد أتت
ترجوك في ظلماتها أن تقبلي.
قالت لها الفيحاء: مهلاً يا ابنتي
في الحرب يقضي الحب أن تتمهلي.

وهـا هـو الحبيـب، صقـر الشـعر، يحمـي الفضـاء ويعـود ليعلـن نـصره كأنـه القضـاء المـبرم، لأنـه لا يقبـل الدخـلاء، بـل يقاومهـم ويضربهـم في مقتـل:

الآن يمضي صقر شعرك ماجداً
يحمي الفضاء بقلبه المسترسل
ويعود من مجد ليعلن نصره
في حالة مثل القضاء المُنزل
لا يرتضي أبداً دخيلاً قادماً
يعطيه غضبته بأوفر مقتل.

تبتسـم حبيبـة الشـاعر للشـام وتسـألها عـمَّا إذا كان هـذا النـصر الـذي حققـه الجيـش العـربي السـوري مُهدى إلى فارسـها:

نظرت حبيبة شاعر وتبسَّمت
قالت أمام الشام في الليل الخلي
هل كان هذا يا دمشق لفارسي
هذا الذي بعد انتصار الجيش لي؟؟

محمد رجب رجب: أُعيذك موطني

يتفاخـر الشـاعر محمـد رجـب رجـب ويتباهـى بوطنـه سـوريا الـذي تعـرَّض للغـدر والعـدوان مـن شـتى قطعـان العـالم وغربانـه والمتسـترين والمتاجريـن بالديـن. ويعرب عـن ثقتـه بـأن سـوريا لـن تهـون ولـن تضعـف وسـتنتصر وتمـضي قُدمـاً في معـارج

العـلا عـلى يـدي الجيـش العـربي السـوري:

ستمضي للعلا وبك الفتون   وفوق حطيمهم رقص الجنون
سماؤك ملعب والمجد سفر   بخيْل سناه تُفتتن القرون
رموك بألف نابلة وغدر   وما فتئت جراحك لا تلين
مجرَّات من الغربان تترى   ولا وهنتْ برياك السنون.

ويذهـب الشـاعر إلى القـول إن سـوريا لا يزعزهـا شيء، وإن دمشـق ابنـة النـصر المـؤزر وربيبتـه، وعيـون الشـام لا تغفـو وشـامة الدنيـا لا تتهـاوى:

بلادي لا تزعزعها القيون   وإن بضلالهم عصف الرعون
دمشق ربيبة الظفر الموشَّى   بزرياب الشكيمة، لا تهون.
يُقال: غفتْ عيون الشام، كلا   بأرض الله لا تغفو عيون
يقال: شآمة الدنيا تهاوت   فلا والله ما صدقتْ ظنون.

ويمضي الشـاعر في إعـلاء شـأن سـوريا ووضعهـا في أعـلى درجـات المجـد، فهـي الدنيـا ونحـن رحاهـا، ولا ديـن ولا دنيـا بدونهـا، وتحرسـها عيـون حـماة الديـار مـن أبطـال الجيـش العـربي السـوري وبنادقهـم الباقيـات مـا بقيـت ميسـلون التاريـخ المجيـد. وسـتظل الأب والأم والإيـلاف، وسـتكون، حيـث عدوُّهـا لـن يكـون:

هنا الدنيا ونحن بها رحاها   بغير الشام لا دنيا ولا دين
حماة الديار داركمُ الثريا   بسيف خطاكم ائتلق الجبين
حماة الدار مجدكم شغافٌ   مقيم ما أقامت ميسلون
تظل أباً- أيا وطني- وأُماً   وإيلافاً وغيرك لا يكون.

محمود حبيب: سورية الاسم والفعل

يبـدأ الشـاعر محمـود حبيـب قصيدتـه بحـب سـوريا والتغنـي بهـا مـن عنوانهـا، فهـي "الاسـم والفعـل"، أي جملـة تامـة مفيـدة، كأن نقـول: "سـوريا تقـاوم". ويشـيد محمـود حبيـب بالجيـش العـربي السـوري المحـب لأرضـه والمنافـح عنهـا:

سرى إليكِ اشتياقاً والهوى سنن   قلب تَواءم فيه الروح والشجن
ما همَّه كُتمت نجواه أم نُشرت   ففي هواك تساوى السر والعلن
جيش الشآم وحبُ الأرض ما اجتمعا   إلا تبلَّج من فجريهما الوطنُ.

وينتقل إلى الحديث عن "إخوته" العرب الذين خذلوا سوريا وخانوها مع أنها لم تتسبب لهم بأي أذى. ويذكّرهم بأن سوريا طالما مدَّت يد العون والحب إليهم ودافعت عنهم، لكنهم قابلوا الجميل بالعقوق والطعن في الظهر:

كم راودتني وقد كادت ويعصمني بك اعتصامي.. وضلَّت دربها الفتن
ولم يصب إخوتي مني أذى ولقد بغوا عليَّ.. وثارت فيهم الضغن
المدَّعون بك القربى تقمَّصهم خزي فباعوا تراث الأهل وارتهنوا.
فكم مددنا إلى الجيران أيدينا وكم عطفنا عليهم كلما غُبنوا
باسم العروبة والإسلام ننجدهم وسوريا قولها بالفعل يقترن
فكان رد جميل القوم أنهم عقُّوا وعضُّوا يد الإخلاص واحتقنوا.

ويصل الشاعر إلى شن هجوم غاضب على العرب جميعاً من نسل قحطان وعدنان الذين لا يهمهم أن تسقط جميع العواصم العربية، فهم أذلاء ومَرضى نفسيون، ولا شفاء للأمة إلا باستئصال أدرانهم:

ما في بلاد بني قحطان.. زواية إلا ورانَ عليها الذُل والعفن
فالعُرب مرضى في أعماقهم درن وصحة الجسم أن يُستأصل الدرن
يا ليت.. يا ليت من عقوا مراضعهم لم يعرفونا.. ولا في أرضنا سكنوا.

وفي مسك ختام القصيدة يشيد الشاعر بشهداء الوطن الذين سقوا بدمهم غراس أرضهم كي لا تذبل أبداً، بلا شكوى ولا منَّة ولا مقابل لأن دم الشهيد لا يُقدر بثمن، وهو شأن من الشؤون الإلهية:

ما دمت تسقي غراس المخلصين دماً فليس يذبل في أوطاننا.. غصن
والحق يا شهداء الحق.. أنكم في عرفنا الفرض والأنفال والسنن
منحتم الوطن الأغلى.. دماءكم تُقدمون.. فلا شكوى.. ولا منُ
لكل شيء..ومهما قد غلا ثمن إلا الشهادة هذي ما لها ثمن
دم الشهيد اختصاص الله..ليس لنا علم يحيط بما يعطي.. وما يزن.

مجيب السوسي: زمن

في هـذه القصيـدة عـن الغـدر والحـرب والحـور العـين يضـع الشـاعر مجيـب السـوسي أصبعـه في عـين الغـدر والخيانـة اللذيْـن تعرضـت لهـما سـوريا عـلى أيـدي قبائـل الأعـراب التـي جـاء فرسـانها يحملـون "ربيـع" المـوت والـدم- في إشـارة إلى "الربيـع العـربي"- كي يصعـدوا إلى السـماء للقـاء الحـور العـين. غـير أن القتيـل المغـدور آتٍ كجـواد أصيـل، وسـيُبكي قاتليـه دمـاً:

آت- كما يأتي الجواد-
هو الذي يأتي
وحصة قاتليه الدمع ..
تعلَّم المغدور كيف الحرف
يركب زورقاً في التيه
كيف قبائل الأعراب تزحف
فوق رمل أسود
يطفو.. وتعلق فيه
أتربة الغباء.
الكأس كأسك ياسماء...
فاشرب..
تعددت القيامة
والردى فصل ربيعي
يسمي نفسه زهراً
ولون الموت أخضر
والدماء صبية تمشي
ولا كل النساء .

وفي الختـام يصـف الشـاعر مجيـب السـوسي مـا جرَّتـه الحـرب الهمجيـة عـلى سـوريا مـن أهـوال: فالبيـوت ذهولـة فقـدت بكارتهـا، والطرقـات والحِمـى وأنفـاس القـرى وُئـدت، والوقـت يفقـد عقلـه ويمـضي، والأشـياء تفقـد أشـياءها بسـبب الحـرب العدوانيـة التـي صـارت ربيعـاً، والقتَلـة الإرهابيـون صـاروا مجاهديـن يحلمـون بالحوريـات عنـد رب السـماء، يصعـدون إليهـن عـلى سـلالم درجاتهـا مصنوعـة مـن

الـرؤوس المقطوعـة:
إن البيوت ذهولة فقدتْ بكارتها
وقد هامت بلا أعصاب
والطرقات والحمى
وأنفاس القرى وُئدت
وليلٌ أخرس الدفقات
يمضي الوقت يفقد عقله
.. الأشياء لا تلوي على شيء من الأشياء!!
هي الحرب التي صارت ربيعاً
زاهي الخطوات
أشقرَ
مستفيضاً كالغبار
وحالماً بالحور..
أين الحور
يا رب السماء.

محي الدين محمد- اقرأ من العالي

في هـذه القصيـدة يُهـدي الشـاعر محـي الديـن محمـد حبيبتـه وصيتـه الأخـيرة التـي كان قـد كتبهـا عـلى حجـر بيتـه. وقـد بـدَّدت الريـح الظـلام الـذي كان يفصلـه عـن الـدرب، بينـما كان يحسـب الوقـت بالثـواني، أو يقيسـه "بملاعـق القهـوة" عـلى حـد تعبـير الشـاعر البريطـاني تي إس إليـوت في قصيـدة "الأرض اليبـاب". ولـذا فـإن محـي الديـن محمـد سيرسـل وصيتـه عـلى أجفـان البلابـل ويطلـب منهـا ألا تـتردد في إبلاغهـا للعابريـن سـلاماً:

لا تبخلي...
أُهديك آخر وصية
كنتُ على حجر البيت
كتبتها، والظلام الذي كان يفصل الدرب عني
بعثرته الريح.
إذاً..

سأُطلق فوق أجفان البلابل
بعض همسي،
وتحت آخر سحابة
قد ينبت ما كان خافياً..

وفي وصيته يذكر بألم وصدمة كيف أن صاحبه الذي كان يجالسه على مائدة الأمس ويشاركه الخبز والملح ويسرج له مطيته، أنكرَ الجميل وخان الخبز والملح اليوم:

فأذكر ذاك الذي على
مائدة الأمس
خيَّب ظني،
كم أنا شقي
يوم وددته
وكم أنا غيور
يوم أسرجت له المطايا
تباً لناكر الملح
والنبيذ صديقي
يناديني..
وإن عزَّ اللقاء
يقول احتملني.

ومع ذلك، فإنه يوصي أميرة قلبه بألا تخاف، ويبارك لها الطريق إلى الدفء حتى لو سرقوا كحل النساء؛ فسوريا كالعنقاء ستنهض من تحت الرماد، وسيقرأ من العالي أرومات الأماكن ومواويل من مطر الغياب القادم من دمه:

مبارك لكِ الليلة
الطريق إلى الدفء
بعد قليل
يغنيك الحمام
وإن سرقوا كحل النساء

تظلين وحدك
جارة قلبي
وأنثى الكلام .
لا تخافي..
أجمع من الميازيب
جسد العنقاء
التي من الموت قامت
وكالنحل أقرأ من العالي
أرومات المطارح كلها
وأنا البدوي النابت بين أطلال الخزامى..

مرشدة جاويش: إيقاعات مرتبكة لسمت النار

تتساءل الشاعرة مرشدة جاويش مستنكرةً: هل تغنِّي لانكسار الناي وهروب الحقل؟ أم تصلي لغريب يسرق ظلها ومكانها؟ أم للذي يغمد سيفه في صدر أخيه ويبكي عليه، أم تبيع حلمها في صفقة استسلام؟

هل أغنّي
لانكسار الناي فينا؟
هل أغنّي
لهروب الحقل منّا؟
هل أصلّي
لغريبٍ يفتح الباب
لكي يسرق ظلّي ومكاني؟
هل أصلّي
للذي يُغمدُ
في صدر أخيه السيف
كي يبكي عليه؟
هل أبيع الحلم والسوسن
في صفقة سلم خاسرة؟!

وتبحث الشاعرة عن المقاوم وتدعوه باسم الحب إلى توليد الرعد من الغيم كي يضيء المرحلة بأكملها، وإلى تفجير المقاومة:

مَن تراه الآن يخفي
في إهاب الماء
ومض الزلزلة..؟
إننا ندعوه بالحب المقاوم
باجتراح الرّعد
من أم الغيوم
لكي يضيء المرحلة
إننا ندعوك فاصعد
أيها الشجري فينا
للسماء المقبلة.

وتعلن الشاعرة عن سقوط الأقنعة عن وجوه الحكام الخونة وعملاء العدو وصيارفته الضالعين في قتل السوريين وفي تفتيت البلاد، ويستنهض المقاومين المسكونين بحب وطنهم ويهيب بهم أن يشقوا الطريق إلى المعركة الفاصلة، فليس هناك سواهم مَن يمكنه أن يخلِّص البلاد من هذا البلاء الرهيب:

سقط القناع عن الملوك
الضالعين بموتنا
إجلس أمام العائدين
إلى الشظية والقذيفة والردى
لا.. شكل للوطن المحُاصر والمقطَّع
هم صيارفة العدوّ
حُماته ورعاة تفتيت البلاد
فاخرج أيها المسكون
بالآيات والطلّقات
إن الأرض
تنتظر النشور
فمَن سواك

وأنت سمت النار
يبتكر الطريق
إلى القيامة والندى.

مصطفى صمودي: يا قامة الضوء

يعبِّر الشاعر مصطفى صمودي عن عشقه لأرض الشآم التي يصفها بأنها قامة الضوء وآية الله، ويطلب منها أن تمدَّ له يدها، ويقدم روحه فداءً لعينيها :

يا قامة الضوء.. مُدِّي للمحب يداً
روحي لعينيك يا أرض الشآم فدا
يا آية الله..إما فاض جوهره
لولا بهاك.. جلال الحسن ما وُجدا
في غوطتيك.. أرى النعمى مطرزة
حاك المحبون.. من نعمائها بُردا.
آلاؤك الخضر.. إشراقات قافيتي
راياتك الحمر .. سقياها دم الشهدا
يا وردة الروح .. ضمِّيني إليك هوى
حتى التماهي فروحانا قد اتَّحدا.

كما يصفها بأنها أرض البراكين التي لا تهِن ولا تهون ولا تستكين، وتقف للعدو بالمرصاد، وإذا مسَّها ضرر أمطرت حمماً ودماً وجمراً متَّقدا:

أرض البراكين.. لا هانت ولا وهنتْ
ولا استكانت.. فكانت للعدا رصدا
إن مسَّها الضرُّ يوماً.. أمطرت حمماً
دماً يمور.. وجمراً في الحشا اتَّقدا.

موفق نادر: يباب

يستهلُّ الشاعر موفق نادر قصيدة الحزن والإحباط والتشاؤم المقروءة من عنوانها "اليباب" بالحزن على فقْد أحبائه والرثاء لحالته لأنه يقف وحيداً بعد أن مضى الذين يحبهم إلى حتفهم وحدهم لا شريك لهم في التراب سوى دمهم، وكانوا قد لوَّحوا له بأيديهم واختفوا في العدم، ولا يعرف كيف يردُّ التحية لهم:

ها أنا واقفٌ
ورفاقي الذين أُحبُّ مضوا
وحدهم
لا شريك لهم في التراب
سوى
دمهم،
أياديهم لوَّحت لي وأنطفتْ فجأةً
في العدم
فكيف أردُّ تحياتهم.

وكأني بالشاعر عمرو بن معد يكرب ينشد:

"ذهب الذين أحبهم   وبقيتُ مثل السيف فردا."

ويتحدث الشاعر عمَّن يسمى "أخيه"، الغادر الذي غرز خنجره في ظهره، وأنشد أبيات شعر مهلهلة عن الشهداء والمساكين مخضَّبة بالألم:

أُداور ظني
لكيلا يقال بأني قتيل
وكيلا يقال بأني صنم
وكيلا يعاتبني مَن يسمى أخي
بطعنة خنجره المحترم
أراه يدب على مهل خلف ظهري
وينشد أبيات شعر ركيك
عن الشهداء المساكين
مرقونةً بالألم.

الواقع والحلم:

في الواقع، يـرى الشـاعر وسـط الـركام نسـاءً يحنـينَ ظهورهـن عـلى مضـض ويلتقطـن الغبـار ويعفِّـرن بـه أجفانهـن وشـفاههن اليابسـة. أمـا في الحلـم، فإنـه يـرى نسـاء يغنـين لحنـاً غريبـاً عـن الحـب ويضحكـن في نشـوة، ولكنهـن يصحـون فجـأة ويسـقطن وسـط السـواد و يتـلاشى الوقـت بطيئـاً و رخـواً ويـذوي النـاس ببـطء في الخـواء وتـذوب الخرائـط، ولا يبقـى مـن الصـور المشـتهاة سـوى بحـر مـن الدمـاء:

ووسط الركام نساء

حنيْنَ الظهور

على مضض

والتقطن الغبار

يبعثرنه فوق أجفانهن

وفوق يباس الشفاه..

وفي الحلم كانت نساء

يغنين لحناً غريباً عن الحب

ثم

يعرِّين سيقانهن

ويخبطن ماء الغدير

ويضحكن في نشوة المستهام.

وفي لحظة

ينتبهن

ويفركن أجفانهن

ببقيا الرماد

وينظرن نحو البلاد

تغشِّي العيونَ دموع

ويسقطن وسط السواد

وينهار وقتٌ

بطيئاً

ورخواً

كظل جواد كبا وانهدم

تذوب الخرائط
والناس
تذوي على مهلٍ في الخواء المُقيم
وليس يظلُ من الصور المشتهاةِ
سوى بحر دم.

ولعلَّ هذه القصيدة تذكِّرنا بالشاعر البريطاني تي إس إليوت المذكور آنفاً في قصيدته ذائعة الصيت "الأرض اليباب" في عنوانها وصورها وأجوائها، والتي تعجُّ بمشاعر الإحباط والسوداوية والخوف واللاجدوى والتوحش التي خيَّمت على العالم في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي حصدت أرواح ملايين البشر، والتي مطلعها البيت الذي اقتبسَه أو استخدم صورته غير شاعر عربي حديث.
" نيسان أقسى الشهور
يُنبت الليلك من الرض الموات"

د. نزار بني المرجة: طائر الرعد

في قصيدة التصدي والتحدي ورفض الاستسلام هذه لا يستسلم الشاعر نزار بني المرجة لليأس أو الإحباط، بل يرفضهما بشدة ويختار التصدي للعدوان وتحدي المعتدين، و يشن هجوماً مضاداً؛ فهو لا يقبل أن يكون "هابيل" الضحية بانتظار مجيء الغراب الذي سيواري جثته الثرى. ويقول إن المعتدين نجحوا في القتل، ولكنه يملك الرد الرادع المناسب عليهم: إذا كانوا هم القتل، فإنه هو العقاب:
أنا لست (هابيل) الضحية
.. لست أنتظر الغراب
كي يوارى جثتي!
..هم أفلحوا في القتل
والروح تمتلك الجواب:
..أنا العقاب.. أنا العُقاب!!

ويعلن أنه لا يزال في فمه ماء ولا بدَّ من لفظه كي لا يخنقه، وأنه طائر الرعد الأسطوري المدمَّى، وفضاؤه كبد السماء، وأنه طائر الفينيق الذي ينهض من

تحـت الرمـاد، وأنـه المـدى:
سيظل مائي في فمي..
أنا طائر الرعد المدمى:
كبد السماء فضائي المعهود والموعود
وأنا المحلِّق في سمائي.. في دمي!
..أنا طائر الفينيق
تقصدني القوافل والنهاية
كي تصير المبتدا
فأنا المدى..!

وفي نهايـة القصيـدة يعلـن أن عباءتـه مـن جمـر وأن الريـح في قبضتـه، والمـوت ليـس نهايتـه، بـل مجـرد فصـل مـن حياتـه. وحتـى لـو مـات ودُفـن، فإنـه ليـس سـوى جـزء صغـير مـن المـوت، وهـو كل النبـض والكثـير مـن الحيـاة:
جمر.. عباءة أضلعي
.. الريح قبض مخالبي
والموت فصل من حياتي..
فاسأل خلاياي العصية
..لا تفارق نبضها
حتى إذا دفنوا حياتي
في رفاتي!
..أنا بعض موت
..كل نبض
والكثير من الحياة!

تمامـاً مثلـما قـال الحسـين بـن منصـور الحـلاج عندمـا واجـه التعذيـب البشـع عـلى أيـدي رجـال المقتـدر باللـه ووزيـره حامـد بـن عبـاس، وصـدور الحكـم عليـه بالإعدام:
"اقتلوني يا ثقاتي   إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي   وحياتي في مماتي."

يحيى محي الدين: يمَّمتُ جرحك

يعبِّر الشاعر يحي محي الدين عن عشقه وتقديسه لسوريا، حتى أنه يخاطبها كقِبلة للمصلين أو كعبة للأحرار، فييمِّم وجهه شطرها:

يمَّمت وجهك عاشقاً
قلق الهوى
وثرى الشمال شمائل...
مَن ذا يغازل
كعبة الأحرار
غيرك مَن إذا
غزلت جهاتك نجمة
وخمايلُ؟
مَن ذا يباغت صمتنا
قمر على سطحي هنا
أم في الشآم بدائلُ؟
يممت وجهك تائباً
لا أنحني إلا لك
مستفسراً أتساءلُ
كم وردةً سقطت
بشرفتها؟!
وكم كُتبت على أسوارها قبل المداد رسائلُ؟
يمَّمتُ جرح الصابرين
على الطوى
وغضاضةٌ في خفقتي
ومسائلُ.

ويختم القصيدة بأن عقيدته ثابتة لا تتغير: "نُبل قديم وشعب أبيٌّ"، وانطلاقاً من هذه العقيدة يمجِّد شعبه واصفاً إياه بأنه شعب أبيٌّ، وييمِّم وجهه شطر جرح بلاده سوريا التي تبعث في نفسه الطمأنينة وتغمرها بالهيام:

هذي أناجيلي
وماغيَّرتها..
نبلٌ قديم والسنا
شعب أبيٌّ هائلُ
يمَّمت جرحك مطمئناً
هائماً
ومن الشمال شمائلُ.

خاتمة: العشرية الحالكة

أصدر اتحاد الكتاب العرب هذا الكتاب بعد مضي سبع سنوات عجاف على جراح سورية النازفات دمعاً ودماً، كما كتب معدُّ الكتاب ومقدِّمه الشاعر محمد حديفي، وعلى ما كابده الشعب السوري من آلام تُثقل القلب والروح وأمواج الظلام التي اجتاحت البلاد ولا تزال تجثم على صدرها، ولكن بالمقابل بعد مضي سنوات سبع على ملاحم البطولة والمجد والشهادة التي اجترحها الجيش العربي السوري والشعب السوري. وفي هذا العام، 2021، انقضت عشر عجاف، لتكمل "العشرية الحالكة" التي غشَتْ سوريا، ولا تزال الحرب الهمجية المتعددة الجبهات والأسلحة والمقاتلين تدور رحاها في سوريا، وليس أضعفها الجبهة الثقافية والسلاح الثقافي والمقاتل الثقافي. الأمر الذي يلقي على عاتق المثقفين الوطنيين والتقدميين واجب التحصُّن في متراسهم الثقافي لأنهم بذلك إنما يحصِّنون شعبهم، ولأنهم إذا غادروه غادروا الوطن. لكن كيف يغادر المثقفون الوطن؟ بأشكال عدة، من اللوذ بالصمت المريب إلى أداء دور الزمَّار الذي يعزف اللحن لمن يدفع له، إلى اقتراف الخيانة العظمى بالعمالة المفضوحة أو المستورة لأعداء وطنه وشعبه. لكن مثلما أنَّ هناك مقاومة وطنية وخيانة عظمى في ميدان المعركة العسكرية، هناك مقاومة وطنية وخيانة عظمى في ميدان المعركة الثقافية والفكرية. هنا يكمن، وهنا يتجلّى دور الثقافة والمثقفين في الذود عن الأوطان في المنعرجات التاريخية على وجه الخصوص.

الأوديسة السورية - 9 -

عماد نداف:
نصوص في حب الشام

يضيء هذا الفصل خمسة نصوص ذات صلة مباشرة بموضوع مشروع الأوديسة السورية، مختارة من كتاب "أذكريني دائماً! حكايات مخفية في شقوق جدران دمشق" للكاتب عماد نداف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2018.

"لم أكن أُجيد الرسم..
لم يشترِ لي أبي علبة ألوان مائية..
ولا سمعتْ أمي رغبتي باقتناء قماش أبيض للوحة التي أريد رسمها
أعطتني ورقة بيضاء وقالت:
ارسم برتقالة مدورة، ارسم شمساً، ارسم جهنم وخلّصني ..
اتركني لأتمم إعداد الطعام لأخوتك العائدين من المدرسة..
لم تعطني ريشة ولا قماشة ولم تشتر لي علبة ألوان مائية..
أعطتني ورقة بيضاء وقلماً، فشرعتُ أكتب وأكتب،
ثم صرتُ كاتباً..
حاولتُ رسم جهنم بالكلمات ففشلت، وها أنا أرسم الشام ولم انتهِ!"
مقتطف من "هامش" الكتاب

إنه حقاً كتاب نصوص في حب الشام لم ينته عماد نداف بعد من رسمها بالكلمات.

النص 1: عندما تُجاورك الحرب، أُكتب بقلم الكوبيا؟!

يحكي الكاتب عماد نداف أن جده، الذي عاش في زمن الحرب العالمية الأولى، "حرب الأربتعش"، كتب على ورقة صغيرة بضع كلمات بقلم "الكوبيا": "يلعن أبو الحرب، موت وذل وجوع"! ويعلّق على العبارة بالقول إن جده لم يكن ليكتب تلك الكلمات لو كانت الحرب وطنية أو على أرض فلسطين، مثلاً، أو كانت دفاعاً عن حياض بلاده، ولَكان قد كتب كلاماً حماسياً يدعو إلى الفخر. وتقوده حكاية جده عن الحرب العالمية الأولى إلى الحديث عن الحرب العالمية "الثالثة" ضد سوريا فيطرح أسئلة ثلاثة: ما هي أسباب موت السوريين في الحرب الدائرة حالياً ضد سوريا وعلى أرضها؟ وماذا سيكتب جده لو كان موجوداً في معمعانها؟ وماذا سنكتب نحن الذين نعيش في أتونها ونكتوي بنارها؟

ويجيب عن هذه الأسئلة بأن جده سيكتب الكلمات التي كتبها عن حرب الأربتعش؛ أما نحن، فسنكتب مأساتنا: لم نحرر فلسطين، ولم نحرر الجولان، ولم نحرر اسكندرون، فهل تضيع البلاد والعباد الآن؟!

عندئذ خطرت له فكرة لا يعرف كيف، ربما بوحي من عبارة جده، لكنها خطرتْ له بينما كان يقطع ساحة الأمويين فجراً تحت وطأة الانفجارات التي أحدثتها مفخخات الإرهابيين في جوبر، فعقدَ العزم على شراء قلم "كوبيا". ويصف قلم الكوبيا لمن لا يعرف من القراء بأنه "قلم يكتب باللون الأزرق النيلي ويشبه قلم الرصاص، ولا يكتب إلا إذا تم ترطيبه باللعاب عبر غمس رأسه بطرف الفم بين شفتين مضموتين! (أنا و جيلي نعرف جيداً قلم الكوبيا، فلطالما عُدنا من المدرسة إلى أمهاتنا بأفواه بنفسجية، الشفتان واللسان والأسنان، و"ياما" ضحك أقراني على بعضهم بعضاً في طريق عودتنا إلى بيوتنا في القرية). وقال في نفسه: "سأكتب شيئاً يشبه ما كتبه جدي قبل أكثر من مئة عام، سأرطِّب رأس القلم في فمي وأكتب على ورقة صفراء عبارتي الخالدة، ثم أضع الورقة في كتاب يقرؤه أحفادي بعد مئة عام!!"

كانت الفكرة طريفة ولكنه لم يجد قلم كوبيا في المكتبة، فأعطاه صاحبها قلماً يشبه لون حبره لون حبر قلم الكوبيا. أحضرَ ورقة صفراء وقرر أن يكتب، فتلعثم:
"ياهول الحرب.. ماذا أكتب؟!"

وضعَ الورقة على صحيفة مطوية واعتزم فعل شيء يشبه ما فعله جده قبل ما يربو على مائة عام. وضع القلم في فمه وكأنه يرطبه بلعابه كي يكتب، وراح يحاول صياغة العبارة المناسبة عن الحرب، فطال تفكيره وظل القلم في فمه. وبينما كانت أصوات القصف تهدر من جميع الاتجاهات جاءه اتصال:
- "القذائف تنهمر في باب توما والعباسيين..."، ثم جاءه اتصال آخر:
- "المجموعات المسلحة تقترب من حماه..." وبعدهما جاءه اتصال ثالث:
- "بابا خلينا نهاجر.. بابا الله يوفقك خلينا نهاجر!"

عندئـذ قـرر الكاتـب التخـلي عـن كتابـة عبـارة تشـبه عبـارة جـده، فرمـى الورقـة والصحيفـة وتوجَّـه إلى مـكان عملـه. في مصعـد المبنـى نظـر زمـلاؤه الموظفـون إلى وجهـه بدهشـة، وسـأله أحدهـم:

- ما الذي حصل يا أستاذ؟ لماذا صبغت شفتيك باللون الأزرق؟

وقال آخر مازحاً:

- هل كنت تكتب رواية بقلم الكوبيا؟!

النص 2: عندما قررتُ أن أصبح مجنوناً (أيام الحرب)

"لم أعد أحتمل هذا الذي يجري!"

بهـذه الكلـمات يبـدأ النـص، فيعلـن الصحفي/الكاتـب أنـه لم يعـد يحتمـل كل هـذا البـلاء الـذي يعصـف ببلـده سـوريا، ويذكـر بعـض الأمثلـة عـلى مـا ترتَّـب عـلى هـذه الحـرب الرهيبـة مـن آثـار قاسـية وبغيضـة عـلى السـوريين والمجتمـع السـوري. فالكهربـاء مقطوعـة والمـازوت مفقـود والبنزيـن يتطلـب الوقـوف في طابـور طويـل، والنقـود تتبخـر أو تـذوب كالملـح، ولا يسـتطيع المواطـن أن يعيـش بـدون دفـع رِشى، ويجـب ألا يمـرض أو يشـكو مـن قلـة الـدواء أو العـلاج، وألا يمـوت لأن أحـداً لا يهتـم حتـى بدفنـه.

ويضيـف أن مـا لا يقـل عـن ذلـك كلـه إيلامـاً مـن تبعـات هـذه الحـرب الهمجيـة عـلى مواطنيـه أنهـا أدت إلى تغيـير منظومـة القيـم والمفاهيـم والسـلوكات برمَّتهـا، إلى حـد أنـه سـمع أحـد العنـاصر عـلى الحاجـز وهـو يصيـح في وجـه طبيـب ويؤنِّبـه: "هـذه المسـألة لا تخصـك. أنـت لا تفهـم، هيـا امـشِ!" ومـشى الطبيـب.

حتـى سـائق التاكـسي قـد يفاجـئ الراكـب بصفعـة إذا لم يعطـه ثلاثـة أضعـاف مـا يسـتحق، ويتـبرَّم أمامـه وكأنـه عالـة عـلى المجتمـع، ويقـول لـه صراحـة إنـه لم يرتـح لـه منـذ لحظـة ركوبـه سـيارته، وربمـا يرميـه خارجهـا عـلى مـرأى مـن الشرطـي!

ثـم يعـرِّج عـلى الحديـث عـن اتسـاع التبايـن الطبقـي بـين الأغنيـاء والفقـراء وتفـشي الفسـاد وسُـفور مظاهـر المجـون والسـفَه. فهنـاك مـن يعيـش مثـل الكونـت دي

مونت كريستو بعد حصوله على الكنز في رواية الكسندر دوما، فأصبح من مُحدَثي النعمة الذين يبعثرون المال يميناً ويساراً وينتقمون من أعدائهم القدامى، وهناك من يدفع رزمة من المال على طاولة عشاء. ويورد حادثة وقعت أمام عينيه نموذجاً لما ذهب إليه:

"كُنا مجموعة من المثقفين نشرب الشاي في مطعم ونتحاشى أي طلب قد يرفع الفاتورة إلى ما يعادل مكافأة مجموعة قصصية في وزارة الثقافة "العجوز". وفجأة دخل شابان فوضويان يرتديان بذلتين مبرقعتين مع فتاتين غريبتي الهيئة..

شغل هؤلاء الأربعة العيون، وقد انهالت أصناف الطعام على الطاولة، وكان السؤال: كيف يدخلون إلى هذا المطعم وقيمة الفاتورة تعادل راتب أسرة شهيد؟! جلسوا نحو ثلاثة أرباع الساعة، أكلوا قليلاً مما طلبوه، ومع ذلك دفع أحد الشابين الفاتورة بلا مبالاة ثم خرجوا إلى مكان ما..

سألنا الكرسون: شو القصة؟ كم بلغت الفاتورة؟ فأجاب ضاحكاً: هؤلاء الفاسدون يتجولون في الحارات بملابس الجيش، والجيش يا حسرة..!
سألناه: والفتاتان؟ فردَّ: داشرتان وسترونهم جميعاً بعد لحظات في إحدى زوايا الحديقة العامة!!"

هكذا يعقد الصحفي/الكاتب ثلاث مقارنات صادمة، في حادثة واحدة، بين حال هؤلاء "الدواشر" من جهة وبين أحوال المثقفين االسوريين وأفراد الجيش العربي السوري وأسر الشهداء من جهة أخرى:

ففي المقارنة الأولى يقول إن ثلة من المثقفين كانوا يشربون الشاي في ذلك المطعم ويحرصون على ألا تزيد قيمة فاتورتهم على مكافأة مجموعة قصصية تقدمها وزارة الثقافة. وفي الثانية "يتهوَّل" من أن قيمة فاتورة الطعام الذي لم يأكل منه "الدواشر" سوى القليل - بطراً أم زُهداً يا ترى؟- وسيُرمى الباقي في حاوية القمامة، تُعادل راتب أسرة شهيد بأكملها؟! وفي الثالثة يستنكر ارتداء هؤلاء الدواشر من أبناء الفاسدين زي الجيش والتجول به في الحارات لبسط

نفوذهم والتغطية على فسادهم، بينما أبطال الجيش العربي السوري يقاتلون في ساحات الوغى الممتدة على اتساع الأرض السورية ويقدمون دماءهم ويبذلون أرواحهم في سبيل الدفاع عنها وتحريرها. "والجيش يا حسرة" بحسب عبارة نادل المطعم الأبلغ من كل كلام.

بعد ذلك المشهد المؤلم والمستفِز يغادر الصحفي مع زملائه المثقفين المكان، فهو لم يعد يطيق ما يجري، وعليه أن يحارب بسيف من خشب كي يتجاوز الأزمات، وأن يتناول حبوباً مهدئة كي يقتنع بما يجري أمام عينيه! وهو يعتقد أنه لا شيء يمكن أن يغير الحال وأن من الصعب على أيٍّ كان أن يغير الحال، حتى أولي الأمر. وقد ازداد أُولو الأمر وتكاثروا، حتى أصبح لكل حارة ولي أمر، وما على المواطن إلا أن يقدم له فروض الطاعة ويدعو له بطول العمر!

"أخيراً وجدتُ الحل!" يُعلن الصحفي. فكيف وجده وممَّن استمدَّه؟
وجدَه بالمصادفة واستمدَّه من تجربة الناطور "أبو الياس"، الذي اتصل به أحد العناصر الفاسدة في بعض الأجهزة الأمنية بهدف ابتزازه، في لحظة كان أبو الياس قد شرب حتى "تعتَعه" السكر وفقدَ عقله الخوَّاف، فأخذ يشتم ذلك العنصر والجهة التي يعمل معها ومَن أرسله، فخاف العنصر ولفلف الموضوع ظاناً أن أبا ألياس مسنود بقوة أقوى إلى حد أنه لا يخاف من أحد. بالطبع لم يكن العنصر يعرف أنه مجرد ناطور خبزه كفاف يومه.

أبو الياس إذن يمكن أن يكون أقوى من الفاسدين! ولذا قرر الصحفي أن يصبح مجنوناً مثله كي يتدبر أمره في التعامل مع جيش الفاسدين. فصار عندما تواجهه مشكلة مع أية جهة كانت، يشرع بالصراخ كامرأة فاجرة ويحتجُّ ويشتم ويتطاول على الآخرين، وأحياناً يقوم بتأنيب المسؤولين في مكاتبهم، "فمشتْ الأمور" كما يقول!!

منذ ذلك الوقت بدأ الآخرون بعرض خدماتهم عليه: من تأمين المازوت، إلى ملء سيارته بالبنزين دون الوقوف في الطابور، إلى توصيل التيار الكهربائي لحارته لساعات أطول عندما يعود إلى البيت، فراح يتنفس الصعداء، يا للجنون ما أجمله! على حد قوله.

في الأيـام الأخـيرة دارت الأسـئلة بـين النـاس عـن مصـدر قـوة هـذا الصحفـي الـذي لا يخـاف أحـداً، وعـن المسـؤوليات التـي يتولاهـا، ومَـن يقـف وراءه؟ كان كل شيء غامضـاً، وأضـاف هـذا الغمـوض إلى قوتـه عنـصراً جديـداً..

صـار السـؤال الملحُّ مالـئ الدنيـا وشـاغل النـاس: مَـن يقـف وراء هـذا الرجـل؟ وعندمـا أخبرهـم بـه انحنـت رؤوسـهم لـه وتملَّكهـم الرعـب:
"ترامت الأسئلة أمامي: مَن يقف وراءك؟
تجهَّم وجهي وأنا أردُّ:
ألا يعرفون من يقف ورائي؟ بسيطة،
إنه أبو الياس، هل تعرفونه؟!
وانحنت الرؤوس خوفا!"

النص 3: الليلة التالية لغارة الصبورة!

استيقظتْ ابنتـه فجـأة وهرعـت إلى غرفـة نـوم أبيهـا وانفجـرت بالـصراخ فزعـاً مـن دوي الانفجـارات التـي هـزَّت الجهـة الغربيـة لمدينـة دمشـق نتيجـةً للغـارات الجويـة التـي وقعـت عـلى "الصبـورة" القريبـة مـن بيتـه. وقـد ذكَّرتـه أصـوات القصـف بالغـارات الإسرائيليـة التـي وقعـت قبـل سـنوات عـلى جبـل قاسـيون وجمرايـا وأحدثـت هـزة أرضيـة بقـوة 4 درجـات مـن شـدة قوتهـا.

في تلـك الليلـة خـرج مـن البيـت وقـاد سـيارته نحـو المدينـة التـي كانـت مغسـولة بمطـر خفيـف، عاقـداً العـزم عـلى المـشي تحـت المطـر هـذه الليلـة مهـما حصـل! دخـل المدينـة ومـشى في أحـد شـوارعها الـذي كان خاليـاً إلا مـن أربعـة أشـخاص تفرقـوا وبقـي لوحـده تمامـاً. كانـت المدينـة خاليـة مـن المـارة ومعتمـة، فالكهربـاء مقطوعـة، ولا خيـط شـعاع للقمـر أو حتـى لنجمـة يخـترق طبقـة الغيـوم المتلبِّـدة التـي أغلقـت بوابـة السـماء وحجبـت ضوءهـا تمامـاً، فغـدت دمشـق حالكـة السـواد كغرفـة مغلقـة بـلا نوافـذ.

نظـر إلى نوافـذ البيـوت فلـم يـرَ مـا يوحـي بالحركـة.. الجميـع نيـام.. الشـوارع فارغـة.. إشـارات المـرور لا تعمـل.. الجنـود اختفـوا وراء الحواجـز يلـوذون ببعـض الجمـرات.

أمام هـذا المشـهد الكئيـب والمخيـف أخذتْـه الهواجـس إلى الحربـين العالميتـين الأولى والثانيـة، حيـث كانـت أحـوال الشـعوب وأهـوال الحـرب شـبيهة بأحـوال الشـعب السـوري وأهـوال الحـرب العدوانيـة التـي تـضرب بـلاده منـذ سـنوات عـشر، وأخـذ يقـارن في عقلـه الواعـي بـين الحيـاة المزريـة التـي يعيشـها السـوريون وبـين الحيـاة المترفـة لمَـن يدفعـون عـلى مائـدة عشـاء واحـدة نصـف مليـون لـيرة في سـهرة قصـيرة في أحـد مطاعـم أوتوسـتراد المـزة!

لكنـه عـلى الرغـم مـن كل هـذا السـواد والبـلاء العظيـم الـذي يخيـم عـلى المدينـة، فإنـه لم يفقـد الأمـل في الخـلاص، ومـا أن أحـسَّ بـرذاذ المـاء عـلى وجهـه، ولامسـت أنفَـه رائحـة الياسـمين القادمـة مـن شرفـة البيـت القريـب منـه حتـى شـعرَ بسـعادة غامـرة وأحـسَّ بـأن دمشـق تعـود، وأن فجرهـا المغسـول بـرذاذ عـذب لا بُـدَّ آت بعـد قليـل!

فجـأةً لمعـت السـماء والأرض وتحـوَّل كل شيء إلى نهـار، فظهـرت دمشـق كـما هـي.. في غايـة الجـمال. وبعـد ثـوانٍ دوَّت انفجـارات متتاليـة أشـعلت في قلبـه الخـوف عـلى نفسـه وعـلى ابنتـه، تبـيَّن أنهـا أصـوات الرعـد الـذي أعقـب الـبرق، وظهـر عـلى مقربـة منـه شـبَحان متلاصقـان ظـنَّ أنهـما تمثـال، واتَّضـح لـه أنهـما عاشـقان متعانقـان كشـفهما الـبرق و ألصقهـما الرعـد معـاً، فشـتَّان بـين أصـوات انفجـارات قذائـف الهـاون التـي تطلقهـا "جبهـة النـصرة" لتدمِّـر المـدارس وتحـوِّل أجسـاد تلاميذهـا الغضَّـة إلى أشـلاء، وبـين أصـوات انفجـارات الـبرق والرعـد السـماوية التـي تدمـج جسـديْ عاشـقين في روح واحـدة. فوقـف مذهـولاً بانتظـار بـرق ورعـد جديديْـن "يغسـلانه عنـد الفجـر الـذي بـزغ!"

النص 4: صاحب "السعادة" الانفجار

للانفجـارات وجـه مألـوف لديـه وأثـر رهيـب عليـه، منـذ حـادث تفجـير السـيارة المفخخـة، الـذي أحـرقَ وجـه حبيبتـه وأودى بحياتهـا، في حـي "الفاكهـاني" ببـيروت- الـذي كان يُطلـق عليـه "جمهوريـة الفاكهـاني" برئاسـة يـاسر عرفـات أبـو عـمّار- إبـان الحـرب الأهليـة اللبنانيـة، و حتـى التفجـيرات التـي لا تُحـصى التـي اسـتهدفت، ولا تـزال تسـتهدف بلـده سـوريا.

بيد أن تفجيرات ساحة الأمويين الدامية التي وقعت في دمشق، أجمل مدينة آمنة في التاريخ، أثارت في أعماقه مجدداً نفس الإحساس السابق الذي انتابه إثر انفجار الفاكهاني. وفي وصفه للانفجار يقول إنه لا توجد كلمات تعبِّر عن معناه الحقيقي إلا عبارة واحدة: "إنه يشبه وحشاً يراك ولا تراه.. وحشاً أسطورياً"! وفي شرح هذه العبارة الوجيزة يقول إن الانفجار هو الخوف نفسه في درجة ما، والرعب عندما يكون أشد، والهلع عندما يقترب منك أكثر، والموت عندما تمزقك شظاياه! ولا يمكن أبداً مزاولة التفكير في لحظة وقوعه، لأن الجسد يكون قد انفصل عن هذه الآلية وذهب باتجاه آلية رد الفعل التلقائي، أي أن التفكير يتعطَّل ليحلَّ محله رد الفعل البيولوجي.

وعندما يقع انفجار آخر ويمدُّ لسانه له ويسأله شامتاً:

- ألم تمتْ بعد!؟

سيردُّ عليه متحدياً:

- "وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموتُ"!

ويضيف متفائلاً وواثقاً:

- أنت لم تقتلني بعد، وربما أموت في يخت ساحر في جزر الكاريبي وأنا أحلم بعروس البحر!"

النص 5: أبو شاكر بائع العصير

مَن هو أبو شاكر هذا الذي يتذكره الكاتب قبل غيره فور سماعه خبر سقوط قذائف هاون على رؤوس سكان مدينة دمشق أصابت الزاهرة وطريق الصالحية والشعلان وشارع 29 أيار مقابل سينما السفراء وساحة النجمة ومحل أبو شاكر بائع العصير في إحدى زوايا الصالحية؟ إنه بائع العصير اللذيذ والكوكتيل المتميز الممزوج بضحكته الأجمل التي تبثُّ طاقة إيجابية في نفوس جميع الزبائن والمارة، وملتقى المثقفين والناس العاديين الخارجين من المسرح والسينما والتلفزيون، وأحد رموز الزمن الدمشقي الجميل. وفور سماعه الخبر كتب متسائلاً ومخاطباً أبا شاكر:

- هل أصابتك القذيفة يا أبو شاكر؟

- لا أعرف

- هل تتذكر جيداً ما قلتُه لك قبل عامين أو أكثر عندما صادفتك في الطريق؟ حيث قلت لك:
- إن ضحكتك كانت أجمل من ضحكات أبناء مدينة دمشق، فلماذا بهتتْ هذه الضحكة؟ لماذا أشعر الآن أن ضحكتك تغيرت؟"

وعندما شعر أن ضحكة أبي شاكر بهتت وتغيرت، سأل عن سبب تغيّر ضحكات الشام كلها وتغيُّر ليالي شارع الصالحية، حيث كان ورفاقه يمشون ويتحدثون عن الوطن والمستقبل والأدب والشعر والصبايا، قبل أن ينتهي بهم المطاف عند محل أبي شاكر على وقع كلمات الترحيب اللطيفة والضحكة الجميلة التي يقابلهم بها.

عندما قرأ أخبار سقوط قذائف كثيرة على دمشق وأصابت مواقع مختلفة، منها محل أبو شاكر بائع العصير، سرعان ما توقف عند اسمه! لم يصدق الخبر، فعند أبي شاكر يتجمع العشرات من السوريين، حيث يرتاحون من مشوار يومي، يجلسون على الرصيف أو يقفون، يتهامسون في هموم النهار. عادَ يبحث عن التفاصيل، وطرح مئة سؤال وسؤال، لكن أهمها سؤال غريب: "لماذا يستهدفون ضحكة أبي شاكر التي تُفرح الناس؟"

وفي الختام يبتهل الصحفي إلى الله أن تعود البلاد كما كانت ويعود الوطن كاملاً إلى السوريين ويعود السوريون الطيبون الآمنون إلى الوطن. ويحدوه الأمل في أن تعود دمشق كما نريدها جميعاً، يداً ممدودة للعصافير.. فتأتي العصافير وتنقر منها حبات القمح دون أن تخاف، فالعصافير لا تخاف من دمشق ولا الستاتي ولا السنونو ولا الحمام..لا أحد يخاف في دمشق، فلماذا يزرعون الموت والخوف فيها؟

ثم يسأل أبا شاكر عمَّ يفكر به الآن، ويجيب نفسه:
"أفكر بشيء واحد، هو مصير سورية. وعلى السوريين أن يفكروا بهذا المصير، عليهم أن يعلنوا للعالم أن سورية ستبقى وتعود كما كانت، آمنة طيبة جميلة عطرة وأن يعلنوا أيضاً أنهم هم من سيصنع الزمن القادم زمن المحبة والأمان! لعلَّ ضحكتك تعود- يا أبا شاكر- لعلَّ ضحكة السوريين تجتاح العالم."

الأوديسة السورية - 15 -

أحلام غانم:

حيث يسكن الياسمين ـ زفاف الياسمين

يضيء هذا الفصل من الأوديسة السورية رواية "حيث يسكن الياسمين، زفاف الياسمين"، أحلام غانم، مؤسسة سوريانا، 2018.

تمهيد

في البدء تجدر الإشارة إلى أن اختيار الاقتباسات من الرواية كلون أدبي، على وجه العموم، يُعتبر تحدياً صعباً من وجهة نظر "أنثولوجيا نورتون للأدب الإنجليزي" Norton Anthology of English Literature التي أشرنا إليها في فاتحة الكتاب لأن الاقتباسات لا يمكن أن تغطي المساحة الواسعة والمتعددة والمتشعبة لهذا اللون الأدبي، ولذا فإن الاقتباسات من رواية "حيث يسكن الياسمين" ستكون محدودة.

كما أود أن أشير إلى أن الكاتبة أحلام غانم تستخدم اللغة الشعرية في مساحة الرواية بأكملها، وهو شكل من أشكال السرد الشعري الطابع الذي شاع في بعض أوساط الروائيين في الآونة الأخيرة ، و ربما أغراهم بكتابة الرواية ولن أخوض هنا في "تقييم" هذه الظاهرة السردية، فليس هذا مجاله.

في الفصل الأول من الرواية تقدم الكاتبة الراوية وصفاً للكارثة التي حلّت ببلادها وما تعرّضت له من فظائع، وتدعو إلى تلبية نداءات الضمائر الحية برفع صوت الحقيقة واتخاذ الموقف الوطني السليم من العدوان على سوريا:

"إن حجم الدم الذي يتدفق من جسد البلاد كل لحظة لا يزال أكبر من طوفان نوح في بحر آدم.. وإن الضمير يدعونا إلى احترام نداءاته التي لا تقبل الزلق إلى أن يرتفع الصوت إلى مستوى الضمير المعذّب الذي لا يدّخر جزءاً من الحقيقة مخافة أن يثير عتباً لئيماً عند هذا الطرف أو اعتراضاً عند ذاك." وتتساءل: كيف حدث ذلك الجنون؟

شاهدة عيان

"اليوم التاسع عشر من آذار 2011، أي بعد مرور يوم واحد على انطلاق المأساة السورية في مدينة درعا، كانت الساعة الثالثة ظهراً عندما توجهتُ من مدينتي

نحو مدينة الياسمين دمشق. لم يمنعني الطوق الأمني الذي فُرض على المدينة من دخولها. وصلتُ في الخامسة عصراً.. اشتباكات عنيفة بين قوات حفظ النظام ومثيري الشغب أو ما يعرف بالمندسّين، ما رأيته بأم عيني آنذاك هو أن أجهزة الدولة لا تتفوق على المتظاهرين سوى بخراطيم المياه."

"الدخان قاب دمعتين من بابه المكسور (باب الجامع)، وفجأة وجدتُ نفسي أمام اشتباك بالعصي والحجارة والهراوات، وأقسم أنني لم أشاهد بندقية أو أسمع رصاصة.. تقدمتُ في العمق ودخلتُ الجامع كي أهرب أو أحتمي من نار ألسنتهم الكاوية، ففوجئتُ بسماع صوته يقول: أطلقوا النار على مفاصل الأم.." وعندما زارها الماضي على عجل في وقت غير متوقع، انطلق مخيالها المجنح ونفثت زفرة: " آه يا وطني كيف يمزِّق قلبَك العاطلون عن الحب؟!"

وتمضي الكاتبة في شهادتها لتشير إلى وصول معلومات مفادها أن مسلحين غرباء قادمون، وذلك إما لكي يتأهب الشباب المتواجدون هنا، أو لإيهامهم بقدوم قوة كبيرة بهدف دبِّ الرعب في نفوسهم. في هذا المكان حبسوا أنفاسهم، وكان عدد الشبان أكبر بمرتين من عدد الفتيات المرشحات للقتل إذا لم يستجبن لنزواتهم. وقد جلبوا معهم كل ما يلزم للقيام بهذه المهمة. وأظهرت الفيديوهات أنهم مقبلون على ارتكاب مجزرة لا محالة. فقد ظهرت السواطير والأصفاد الحديدية والقناصات والحبال ووسائل التعذيب والنظارات السوداء والسيارات الفارهة وربطات العنق الأنيقة للتمويه. وكادت الراوية تسمع ألسنة المجتمع النارية الجاهزة أيضاً لحرقهن حتى لو كنَّ بنات فاطمة الزهراء نفسها.

وتلاحظ أن الصمت قد خيَّم على المشهد العام لفترة، وصار لا بد من كسره وكشف المستور، وأن الأشد بشاعة هم أولئك الذين جمعوا المال بشتى الطرق باسم الجياع والفقراء والدين واكتسبوا القوة والسلطة. وثمة مراهقون يختلفون في النزوات والأهواء والرغبات، ويتّكئون على عصا الخيبة ويرمون القدَر، هؤلاء هم الذين تصدَّروا مشهد "التغيير" بما يتوافق مع التزوير. ولم يسبق لهؤلاء أن وصلوا إلى هذا العمق في المساجد، ففي ما مضى كان الجامع جامعاً حقيقياً للحب والطريق إلى الله. رأتْ رجلاً قصير القامة، يبدو أنه ضرير، قيل لها إنه

الشيخ أحمد الصياصنة وإنه مرجع كبير في قاموس انطلاق شرارة "الثورة" من درعا، فما الذي أتى به إلى دمشق؟ هل هو الشيخ الصياصنة فعلاً، أم شبيه به؟

وعندما تقدمتْ قليلاً فوجئتْ بوجود أسطوانات غاز وأكسجين وتجهيزات طبية جعلت المسجد يبدو كمستشفى ميداني، مما أثار دهشتها وأشعل نار الشك في عقلها، وحمَلها على الاعتقاد بأن كل شيء داخل الجامع يوحي بأن أحداً ما يُحضِّر لتخريب الوطن بأسره، وليس المدينة فقط. وقد لفت نظرها طريقة تعامله مع رجالة، إذ كانت هناك إشارات ضمنية في تعامله معهم ، وبدا أنهم يجيدون التقاط الذبذبات العصبية للإشارات التي تصدر عن التخطيط الدماغي لقائدهم الضرير. فعندما رفع يده اليسرى، التقطوا أنفاسهم، وبصورة تبدو تمثيلية، أعادوا أيديهم التي كانت تشدّ على مسدساتهم إلى أماكنها.

وبإشارة من الرجل ذي اللحية الحمراء، قسَّم رجاله إلى مجموعات صغيرة وأرسلهم باتجاهات مختلفة: اثنان من هنا نحو القبو، اثنان آخران إلى أعلى، اثنان إلى المصلَّى، واحتفظ لنفسه بالممر الحلزوني المطل على جميع الجهات مع شخص آخر يبدو أنه أخوه لأنه يشبهه تماماً. وكان يحلم بعروس اسمها دمشق.. بينما دمشق تنتحب وتخضِّب وسادتها بالدموع وتستغيث بأبنائها من قلب العتمة: "يا أبنائي يا أبنائي".

وتثير الكاتبة قضية في غاية الأهمية تُعتبر عاملاً أساسياً في الحرب الهمجية على سوريا، وهي إنهيار منظومة القيم العليا في المجتمع وتفشي قيم العولمة الرأسمالية المتوحشة والفكر الظلامي التكفيري على المستويين الفردي والجمعي، وهي قيم تشن حرباً موازية على "الشموس الثلاثة التي يرفعها رب العرش العظيم في سماء سوريا على أكفِّ أبطال الجيش العربي السوري: وطن، شرف، إخلاص".

تساؤلات وأسئلة موجعة

في هذا السياق تتساءل الكاتبة كيف يمكن لشقيقة أن تبحث عن فتوى قانونية لإثبات أن شقيقها مجنون كي تحرمه من تركة والدهما المتوفي وتستولي عليها؟

وعـن معنـى أن يـؤسَر شـخص لأنـه ينتمـي إلى طائفـة أخـرى أو مذهـب آخـر أو حتـى رأي مخالـف، ويُـزجَّ بـه مـن قبـل بني جلدتـه في زنازيـن "أبـو بكـر البغـدادي" أو "أبـو محمـد الجـولاني"، مقابـل بريـق الذهـب أو سـحر البنكنـوت الأخـضر؟ وأن يُنتـزع مـن بيتـه ويُرغـم عـلى حفـر نفـق لعبـور أعدائـه إلى بلـده؟ وأن تُسـلب كرامتـه بالـضرب والتعذيـب والاغتصـاب والتشريـد، وأن يُعاقـب بـلا ذنـب ارتكبـه؟ وأن يتـم إقصاؤه اجتماعيـاً وحرمانـه مـن فـرص التقـدم؟ وأن يُـترك للذبـح في أحيـاء تنهشـها الجريمـة والمخـدرات والأفعـال الشـائنة؟

كـما تسـأل، مسـتنكرةً، مَـن تسـميهم "سـدَنة الكعبـة" أيـن هـم مـن فتـاة الياسـمين التـي انتحـرت شـنقاً في الغرفـة التـي تقيـم فيهـا مـع أمهـا مـن شـدة الفقـر والعـوز بعـد وفـاة والدهـا المريـض وشـعورها بامتهـان كرامتهـا لأنهـا اسـتدانت بعـض مـا يسـدُّ رمـق الحيـاة مـن جارهـا البقّـال؟ وكيـف يمكـن أن يضـع الإنسـان نصـب عينيـه أن يجمـع ثـروة بأوسـخ الطـرق؟ إنـه أمـر لا يُصـدق! وتجيـب الكاتبـة عـن تلـك الأسـئلة الصادمـة وغيرهـا:

لقـد تـم هـدم منظومـة القيـم العليـا، فحلَّـت الكارثـة وبـدأت التربـة تتشـقق تحـت الأقـدام وتكشـف عـن الوجـه البشـع للنـاس بأننـا أُصبنـا بالشـلل الفكـري بعـد اعتـماد أعـداد غفـيرة مـن النـاس عـلى المسـاعدات الغذائيـة، أو أننـا كنـا مشـلولين منـذ البدايـة ونسـير عـلى عـكّاز الجهـل بالديـن. وهـي تعتقـد أن مـا حـدث ويحـدث في سـوريا شيء يشـبه القيامـة غـير المرئيـة.. ولكنهـا لـن تقـف مكتوفـة اليديـن ولـن تلـوذ بالصمـت المريـب وهـي المنـذورة للكلمـة الطيبـة. ولـذا تقـول إنهـا يجـب أن تتكلـم: ألا يكفـي سـقوط مليـون شـهيد كي يعـدل ميـزان الذهـب؟ ومـن ذا الـذي يذبـح سـوريا، ظـل الشـمس في جنـة اللـه عـلى الأرض؟ وكيـف يفجِّـر أحـد المهندسـين في منطقـة عـدرا العماليـة إحـدى أسـطوانات الغـاز بنفسـة وبزوجتـه وابنتـه الصغـيرة؟ هـل يفعـل ذلـك خشـية أن يُسـاقوا إلى حظـيرة العبوديـة في دولـة الخلافـة الداعشـية؟ وتخلُـص إلى نتيجـة مفادهـا أن ثمـة "جرحـاً نازفـاً يرفـض الالتئـام، لكنـه يتحدانـا كي نرسـم صـورة لعـالم أفضـل ونشـكِّل ذاتنـا بشـكل أوضـح، فهـل نتمكـن مـن فعـل ذلـك؟ هـل يمكننـا كتابـة نصـوص تُقـدم قـراءة بديلـة للتاريـخ الإنسـاني والوجـه الصحيـح لحقيقـة الحريـة والعدالـة؟ ومـا هـي العدالـة؟ هـل هـي التقـوى أم القـوة؟"

هنا تحكي قصة رفيقتها حنان المتزوجة من الرجل الطيب علي، وكيف شاهدت بأم عينها طفلها وهو يُحرق في وسط مدينة الرقة، عاصمة الخلافة، على أيدي التكفيريين الإرهابيين، الذين يردُّ عليهم فتى يصرخ في وجه الظلام: أي عالم هذا الذي تساهمون في حرقه وتمزيقه تحت عنوان الحرية المزيف! كلنا سوريون، كلنا أبناء آدم وحواء، ومهما أمعنتم في الذبح والقتل، هل بامكانكم أن تحصوا عدد الكتب التي أحملها في تلافيف دماغي والتي تفضح أساليبكم النتنة..؟"

لذا قررتْ الكاتبة أن تكتب عن معاناة الأطفال والكهول والجرحى والمتضررين. ذلك أن الكتابة أصبحت أكثر التباساً، وعربُ مِن المحيط إلى الخليج ليسوا هم أنفسهم عربَ مِن المحيط الهادر الى الخليج االثائر. لكن دمشق ستبقى قلب العروبة النابض.

مرَّ الوقت وهي تلوك الأسئلة المكررة بشأن ما يحدث في بلادها، فهي لم تر في قصص الخيال والرعب ما رأته خلال السنوات الماضية. فلم يعد لدى السوريين براهين لإثبات ذواتهم، ولم تعد الأسماء تدل على معنى أو أحد، وتشابكت المصائر وبدتْ جوامع الوطن كمرآة مهشَّمة تعكس صوراً مشوهة لأجساد البشر التي مزقها الرصاص وقذفها أشلاء على الجدران، فصار المعنى أُحجية. وتساءلتْ :كيف يمكن توثيق التفجير الإرهابي الذي ضرب الجامع الأموي الكبير بدمشق مثلاً؟ كان ذلك اليوم الحزين يوم قتل وتدمير وخطف وتفجير وعويل. فرَكتْ "تاتا فايزة" عينيها لتمسح آثار الدموع، وقالت بصوت مرتفع: الأيادي التي تبلسم الجراح أقدس من اللسان الذي يصلِّي."

وترسل الكاتبة رسالة واضحة في مناهضة الطائفية والمذهبية البغيضة مُرفقةً بالأسئلة إلى عنوان رمزي للسنة والشيعة (محمد وعلي):
"ما دمنا أحياء يمكننا أن نصحح كل شيء، يمكننا أن نعي وندرك ونندم ونسامح.. أحبكما معاً، فلحمك لحمه ودمك دمه. مَن أمر بتقطيع الرؤوس وبتر الأوصال ورميها في نهر العاصي الذي عصا الطبيعة ولم يخلف لكما عهداً؟ مَن صبغَ دجلة والفرات بالأحمر؟ من قطع رأسيْ أبي العلاء المعري ومحمد الفراتي؟ مَن دمَّر الجسر المعلق؟ مَن أمر بتفجير مدرسة عكرمة المخزومي في حمص وحرقَ وسرقَ براعم الفرح من مباسم أطفالها في يوم الوقوف على عرفة؟"

الحرب الثقافية

ترى الكاتبة أن هذا الواقع المصنوع الذي ساقه مشغِّلو الإرهابيين و التكفيريين إلى مجتمعنا كما تُساق الإبل حوَّل الذات إلى زنزانة مهزوزة ومتشككة بكل شيء حولها و سيقود حتماً إلى الفشل والانسحاب من الواقع الفعلي إلى المزيد من الانطوائية والانكفاء على كهوف الذات. ولعلَّه أسلوب مبتكر للإقصاء والتهميش، ومراوغة استعمارية ذكية لترويج الرؤية الأحادية المنغلقة التي تحتكر الحقيقة وتؤسس لثقافة العنف والكراهية وإلغاء الآخر المختلف التي تتوارثها الأجيال بكل بشاعتها وقسوتها على المستويات المادية والفكرية والنفسية والعاطفية.

وهكذا دارت بنا الأرض، تفسّر الكاتبة، كي نرتاب في البديهيات، وباتت هذه الرؤى مستهجنة، بل مرفوضة في الثقافة المعاصرة بكل المعاني الثقافية والأخلاقية والدينية. فلماذا لم يعلِّموا هذا الجيل كيفية استعمال القلم والممحاة بدلاً من تعليمهم كيفية الضغط على زناد الكفر والتكفير؟

لا يمكن العثور على السلام الداخلي عن طريق قتل الحب. و إن ما تعكسه لنا مرآة الحرب الدائرة على سورية والعالم العربي هو حرب على كل القيم والمفاهيم والأعراف، أنه يلحق الكثير من الأذى والخراب الذي يمزق الأواصر الأُسرية ويهدد النسيج الاجتماعي ويصيبه في مقتل، مما يؤدي إلى التفكك والانهيار، وربما إلى الاحتراب بوسائل عنيفة وفتاكة.

وفي هذه الحرب الدائرة **على** سوريا **وفيها** تؤمن الكاتبة بأن السلاح الثقافي هو سلاح العقل، وهو السلاح الفعال، إذ أن مكافحة الإرهاب بالطرق العسكرية والأمنية وحدها لا تؤتي ثمارها الناضجة، بل لا بد من مكافحة العقلية التي أنتجت هؤلاء الإرهابيين التكفيريين، وينبغي إعادة النظر بالفكر الذي يتغذون عليه. وتعتقد أنه يجب ترميم ما حلَّ من خراب بالمفاهيم نفسها، من قبيل "الثورة، الحرية، الدين، والآخر".

لا بد إذن من مجابهة الحرب الثقافية الظلامية بأسلحة ثقافية تقدمية مضادة تحملها عقول مثقفين وطنيين تقدميين ملتزمين.

زفاف الياسمين: بلسم وعلاء

في نهايــة الروايــة يحــكي عــلاء، الجنــدي الســوري الــذي فقــدَ عينيــه في معركــة "المليحــة" المحــاصرة مــن قبــل جحافــل الإرهابيــين، مــا حــدث لــه ولرفاقــه الجنــود، وكيــف تحــرّك مــع أفــراد مجموعتــه لمداهمــة أوكار العــدو وفــك الحصــار عــن رفاقــه.. "وبغتــةً يختلــط الزمــان بالمــكان والحــي بالميــت، وبلحظــة، كــما يُطفــأ النــور في غرفــة مظلمــة، قُتــل النــور في عينيــه." أمــا بلســم، التــي تعطيهــا الكاتبــة مــن اســمها كل نصيــب، فتقبــل بعــلاء عريســاً لهــا، حيــث تقــدم نفســها بلســماً لجــرح عــلاء، ويُزَفّــان في حفــل زفــاف جماعــي وطنــي لجرحــى الجيــش العــربي الســوري، زفــاف الياســمين، ويعرُجــان إلى الســماء "الثامنــة"، حيــث يســكن الياســمين." وهكــذا يُهــدي عــلاء وبلســم للروايــة عنوانهــا: "حيــث يســكن الياســمين، زفــاف الياســمين".

الأوديسة السورية - 11 -

إلى لقاءات   فلك حصرية

يشـمل هـذا الفصـل سـبع مقـالات مختـارة للكاتبـة فلـك حصريـة، رئيـس تحريـر مجلـة الموقـف الأدبي التـي يصدرهـا اتحـاد الكتـاب العـرب في سـورية:

- "ذاتها"، العد 595، تشرين الثاني/نوفمبر 2020
- "في البدء كانت المقاومة"، العدد 590، حزيران/يونيو 2020
- "والرايات تنعقد"، العدد 588، نيسان/أبريل 2020
- "بين الدمعة والدمعة"، العدد 586، شباط/فبراير 2020،
- "ليس.. إلا.."، العدد 585، كانون الثاني/يناير 2020
- "طائر الفينيق"، العدد 580، آب/أغسطس 2019
- "الصاعدون السماء"، العدد 577، أيار/مايو 2019.

"ذاتها": ثقافتان/أُمَّتان

تـرى الكاتبـة فلـك حصريـة أن ثمـة ثقافتـين متضادتـين حتـى لـو كانتـا تعيشـان متجاورتـين في بلـد واحـد أو مجتمـع واحـد- وهـذا ينطبـق عـلى سـوريا- تمامـاً مثلـما عبَّر عنـه فلاديمـير لينـين أثنـاء إقامتـه في المنفـى في لنـدن عـام 1908، بعـد أن تجـوَّل في أحيائهـا الفقـيرة سـيراً عـلى الأقـدام واكتشـف بؤسـها الفظيـع وفقرهـا المدقـع، واسـتطلع أحياءهـا الغنيـة عـلى ظهـر حافلـة لندنيـة وشـاهد رغَدهـا الوثـير وثراءهـا الفاحـش، فأطلـق كلمتـه الشـهيرة "أمتـان" Two Nations.

ومـن هنـا تعقـد الكاتبـة مقارنـة، بـل تضـاداً، بـين ثقافتـين في بلدهـا: ثقافـة التوهـج الـذي يشـقُّ عنـان الفضـاء وعتمـة تراكـمات العصـور وينفـض الغبـار عـن الطريـق، ثقافـة تشـعُّ النـور وتبـدد الوهـم وتحمـل المعرفـة والإعجـاز، وثقافـة أخـرى تعتمـد الإطالـة والثرثـرة والحشـو غـير المقنـع وغـير القـادر عـلى منـح الاسـتمرارية للإبـداع الأدبي والعلمـي، حيـث "الـكلام مـن ذهـب والصمـت مـن فضـة"، ثقافـة تُرغـي وتُزبـد مـن دون منهـج أو خطـة، وتتسـم بانحسـار المعنـى:

- "ذات مـرة أطلَّـت مـن مسـامات المجهـول ثقافـة راحـت تتغلغـل في جسـم التراكيـب، و حـروف الكلـمات بصمـت، وبعيـداً عـن الجعجعـة، دقيقـاً يسـمن ويغنـي عـن الجـوع، ثقافـة فجَّـرت الضـوء وأزاحـت دياجـير الوهـم، واقتنصـت الغـروب بالزيـت المقـدس، فأزهـر وبرعـم وتفتَّـح وأينـع نضجـا يحمـل بـين طياتـه سـلال المعرفـة،

وإعجاز السحر، ورونق البلاغة.. بعيداً عن الإطالة والثرثرة والإمعان في الاستزادة من الاستطرادات والنسق اللفظي والحشو غير المقنع أو القادر - بالحد الأقل - على منح النسيج الإبداعي الأدبي والعلمي والولادي الإعجازي قدرة على الاستمرارية واكتساح زمن الخلود الأبدي."

- "ثمة ثقافة استطاع فيها نص قاهر أن ينتصر على زمن باتت له الرؤوس تغفو عند عتبات بلاغته، تيارات لم تؤثر أو تنحو باتجاه الثرثرة أو الإطالة ولم تكن لتستفيض وترغي وتزبد من دون منهج أو خطة، أو طريقة، أو انحسار المعنى وفق خيوط من الزخرف الجمالي، والاستدراج اللفظي، فكان الكلام من ذهب والصمت من فضة."

- " ثمة ثقافة انتشرت فيها معرفة ما زلنا نعيش على فتات موائدها، وتتشدق بأنها لا تزال قريبة منا على الرغم من امتداد المسافات، وثقافة من أجل النهوض بذاتها وإعلاء شأنها ورفعة مكانتها وكانت رسالة من أجل العلم والفكر والمعرفة والبناء، ثقافة قدمت للبشرية روائع وخلاصة التجارب الإبداعية في شتى الحقول وعرّفت العالم بقامات تركوا بصماتهم واضحة في مختلف المجالات.

ثمة ثقافة لا تزال تنتظر مشروعاً ثقافياً استراتيجياً كبيراً يقدم الأفضل في مجال الاستثمار الثقافي باعتبارها من عوامل التنمية الاقتصادية، مقابل ثقافة أخرى استهلاكية متهالكة متداعية لا تستهدف بناء الإنسان وتطوير أدواته الثقافية... ثقافة خلقت رموزاً عظيمة يُعدون ثروة وطنية ثقافية مقابل ثقافة سقطت في الإسفاف والابتذال، فصار مكانها اللائق مزبلة التاريخ:
"ثمة ثقافة لا تزال تنتظر المشروع الثقافي الاستراتيجي الكبير، الذي يقدم الأفضل والأجدى في مجال الاستثمار الثقافي، وكيفية توظيف الثقافة في عملية الاستثمار، بشكل علمي صحيح وفعال ودقيق، باعتبار الثقافة عامل جذب من عوامل توليد الثروة والتنمية الاقتصادية.. و ثقافة أقرب إلى شكل مستهلك متهالك و متداع منها إلى ثقافة صنع رأي عام يستهدف الإنسان وأدواته الثقافية ، ثقافة تضع النقاط فوق الحروف و تكشف عن أن أدب غادة السمان وفدوى طوقان وكوليت خوري ووداد سكاكيني وماري عجمي لا يقارن بالمبتذلات الرخيصات

في ساحة الرقص البصري والسمع المتوتر، وأن نزار قباني والمتنبي وأبا نواس ومحمود درويش والجواهري وشوقي و.. و... هم الثروة الوطنية الثقافية لعالم سقط بين أحضان الإسفاف الموسيقي والابتذال الكريه، المفكك والماضي إلى مزبلة التاريخ."

وخلاصة القول: أية ثقافة نريد؟ أية ثقافة نحن بحاجة إليها؟

ترى الكاتبة فلك حصرية أننا بحاجة إلى ثقافة حقيقية تعيد ألق المسارح والمراكز الثقافية الحقيقية والعمل على الاستثمار في المجال الثقافي، وهي مهمة تقع على عاتق اتحاد الكتاب العرب بعيداً عن الكراسي والمنافع والمكتسبات الشخصية التي لا تصنع ثقافة أو أدباً:

"إننا بحاجة إلى ثقافة حقيقية بعيدة عن المنابر المتهالكة والمؤلفات المريضة، ثقافة تعيد ألق المسارح والمراكز الثقافية الحقيقية. عند ذاك، سنقول وسنعمل على أن يكون الاستثمار في المجال الثقافي حقيقة وواقعا، ونفي بعهدنا تجاه القيادة والقائد، وهذا ما على اتحاد الكتاب العرب عمله وبقوة بعيدا عن الكراسي والمنافع الشخصية والمكتسبات التي لا تصنع ثقافة أو أدباً أو حتى جناح بعوضة."

"في البدء كانت المقاومة": في البدء كانت الكلمة

في البدء كانت المقاومة/ في البدء كانت الكلمة. نعم، فإن للكلمة عند فلك حصرية قيمة لا تُضاهى، حتى أنها تستعير عنوان هذا المقال من إنجيل يوحنا، الآية 1: "في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله"، وتستخدم قدسيتها لوصف المقاومة. وللكلمة معان ودلالات واستخدامات عظيمة عند العديد من الكتاب والمثقفين. فهي عند الشاعر عبدالرحمن الشرقاوي في قصيدته "الكلمة نور" تعني النور ودين الله وشرف الرجل ومفتاح الجنة والنار والفرقان بين النبي والبغي، وهي دليل الأمة وحصن الحرية، وهي التي زلزلت عروش الظالمين.

أما بالنسبة لفلك حصرية، فالكلمة هي الثقافة؛ فابتداءً بعنوان المقال، تعمد الكاتبة إلى إبراز الأهمية الفائقة للكلمة، إذ ترى أن الكلمة كانت، عبر العصور

مثابة "رصاصة" وأداة تساعد على تحقيق ما تسعى إليه الشعوب وحركات التحرر والتغيير والمبدعون في سبيل خلق مجتمعات يسودها العدل والمساواة وتُرشدها المبادئ والمُثل العليا. كما أن للكلمة المَصوغة في أشكال أدبية مختلفة أهمية بالغة، ومنها تنطلق شتى الأعمال الأدبية والفكرية، وبها تتباهى الأمم بثقافاتها وتاريخها. وتؤكد الكاتبة أن الثقافة هي حاجة عليا للمجتمع، وبدونها لا تنهض الشعوب، ولا تحقق تطوراً ونمواً ومكانة بين الأمم. كما تؤكد على أهمية الثقافة و خطورتها البالغة، حتى أنها تستحضر العبارة الشهيرة التي استخدمها وزير الدعاية السياسية النازي جوزيف غوبلز: "كلما سمعتُ كلمة ثقافة أو مثقف تحسَّستُ مسدسي":

"لقد استطاعت الكلمة، وفي كل العصور، والمراحل، والأزمنة والتغيرات أن تكون مثابة "الرصاصة" القادرة، مختلف المعايير، على التدخل وضبط ما من شأنه أن يكون قادراً على وكفيلاً وضامناً لما تسعى إليه الشعوب وما تتطلع إليه حركات التغيير وما تسعى إليه أقلام المبدعين من خلق المجتمع المتكامل والمتكاتف والمنسجم، الذي يسوده العدل، وتحرسه المساواة، وتقوِّيه فضائل الأخلاق والمبادئ.. من هنا كان للكلمة المصوغه ضمن قوالب: شعراً أم مسرحاً أم قصة قصيرة أم رواية، أم دراسات.. أهمية لا حدود لها وأهمية لا تؤطَّر مساحات. فمن الكلمة تنطلق شتى الأعمال الأدبية والفكرية والتاريخية والجمالية، ومن الكلمات تتباهى الأمم بثقافاتها، وتتحدى بلغاتها، وتفخر بسجلها وواقعها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، حتى إذا ما اقتربنا من السلاح الفتاك القاتل والمدمر، وغير المرئي "الأشبه بالسحر" كانت الثقافة البنّاءة أو المدمرة، المعمِّرة أو المخرِّبة، الثقافة التي تذوب في بوتقتها كل الاختلافات وشتى التضادات وجميع الاتجاهات، فتوحد ولا تفرق، وتقرب ولا تباعد، وتحابب ولا تباغض.. إنها ثقافة تتجه من السمو، وتتوجه إلى السمو، ثقافة تنطلق من أبجدية سهلة، سلسة، راقية، سليمة، لتصب في ثقافة وطن يرى الحضارة ويقدرها بُناتها من المبدعين والكتاب وحراس حدوده. إن الثقافة هي الحاجة العليا للمجتمع، وبدونها لن تنهض الأمم، ولن تقوم لها قائمة، ولن يكون صولة وجولة لوجودها وتطورها ونموها ومكانتها بين الأمم."

وتخلُص فلك حصرية إلى أن الثقافة يجب أن تكون متسقة مع إطارها المجتمعي، وأن تكون إنسانية واجتماعية متطورة، وأن تجمع بين إرث الماضي الاجتماعي وبين الأجيال الجديدة، بين ثقافة الأجداد والأحفاد:

"إن على هذه الثقافة أن تنسجم مع إطارها المجتمعي الذي قام بخلقها، وحدد صفاتها وخصائصها، وأن تكون ثقافة إنسانية واجتماعية وتطورية تكاملية، وأن تبقى في حالة تطور وتقدم، جامعةً ما بين إرثها الماضي الاجتماعي، وبين أجيالها الجديدة، بين ثقافة الأجداد وثقافة الأحفاد، عبر عمليات التثقيف والتنشئة والإعداد الثقافي والمجتمعي."

"ليس.. إلا..": نوستالجيا زمن الثقافة الجميل

في هذا المقال تمرُّ الكاتبة فلك حصرية في حالة نوستالجيا ثقافية، إذ يغمرها الحنين إلى زمن الثقافة الجميل، وتغرق في بحر الذكريات الوجدانية واستحضارها إلى أن يذوب الحاضر في سرديات الماضي.

وتقول إن الحنين في بعض الأحيان يتمرد على النسيان وينسحب إلى محطة أخرى في قطار العمر، يتوقف المرء عندها في محاولة لتعويض الزمن الذي سُرق منه من دون أن يعيشه كما يجب.. فقد يحوِّل النسيان الذكريات الجميلة إلى حطام مهمل يموت فيه نبض الحياة وتذوي جماليات التعبير الإبداعي التي تطغى عليها القوالب الجاهزة وتَداوُل "بوستات" وسائل التواصل الاجتماعي لمفاهيم ومصطلحات لا علاقة لها بالإبداع وتشكيل وعي إنسان جديد يُعاد أعداده وتأهيله وتسليحه بعد سنوات الحرب المدمرة الظالمة على سورية.

والزمن الثقافي الجميل الذي تعود إليه الكاتبة هو زمن شهدت فيه مدرجات الكليات الجامعية قامات أدبية باسقة وشباباً جامعياً متعطشاً للنهل من ينابيع الإبداع، زمن احتضن ثقافة حقيقية بعيدة عن الزينة والتبرُّج. وتذكر في هذا السياق قائمة غير حصرية بأسماء المبدعين من الكتاب السوريين والعرب:

"يا لتلك الحرائق المشتعلة في النفوس والرغبات الحقيقية التي تتوق إلى إعادة وهج ماضٍ كان فيه الألق واضحا من المرسل والمتلقي، أدبيا وثقافيا وإعلاميا ومسرحيا واجتماعيا... ماض شهدت فيه مدرجات الكليات قامات أدبية مبدعة.. مدرجات تغص عن آخرها بجيل جامعي شاب جاء متعطشا للارتواء من ينابيع الإبداع الشعري والقصصي والمسرحي والنقدي والثقافي.. زمن زيَّنته أسماء قامات من المبدعين: ممدوح عدوان، وسعد الله ونوس وعيسى أيوب، وحسين حمزة، وحيدر علي، ومحمد الماغوط. ومَن منا ينسى سليمان العيسى ونزار قباني ومحمود درويش وبدر شاكر السياب والجواهري و..و... يوم كانت فيه ثقافة حقيقية يتلألأ نورها في مدرجات الجامعة وهي تضج بجمهورها لتتجاوز أعداد الواقفين أعداد الجالسين، وليبدو المسرح الجامعي في أبهى حلته، وأجمل عروضه وأرقى مضامينه، وقد استقطب الجمهور وجيل الشباب فتبقى عناوين مسرحياته في الذاكرة: "الأشجار تموت واقفة"، وعناوين أخرى لمسرحيين عالميين يقدمها جيل الشباب من طلاب الجامعات وطالباته...يا لزمن غصت فيه المقاعد بالمهتمين بفنون الأدب والمسرح، وقد رافقها صدى تصفيق واع، راق، يتماشى مع عرض مسرحي لأبي خليل القباني وسعد الله ونوس ومحمد الماغوط."

كما تذكِّرنا الكاتبة، ولها الشكر، بكلام ثمين في الثقافة قاله الرئيس بشار الأسد في لقائه مع مجموعة كبيرة من المثقفين السوريين والعرب في قصر الضيافة بدمشق، وشدَّد فيه بحماسة وإلحاح على دور الفكر والمفكرين والثقافة والمثقفين في المعركة الثقافية ضد قوى العدوان على سوريا والتصدي للفكر الوهابي التكفيري، وحثَّهم على اجتراح المشاريع الثقافية التي ترقى إلى مستوى التصدي للحرب الممنهجة، وقال بكل تواضع ما تقتبسه فلك حصرية في هذا المقال: "أنا جاهز، وعليكم أن تضعوا مشاريعكم الثقافية القادمة...الكرة في مرماكم، وينبغي أن تطرحوا مشاريعكم ضمن استراتيجية ثقافية متكاملة قادمة." وكاتب هذه السطور شاهد عيان على هذا الكلام؛ فقد كان لي شرف المشاركة في ذلك اللقاء الهام الذي عُقد بمناسبة الاحتفالية الذهبية بتأسيس اتحاد الكتاب العرب بدعوة كريمة من الاتحاد.

وأذكر أنني في ذلك الحوار الراقي مع الرئيس تقدمتُ، نيابةً عن ثلة من الكتاب

والمثقفين والأساتذة الجامعيين الأردنيين الأصدقاء، باقتراح متواضع يتلخَّص في إطلاق نداء إلى جميع المفكرين والفلاسفة والمؤرخين والكتاب والفنانين الوطنيين والتقدميين من البلدان العربية كافة، ممن لديهم الاستعداد للإسهام الفكري في الاضطلاع بمهمة "وجودية"، وهي مهمة إنتاج الأفكار واجتراح التحليلات والمقاربات والحلول الكفيلة بإخراج شعوبنا من المأزق الحضاري وإعادتها إلى متن التاريخ الإنساني، ما يقتضي التنادي من أجل إنشاء ملتقى فكري تقدمي تشاركي في مختلف الحقول الفكرية، يتَّسم بالصراحة العلمية والشفافية البحثية بهدف محاولة التوصل إلى استخلاصات مشتركة بشأن الخروج من عنق الأزمة المسدود إلى فضاء الحلول المفتوح.

وقد لا يلبي هذا الاقتراح المواصفات التي تطرحها فلك حصرية في هذا المقال، لكنه يبقى اجتهاداً على كل حال. فالكاتبة ترى أن أية مشاريع ثقافية يجب ألا تنقطع عن الجذور الأولى، وأن تشكل همزة وصل بين الماضي والمستقبل، وأن تكون بعيدة عن الشخصنة والمصالح الخاصة والاجترار والتكرار وطرح عناوين فضفاضة وكسيحة التحقيق وفجة لا تمثل مجتمعاً عاش حرباً ليس ككل حرب، وقدم شهداء فاقوا عطاءات من استشهدوا عبر التاريخ. هي ثقافة تطال كل فرد من أفراد المجتمع، لا إقصاء فيها ولا مكان للأهواء والانقسامات والمزاجية والانتقائية النفعية...

وترى الكاتبة في الوقت نفسه أن أي مشروع ثقافي قد نتطلع إليه ينبغي أن يكون مواكباً لطموحات أمة لا تحتاج إلى اجترار إرهاصات مضت وانتهت، فالميت لا يمكن أن يحيا، والماضي إنما هو انطلاقة إلى الأمام دائماً، لتبدأ إعادة بناء الثقافة من سؤالين جوهريين حقيقيين، ليس أكثر:

- "أين جمهور المراكز الثقافية والفعاليات الأدبية والمسرح والسينما والمعارض التشكيلية والنشاطات الفكرية والندوات و.. و...؟

- أين الجيل الفاعل والمنفعل الذي يحمل رسالة قامات سبقتْه ويؤديها بصدق وأمانة؟ ويضيف إليها معطيات وإنجازات وبصمات تقدم العتاد والعدة لغد ثقافي فاعل يسهم في بناء صرح ثقافي قوي وصامد ومقاوم؟"

فمتى نستطيع أن نضع مشاريع ثقافية راقية وذات مستوى رفيع تؤهلنا للإسهام في حل معضلة غياب أو إقصاء ثقافة فاعلة هي حاجة عليا للبشرية وهي المستهدفة دائما وأبداً في المجتمعات البشرية والتجمعات الإنسانية؟

"بين الدمعة والدمعة": أسئلة الأدب والحرب

تستهل الكاتبة مقالها هذا بمجموعة من الأسئلة الصادمة والمحيِّرة بشأن تأثير الأدب والفن وما يستطيع كفُّهما أن يفعل في مواجهة مخرز الأسلحة الفتاكة. وتعقد مقارنة/تضاداً بين الحرف والحرب، بين الكلمة الوردة والحرب الرصاصة:

- "ما الذي يمكن للحرف أن يفعله وسط الركام، ومقابل الرصاصة، وفي وجهها ؟
- ماذا عساه الشعر أن يرد على قذائف المدفع ويُسمع صوته لوحشية القذيفة؟
- ما عساها الرواية أن تواجه الصاروخ، وتفتت مركباته قبل أن يمزق رقَّتها، ويسحق ويبعثر أوصال تماسكها، ورقَّة انسيابها؟؟!!
- أيُّ مكان يمكن فيه للأثر الأدبي أن يخفي ما أصاب أوصاله من التمزق النفسي والتشتت العضوي، وقد تناثرت شرايينه بقايا أشلاء تكتب ما جرى، وتسرد وحشية الحرب؟
- أنّى للوردة أن تغمر العالم بضياء من الشذى الذي يُحيي القلب، وينشر السلام والأمان؟ وكيف لها أن تقف في وجه رصاصة تخترق سحاب الفرح، وتخطف كل الأشياء الجميلة والورود الرائعة من حدائق الوجود؟ أنّى للوردة أن تستطيع احتضان عالم مدمَّر، مسحوق، نازف يتآكل ويتفتت، ويستحيل ترابا؟"

نحن هنا أمام أسئلة مستعصية أو شبه نافية تشي باستحالة العثور على إجابات متفائلة، وبأن الكاتبة في طريقها إلى إعلان النتيجة اليائسة، بيد أنها تفاجئنا باجتراح الأمل الذي تستمدُّه من موقفها المبدأي من الحرب العدوانية على بلادها ومن رؤيتها للدور المنوط بالثقافة والفكر والأدب والفن، الذي ينبغي أن يضطلع به المفكرون والمثقفون والأدباء والفنانون على الجبهة الثقافية للتصدي للعدوان الهمجي والفكر الظلامي التكفيري والليبرالية المتوحشة، فتجيب:

"إن الأدب هـو الوجـه الآخـر للحيـاة بـكل وجوههـا، وهـو المـرآة التـي بإمكانهـا أن تحمـل الحـروب وآثامهـا وذنوبهـا، بوحشـيتها وتفاصيـل أو بعـض تفاصيـل وقائعهـا، بوجههـا المـشرق في تسـجيل انتصـارات الشـعوب، وبوجههـا الأسـود عندمـا تتنقـم مـن البشريـة وتـورث أوطانهـا كـوارث القتـل والفقـدان والمقابـر والأمـوات."

وتوضـح رأيهـا بـأن بـين الرصاصـة والـوردة قصصـاً خبَّأهـا التاريـخ، وربمـا خلَّدهـا، ومـرَّ بهـا أدب حمَـل عـلى جناحيـه وقائـع وسرديـات تُـردد صـدى دويِّ الحـرب الطاحنـة والدمـار الرهيـب، ليتـلاشى ذلـك الصـدى شـيئاً فشـيئاً، ويبقـى الأدب هـو الحامـل الناعـم والحافـظ الشـفيف لتلـك الوقائـع والسرديـات.

"والرايات تنعقد": لمن تنعقد الرايات؟

بعـد انتصـاره في معركـة ميسـلون الخالـدة توجَّـه الجـنرال الفرنـسي غـورو، الـذي قـدِم مسـتعمراً ومغـروراً بنـصره، إلى ضريـح صـلاح الديـن الأيـوبي مخاطبـاً: "هـا قـد عدنـا يـا صـلاح الديـن!"

وتعتقـد الكاتبـة أن يوسـف العظمـة، عندمـا خـرج إلى ميسـلون، كان عـلى يقـين بأنـه لـن ينتـصر، وأنـه سيستشـهد لا محالـة أمـام القـوة المسـتعمرة الغاشـمة وبسـبب القـوة القليلـة في جانبـه، ومجمـوع الأفـراد الذيـن اجتمعـوا مـن أجـل الذهـاب إلى أرض المعركـة، بعـد تسريـح الجيـش النظامـي وانضـمام المتبقـي منـه إلى صفـوف الثـوار، بالإضافـة إلى انضـمام ثـوار آخريـن وزعـماء الأحيـاء الشـعبية والمواطنـين العاديـين مـن مختلـف المناطـق.

إلا أن بطـل ميسـلون أراد أن يـردَّ عـلى الجـنرال غـورو بالقـول إن النـصر ليـس النتيجـة الحتميـة لـكل معركـة مـع العـدو، وليـس شرطـاً مسـبقاً لخـوض المعركـة، فالمهـم هـو السـعي للانتصـار، مـع المحافظـة عـلى كرامـة الوطـن. وأراد أن يقـول للفرنسـيين وغيرهـم "إن السـوريين يريـدون أن يدافعـوا عـن وطنهـم، وأن يثبتـوا للمسـتعمرين بأنهـم ليسـوا ممـن يُنالـون وتُسـتباح حرماتهـم بسـهولة، وإن الجيـش الغـازي إذا دخـل بـلاده بسـهولة فإنـه لـن يسـتطيع أن يخـرج منهـا بمثلهـا، بـل سـيدفع ثمنـاً غاليـاً."

وبدورها تردُّ الكاتبة بقوة على تبجح الجنرال غورو، حيث تعتبر أن استشهاد يوسف العظمة ورفاقه منذ اللحظات الأولى لدخول الغزاة الفرنسيين سوريا في معركة ميسلون عام 1920 طرح ثمرة غالية، هي الجلاء التام عن سوريا في 17 نيسان/أبريل 1947، وكأنما كان صمت صلاح الدين في قبره طوال تلك القرون قوة ردع ضاربة بأيدي أحفاده، وعلى الباغي تدور الدوائر. وتمضي الكاتبة قُدماً لاستنهاض المقاومين السوريين اليوم للتصدي للعدوان الهمجي العالمي على بلادها بمخاطبة الشهيد العظمة ودعوته إلى "القيامة" من قبره "رافعاً راية فخر خضَّبتها دماء ميسلون":

"قُم يا يوسف، انبعثْ براية فخر أوقدْتَها من دماء طهَّرتْ ميسلون، وغسلتْ عن جبين الشام غبار مستعمر اندحر وسقط على عتبة إرادة رجال وهمم أبطال لو قالوا للقدر كُن فسيكون، وللنصر ائتنا لأتى...أبطال يعشقون الموت عشقهم للحياة ويطلبون الشهادة طلبهم للخلود، ويتخضَّبون بدمائهم كتعطرهم بالمسك والزعفران والقرنفل.. أبطال راياتهم لم تُنكَّس أبداً، فهي تخفق على بوابات الزمان ومعابر القتال وخنادق الفداء والبطولة والصمود والسمو والانتصار.. أبطال ذاقوا حلاوة الانتصار وعشق صباحات الوطن وأغاني البيادر وزغاريد أمهات الشهداء، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، فرحين بإيابهم إلى العلا، وقد كتبوا أبد الدهر أن الحياة وقفة عزٍّ."

"طائر الفينيق": يحيل الزمان رماداً ولا يستحيل رماداً

تبدأ الكاتبة مقالها ببث أشواقها إلى دمشق القديمة بحاراتها العتيقة المشبعة بعبق الياسمين، وتتذكر أماكنها واحداً واحداً: القيمرية والعمارة والبزورية وسوق الحميدية ومدحت باشا والجامع الأموي والكنيسة المريمية والمكتبة الظاهرية... كما تتذكر الأحبة من سكانها، فتتذكر معهم بيت قيس بن الملوح في عشق ليلى:

"وما حُب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا"

وأتذكر معها بيت أبي الطيب المتنبي:

"لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها".

وحين تكابد فلك حصرية مثل هذا الشوق، تشتعل في داخلها ألسنة الحنين الحارقة، فتقصد جدران الزواريب الضيقة كما الشرايين الواصلة إلى أجزاء الجسم والقلب:

".. يصيبني الشوق... وتشتعل في داخلي ألسنة الحنين الحارقة، فأقصد جدران الزواريب الضيقة كما الشرايين الواصلة إلى أجزاء الجسم والقلب... فأركع عند معبد طرقاتها وأفحص نبضاتي التي غادرتْني إلى الجدران المعشَّقة بإشعاعات غنج، وشلال منسكب من الفل والغاردينيا... فأمضي... وأمضي، وأغذُّ الخطا قاصدة حي القيمرية الذي اعتادني بحزني وقهري، وتعوَّدني في فترات عشقي ومحطات فرحي وضياعي.. عرفني ألوذ به طفلة تركن برهبة إلى حديث الذكريات..."

إنها لا تستطيع نسيان دمشق التاريخ وناسَها الطيبين. فكيف يمكنها ذلك؟ وكيف يمكن لنشيج الروح أن يفصل بين الدفقة والأخرى والقلب ههنا.. وهناك وراء كل قصص الحياة، وقوافل المغادرين، وقرقعة القادمين..؟" فقد كانت على يقين من أنه لا سبيل لها إلى النسيان وهي في عمق اللانسيان...

وفي مِسك ختام المقال، تستذكر الكاتبة "أنبل بني البشر" عندما تنظر إلى الجدران التي تحتضن صور الشهداء الذين حملوا أرواحهم على أكُفّهم وبذلوا دماءهم لري مساكب الورد، فتحولوا إلى نجوم مزهرة في سماء بلادهم، وباتت صورهم واسماؤهم تزيّن الأماكن والأزمنة والكتب والمذكرات وتحتل مكانها اللائق في التاريخ كي تبقى سوريا كطائر الفينيق الذي ينهض من وسط الرماد طائراً للخلود:

".. سطور الحنين تروي، وتقص، وتحكي، وتتحدث عن جدران باتت تحتضن صورة لشباب مضوا أنجما مزهرة بعدما حملوا أرواحهم على أكفهم، ليزرعوا مساكب الورد الجوري في كل ركن وزاوية وطريق وحارة... شباب ما تزال صورهم تزين حارات وزواريب وأسطحة بيوتات دمشق القديمة وساحات ومبانٍ وحدائق، ومواقف الحافلات والأزمنة والتاريخ والكتب والمذكرات لتبقى دائما حكاية سورية كما طائر الفينيق الذي ما أن يحترق ويتحول رماداً حتى

يعيد سيرته الأولى، يعود طائراً للخلود، يحيل الزمان رماداً ولا يستحيل هو رماداً، لأنه باختصار طائر فوق الاحتراق والرماد.“

”الصاعدون السماء“: معراج الشهداء

من هم الصاعدون السماء؟ سؤال بدهي لا يُسأل! إنهم الذين حجزوا في رحلة الشهب نحو الغياب.. الذين لم يتوانوا عن اقتحام المصائر المجهولة التواقيت.. الذين عرَجت أرواحهم إلى السماء السابعة واحتلت موقع القلب منها.. الذين كتبت عنهم صفحات التاريخ ما لم يكتبه يراع.. الذين عندما أرادوا أن يكتبوا، لم يختاروا الدم حبراً والجسد ورقة والروح كتاباً مقدساً.. الذين لم يقرضوا الشعر، ومع ذلك صاغوا قصائد إعجاز... هل عرفتم الآن مَن هم الصاعدون السماء؟ إنهم الشهداء!!

وتصف الكاتبة لحظة الفصل بين الحياة والموت أمام الشهيد الفارس الذي اختار بلا خوف أو تردد أن يمتشق روحه سلاحاً للدفاع عن ثرى بلاده، تاركاً الصبايا يحضِّرن لعرسه والأمهات يزغردن له والأطفال يقرأون الفاتحة على طهارة روحه ويتعرفون عليه في كتبهم ويحفظون أسمه في أناشيدهم المدرسية الصباحية ويرسمون صورته بألوان الطيف لتبقى خالدة على مدى الزمن.

هؤلاء إذن هم الشهداء كما تراهم فلك حصرية:

- ”مِن حيث لا يدرون حجزوا في رحلة الشهب نحو الغياب..“
- ”من حيث لا يترددون لم يتوانوا عن الركض نحو عربات القطار الذي لم تكن رحلاته إلا مجهولة التوقيتات وغامضة الانطلاق ومفتوحة الأعداد والراحلين، على مدى الدهر، وبطول المسافات التي تفصل ما بين السماء والأرض
- الذين تروي عنهم صفحات التاريخ ما لم يخطُّه يراع وتحفظه سيرة ويردد صداه دهر..“
- ”لم ينظموا الشعر، ومع ذلك صاغوا قصائد اعجاز تعرفها أزمان وأزمان، ورتَّلتها جداول الخلود.. “
- ”كانوا والجبال يتسابقون ويتراكضون، يتحاورون ويتصارعون، ويتنافسون على

المـوت وقوفـاً، وعـلى اقتـلاع الريـح الـصرصر مـن مكمـن جبروتهـا لتكـون مواسـم الحصـاد خـيِّرة، وافـرة، هادئـة بعـد غـرس بـذور العطـاء..“

وتختتـم الكاتبـة فلـك حصريـة مقالهـا بـوداع مهيـب للشـهيد، في موكـب يشـيّعه إلى الخلود:“عنـد نقطـة“ الفصـل مـا بـين الحيـاة والمـوت انتصـب الفـارس بـلا وجـل أو خـوف أو تـردد، امتشـق حياتـه مصبـاح روح وسـلاحه نـور درب، ومـلء عزيمـة، بـأن الطريـق لـن يسـيِّره إلا إلى الأمـام دومـاً. وأن وراء انسـكاب نبضـه، وشرايـين فـؤاده صبايـا بلـده يحـضِّرن لعرسـه ويزغـردن، وأمهـات يدعـون لـه ويصنعـن أطـواق الفـل والياسـمين والـورد الجـوري والغاردينيـا ليزيِّـن بهـا صـدر الوطـن المـشرَع للأمـل والحيـاة والكرامـة، فيـما يقـرأ الأطفـال الفاتحـة ويتعرفـون عليـه في سـطور كتبهـم المدرسـية، ويحفظونـه اسـتظهارا في أنغـام أناشـيدهم، ويرسـمونه بألـوان الطيـف، ويسـترجعون صـدى حكايتـه في تراتيـل الصـلاة وأجـراس الكنائـس وآيـات القـرآن واشـعاع الهـلال..
”لتبقـى عـلى مـر الزمـن كلـمات خالـدة تُرافـق الذكـرى، وتمجـد الراحلـين جسـداً، الخالديـن ذِكـراً ورجولـة وبطولـة وسُـموَّاً.“
إنهم الشهداء!!

كوكبة الكتاب والأدباء والشعراء السوريين الذين يضمُّهم الكتاب الأول للأوديسة السورية

(ترتيب الأسماء بحسب الحروف الهجائية، مع حفظ الألقاب)

أحلام غانم
أحمد سعيد الحارة
إسماعيل ركاب
بديع صقور
جابر ابراهيم سلمان
جابر خير بك
جميل حداد
جهاد الأحمدية
جهاد طاهر بكفلوني
جودي العربيد
خالد أبو خالد
ربيعة نجم غانم
رجب كامل عثمان
سلمى جميل حداد
سليمان السلمان
صالح هواري
عباس حيروقة
عبد الكريم يحيى عبد الكريم
عبدو سليمان الخالد
عصام ترشحاني
علي جمعة كعود
علي سليمان
عماد نداف
غسان كامل ونوس
فادية غيبور
فايز عز الدين
فرحان الخطيب
فلك حصرية
لينا حمدان
ليندا ابراهيم
مالك صقور
مجيب السوسي
محمد حديفي
محمد حسن العلي
محمد خالد الخضر
محمد خالد رمضان
محمد رجب رجب
محمود حبيب
محي الدين محمد
مرشدة جاويش
مصطفى صمودي
موفق نادر
ناديا خوست
نزار بني المرجة
يحيى محي الدين

*أدعو الزملاء الكتاب السوريين الأفاضل/الزميلات الكاتبات السوريات الفضليات إلى االتكرم بإرسال أعمالهم/أعمالهن الأدبية التي تندرج ضمن نطاق البحث على شكل word document ، كي أتمكن من تقديمها في الكتاب الثاني للأوديسة السورية، والتواصل عبر العناوين الظاهرة في بداية الكتاب.

لمحة: مَن أنا؟

كاتب؟ مناضل؟ إنسان؟

أو من اليسار إلى اليمين:

إنسان؟ مناضل؟ كاتب؟

لست هنا بصدد ترتيبها بحسب الأهمية، فأنا ثلاثتهم:

- **كاتب**، منذ منتصف الستينيات من القرن المنصرم ، خربشَ الشعر، ثم كتب المسرح والقصة القصيرة والمقال الأدبي والبحث السياسي والثقافي.. أسهم في تأسيس رابطة الكتاب الأردنيين المستقلة عن الحكومات المعيَّنة في منتصف السبعينيات.. كاتب مُقلٌّ وكسول، لكن مجتهد في ما يكتب..لا يلهث خلف الجوائز الثقافية المغمَّسة بالنفط ولا يتصيد المكاسب ولا يستجدي المكرمات ويا غُلام أعطه ألف درهم.. لا يعزف اللحن الذي يطلبه المانحون والرعاة..لا يعتنق خرافة الفصل التعسفي بين الثقافي والسياسي، ولا يأبه بالرطانة الثقافية الليبرالية، بل يؤمن بأن للثقافة والمثقفين دوراً ورسالة عظيميْن كمتراس في الخط الأمامي للوطن، وحارس لثقافة الشعب وهويته، وحافظ لوجوده الحضاري في متن التاريخ..

- **مناضل** وطني وأممي لا يؤمن بفن الممكن.. أسهم في تأسيس وقيادة عدد من المنظمات السياسية والنقابية.. ابتلعته الزنازين والسجون و"الاختفاءات" القسرية في حقبة الأحكام العرفية وقوانين الدفاع المكارثية التي دامت عقوداً.. يتقدَّم الصفوف بجسارة حين تدلهمُّ الخطوب، ويعود إلى الخلف تواضعاً وإيثاراً حين تنفرج.. مستعد للتضحية، ولا يقبل بدور الضحية..لا يعلن البراءة من تاريخه وخياراته الإرادية، ولا يندم على لحظة من عقود الجمر التي اكتوى

بنارهـا.. لكنـه لا يكابـر بأخطائـه أو يتنصَّـل منهـا.

- **إنسان** زاهـد النفـس ضامـر "الإيغـو Ego".. يعشـق التأمُّـل والتفكُّـر أكـثر مـن الـكلام والخطابـة.. يفضِّـل فضـة الصمـت عـلى ذهـب الـكلام..لا تغريه الشاشـات الفضيـة أو الذهبيـة أو الماسـية.. تؤرِّقـه معضلـة التصالـح مـع الـذات، والرضـا عـن النفـس بـدون أن تكـون "عـين الرضـا عـن كل عيـب كليلـة".. فكيـف يمكنـه تحقيـق ذلـك؟ أو هـل بوسـعه أن يغمـض عينيـه عنـه و يغفـو، "فلـو تُـرك القطـا لغفـا ونـام"؟ ومـا هـي الرسـالة/العبرة التـي سـيورثها لمـن بعـده؟: مـع جَسـامة كل تلـك التضحيـات وفَداحـة كل تلـك الجرائـم، لأن في رأسـه رؤيـة مغايـرة بشـأن حـاضر و مسـتقبل بلـده و شـعبه، هـل ينضـب زيـت سراج العمـر و يفلـت الجـاني مـن العقـاب أو حتـى مـن الاعتـذار؟ إنهـا لعمـري "قسـمة ضِيـزى"!!